

أصول التراث المسيحي في شمال أفريقيا

دراسة تاريخية عن القرنين الأولين

تأليف روبين دانيال

المحتويات

المقدمة
الجزء الأول: الثمار الأولى (القرنان الأول والثاني)
١ - البذار قد بُذِر
٢ - الانفتاح على العالم المتحضر
٣ - البحث عن الله
٤ - الأخبار السارة
الجزء الثاني: عصر ترتوليانوس (أواخر القرن الثاني- أوائل القرن الثالث)
٥ - أسلوب الحياة الفاضلة
٦ - الجماعة المسيحية
٧ - انتصار الحق
٨ - الكتابات الروحية
٩ - معاناة الأبرياء
١٠ - المحن الخارقة
١١ - المعدَّبون المبتهجون
١٢ - قوة الحياة الجديدة
تواريخ وأحداث

المقدمة

إن المسيحية جزء أساسي من تراثنا الديني والثقافي في شمال إفريقيا. فقد عرف الناس، في هذه القارة، طريق المسيح وأحبوها زمناً طويلاً قبل أن تصل تعاليمه إلى أوروبا الغربية وأمريكا والشرق الأقصى.

ففي مدة لا تتجاوز الخمسين سنة منذ أن ألقى المسيح الموعظة على الجبل، ترسّخ الإنجيل في شمال إفريقيا كإيمان غير محصّن لأقلية مضطهدة. وخلال قرنين ونصف، سمع سكان هذه البلاد إنجيل المسيح واستجابوا له لا بتأييد من السلطة الرومانية، بل على الرغم منها. والواقع أن الحكام والقضاة الرومانيين عملوا كل ما بوسعهم للضغط على الإيمان، وتدمير قاداته، ولجر أتباعه إلى المعابد الوثنية. كما سنّت على أعلى المستويات سلسلة جازمة من القوانين القاسية على يد مجموعة متتالية من الأباطرة الطغاة الذين كانوا يهدفون إلى محو المسيحية من على البسيطة.

وإنه لمن المثير أن كنائس شمال إفريقيا، في سنوات الاضطهاد، لم تزد إلا ازدهاراً وعمواً. لقد كان إيمانها صلباً وشهادتها السلمية للناس والمحيطين بها فعالة بدرجة جعلت الجزء الأكبر من تونس وكثيراً من الجزائر وأجزاء كبيرة من ليبيا والمغرب تُعرف في القرن الثالث بأنها مسيحية.

لقد كان المسيحيون الأوائل في شمال إفريقيا متميزين عن الطوائف الكاثوليكية والبروتستانتية المعاصرة كليهما. فهم، بكل بساطة، كانوا متشبثين بالتعاليم الأصلية للمسيح نفسه وكتابات أتباعه الأوائل التي تواترت من الأجيال الأولى وجمعت في الكتاب المعروف "بالعهد الجديد". وكان سرُّ نجاحهم هو أسلوب حياتهم الجديد المبنيُّ

على المبادئ النبيلة للمحبة والأمانة واللطف مع جميع الناس. كما أنه كان لديهم رجاء قوي في وعود الله لهم بأن هناك حياةً وفرحاً وراء ظلمة القبر. وسنرى في هذه الصفحات ما كان أسلافنا يؤمنون به بكل قوة، والآثار الرائعة لذلك الإيمان في المجتمع الأول لشمال إفريقيا.

الجزء الأول

الثمار الأولى

(القرنان الأول والثاني)

الفصل الأول

البذار قد بُذِر

لم تكن برييتوا تدري كيف تجيب أبها. أخيراً استدارت نحوه وهي تقول: "أبي ... أترى هذا الإبريق القائم هناك؟ هل تعتقد أنه إناء صغير للماء أم هو شيء آخر؟" ألقى الرجل العجوز نظرة عاجلة على الشيء القائم في زاوية زنزانة السجن القدرية، ثم أجاب: "إنه إبريق، بحسب ما يبدو لي". عندئذ قالت برييتوا: "هل نستطيع أن ندعوه اسماً آخر؟" "كلا، لا نستطيع، على ما أظن". ثم تابعت برييتوا كلامها بلطافة وهي تقول: "وأنا لا أستطيع أن أدعو نفسي بخلاف ما أنا؛ إني مسيحية يا أبي".

نشأت فيفيا برييتوا (Vivia Perpétua) في عائلة فاضلة. قضت معظم طفولتها السعيدة على شواطئ مدينة قرطاجة الجميلة. الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بإفريقيا الشمالية. لم تفتقر برييتوا إلى الراحة واليسر، لأن التعليم الذي كان متوافراً لها لم يكن متوافراً لمعظم بنات عصرها. ودعت برييتوا حقيبة الطفولة، لتصبح الآن فتاة شابة في الثانية والعشرين، ومتزوجة. كما ودعت الفترة الآمنة المطمئنة من حياتها المبكرة لتواجه الآن ضغوطات زعزعت حياة العائلة بأسرها. لقد ألقى القبض عليها وأودعت السجن بتهمة خطيرة، ألا وهي اعترافها بأنها اعتنقت الديانة المسيحية.

هاهي الآن في سجن المدينة منذ عدة أسابيع. وقد أمل أبوها في أثناء ذلك أن يقنعها لترجع عن إيمانها، فيضمن إذ ذاك إطلاق سراحها. لكن الوقت كان يمر بسرعة من دون أن تظهر برييتوا أية علامة تشير إلى الاستسلام أو التخلي عن إيمانها بالمسيح. في هذه اللحظات، سمعها العجوز وهي تقول له بأكثر صلابة وعناد، أنها مازالت عازمة

على أتباع الطريق الذي رسمه المسيح، وعلى السير في إيماننا. وهكذا اندفع الأب إلى الخارج ساخطاً غاضباً.

ماذا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك؟ فهو رجل شريف محترم ومواطن قرطاجي مستقيم الأخلاق، معروف في مجتمعه ومشهور في الأوساط المحترمة. لم يتورط قط في أي مشكلة أو أي إحراج، وهو بالطبع يتعبد للآلهة نفسها التي يعبدها جيرانه. لم يتسبب قط بأي إساءة أو إهانة لأحد. ولكن، ها هو الآن يواجه الذل والخزي والعار، كل هذا بسبب ابنته العنيدة المتمردة.

حبه لابنته دفعه للذهاب إلى السجن العام باذلاً قصارى جهده لدخول تلك المسالك المظلمة والممرات الحقيرة والوسخة. لم يكن أبو برييتوا قاسي القلب، لذلك فقد حزن على ابنته واكتأب وكان تواقاً ليمد لها يد العون، ويبعدها عن هذا المكان البغيض المفزع. عادت به الذاكرة إلى تلك الأوقات السعيدة التي كانا يقضيانها، هو وابنته خلال الأيام الحلوة الهانئة. كان مستعداً لبذل أقصى الجهود لإقناع هذه الابنة العنيدة لتكف عن حماقتها الرعناء، تلك الحماقة التي سيطرت عليها بشكل لم يستطع أن يهضمه. كتبت برييتوا في مذكراتها تقول: "الآن، وبعد أن دنا موعد المسابقات ومباريات المصارعة بالساحة العامة، جاءني أبي ممزقاً بالمشاكل والصعاب، تارة يتنفح لحيته ويرمي بنفسه أرضاً على وجهه، وتارة أخرى يلعن أيامه. أما أنا فقد حزنت حقاً على بؤس أبي وتعاسة شيخوخته".

لم تكن برييتوا وحيدة في زنانتها. كان معها طفلها الصبي، البالغ من العمر بضعة أسابيع. كانت برييتوا سعيدة لوجود ابنها معها. أخذ منها في السابق، لكنها

كانت تعلم علم اليقين أنه بكى كثيراً طلباً لحضانتها، فأعيد إليها. أما هذا الطفل فهو مصدر آخر لأسى الرجل العجوز. قال أبو بربيتوا: "فكري في طفلك الصغير الذي لا يقدر على أن يعيش من دون أمه؛ اتركي كبرياتك جانباً ولا تدمرينا جميعاً". حزنّت بربيتوا على ابنها لأنها كانت تعرف أنه لا بد أن يعيش من دونها.

تحدث بعض الأصحاب الطيبين إلى سلطات السجن فحصلوا على إذن خاص لربيتوا لتقضي أوقات معينة من النهار في مكان منير من مبنى السجن. وهنا، وفي هذا السجن بالذات حضر أخو بربيتوا وبصحبة والدتها لزيارتها، وجلبا معهما ابنها الغالي العزيز. فكتبت بربيتوا في مذكراتها تقول: "لقد بدا لي السجن عند حضور طفلي وكأنه قصر جميل، وأحببت أن أبقى فيه مفضلة إياه على أي مكان آخر". ومنذ ذلك الحين لم تدع بربيتوا طفلها يبعد عنها، فأبقته معها طوال الوقت. وكانت ترضعه من ثديها وهي في زنانتها الحارة المظلمة المزدحمة. وكانت تصلي لأجله حتى حين يكبر يتعرف هو أيضاً بطريق الحق ويسير فيه قدماً من غير خوف أو وجل.

ولا ننسى فيليستاس (Félicité) التي كانت معها في الزنانة عينها، إنها الخادمة المخلصة، بل أكثر من خادمة إذ هي أختها بالمسيح وصديقة حميمة وعزيزة. كانت فيليستاس قلقة، لكن ليس بسبب الموت، بل كانت تخشى أن يتركه أصحابها. ولم تكن الإمبراطورية الرومانية تعدم النساء الحبلى، وفيليستاس كانت حبلى في شهرها الثامن. لقد سألت فيليستاس بربيتوا وأصحابها الآخرين ليرفعوا إلى الله صلاة لتلد قبل موعد المحاكمة. واستجاب الله حالاً وبدأت آلام المخاض. صرخت فيليستاس من الألم، فسخر منها أحد الحراس وقال: "إن كنت تبكين من آلام الولادة، فماذا ستفعلين حين

تلقين لقمة للوحوش الكاسرة؟" أجابت: "أنا أعاني الآن ما أعاني، ولكن في ذلك اليوم، سيكون معي الله الذي سيحمل آلامي لأن معاناتي حينئذ ستكون من أجله هو". فولدت فيليستاس مولودة أنثى؛ ولكن المولودة المسكينة، أمست يتيمة بعد ثلاثة أيام فقط من ولادتها.

كان السجنان يسمح لأصدقاء برييتوا وفيلستاس بأن يزورهما في الزنزانة بين الحين والآخر. كان الظلام دامساً والمكان ضيقاً مربعاً، وقد عانت المرأتان وحشية الحرس وقسوتهم، ومع ذلك، ففي هذا المكان المقرف، تعمدت المرأتان بالماء، كشهادة على إيمانها، وتعمد معهما أيضاً ثلاثة أو أربعة من زملائهما. لقد صلت برييتوا ليمنحها الله الصبر والسلوان لتحتمل كل ما هو آت عليها من عذاب وهوان.

أفرزت برييتوا مع أصدقائها الآخرين عن بقية مسيحيي قرطاجة. كانت رغبة السلطات الحاكمة، أن تجعل من هؤلاء عبدة علنية لمن يعتبر من جمهور قرطاجة. وابتظر الآن جميع أهالي المدينة ليروا إذا كانت برييتوا وزملاؤها سينكرون الرب المسيح ويدبحون للوثن. كان الحاكم يأمل ذلك، فهذا الأمر قد يشبط عزائم الآخرين، فيحذون حدو هؤلاء في إنكار سيدهم، وإتباع عبادة الأوثان. ولكن الحاكم أساء تقدير تصميم برييتوا، واستخف بعزائم أصحابها القوية الصلبة. ولم يكن يعلم شيئاً عن نعمة الرب وقوته المعطاة للمؤمنين، والتي ستؤازرهم وتساندهم في ساعة محنتهم. إذا كان المطلوب أن يكونوا عبدة للآخرين، فقد قرروا أن يكونوا عبدة شريفة وأن ينجزوا ذلك الامتياز الذي منحهم إياه الله إذ يشرقون ببهاء محبة الله على المسرح الذي أعد لهم.

كان قلب برييتوا متعلقاً بأبيها؛ وكانت ترغب في إبعاده، لكن الفارق هو أن أباه لا يعرف المسيح، أما هي فتعرفه. وقد كانت تدرك أن إنكارها للحق لا يمكن أن يساعد أباه، بل ستكون بذلك قد خدعته. عليها أن تربه طريق المسيح مهما حدث، وفي كل الظروف، وأن تصلي لكي يتعرف بهذا الطريق ويتبعه.

كان أخوها يعرف شعورها ودواخلها. وكانت ترتاح إليه، لأنه هو أيضاً اعتنق المسيحية كأمه، لقد جاء ليشاركها الصلاة في الزنزانة واقترح عليها أن تطلب إلى الله أن يكشف لهما ما الذي سيحدث. فجاء جواب الله على هيئة رؤيا. حلمت بسلم ذهبي ضيق طوله من الأرض إلى السماء، يحرسه حيوان ضار في أسفله، ومحاط من جوانبه بمختلف أنواع أسلحة القتال والحرب. كذلك رأت في هذا الحلم ساتوروس (Saturus)، وهو أحد الرجال المسيحيين الأربعة المسجونين معها. ثم شرع ساتوروس بتسلق السلم وتبعته هي أيضاً. وعندما اعتلت الدرجة الأولى من السلم داست على رأس الوحش. وعندما وصل ساتوروس إلى أعلى السلم، دعاها باسمها وهو يقول: "إنني بانتظارك يا برييتوا". وبانضمامه إليه وجدت نفسها في مرج خصيب، حيث يجلس راع يحلب غنمه، محاطاً بأناس يلبسون الثياب البيض. دنا منها الراعي وقدم لها قطعة من الجبن. أخذت برييتوا قطعة الجبن بكلتا يديها، وإذا بالناس المتسربلين بالثياب البيض يصرخون "آمين". وفي هذه اللحظة استيقظت من حلمها، لكن مذاق الجبن بقي في فمها. لقد جلب هذا الحلم الجميل وغيره من الأحلام، شعوراً كبيراً من الراحة لبرييتوا وأصحابها؛ ومنحهم الجرأة والقوة والشجاعة لمواجهة مشقاتهم وانزعاجاتهم بفرح وغبطة. وهكذا استطاعوا أن يواجهوا المستقبل من دون خوف أو وجل. لقد

عرفوا يقيناً أن هذه الرؤى كانت من الله، وأن الله تعالى سيحقق لهم ما جاء فيها. كذلك عرفوا أن الراعي لم يكن في الواقع إلا مخلصهم، وأن هذا الراعي الصالح سيستقبلهم قريباً في المرج الجميل الذي أراهم إياه. هناك سيتذوقون حلاوة محبة الله. كانت تصرفات برييتوا كانت تصرفات برييتوا وزملائها تختلف عن تصرفات السجناء الآخرين. كان هؤلاء السجناء يسببون اضطرابات، الأمر الذي جعل حياة الحراس معهم صعبة وشاقة. أما أولئك فقد كانوا صبورين ومراعين شعور الآخرين، مملوئين اطمئناناً وإيماناً. ورد في مذكرات برييتوا أن أحد الحراس المشرفين على السجن بدأ ينظر إليها وإلى أصحابها بعين التقدير والاحترام مدركاً أن قوة الله في داخلهم. كان اسم هذا الحارس بودنز (Pudens).

عند إعلان يوم المحاكمة، عاد والد برييتوا مرة ثانية، فحاولت برييتوا أن تقدم لأبيها التعزية والمواساة وهي تقول: "لنكن مشيئة الله الصالحة يا أبتاه، إذ ليس قدرنا بأيدينا وإنما بيديه الكريمتين". فأجاب أبوها قائلاً: "يا بنيتي العزيزة، ارحمي أباك وأشفقي على شبيته، فإذا كنت تكنين لوالدك الاحترام والاعتبار الكافين، فلا تدعي الناس يسخرون بي، ولا تسبني لنا الدمار والخراب، بحيث لن يجرؤ أي منا أن يطل بوجهه أمام الناس، ولا سيما إذا حكموا عليك". ألقى أبوها بنفسه عند قدمي ابنته وبكى بمرارة ويأس متوسلاً إليها أن تعود عن هذا الطريق الحقيير الرهيب الذي اختارته. وقفت برييتوا أمام والدها بهدوء وسكينة وهي تنتظر أن يكمل حديثه. وبعد أن أكمل ما يريد قوله، تركها بقلب كسير وخرج حاملاً طفلها.

وقد كتبت بريبتوا في مذكراتها تقول: "الوقت يمر سريعاً وموعد المحاكمة بات قريباً، وفيما كنا نتناول الغداء، استعجلونا إلى السوق العام، حيث الاستجواب. بسرعة كبيرة انتشرت الأخبار في السوق وبدأ الناس يتهافتون للتجمع حولنا. اعتلينا المنصة جميعنا، واعترف زملائي بكل جرأة أنهم من المؤمنين يسوع. ثم جاء دوري". عندئذ انسل أبوها ليكون على مقربة منها قدر المستطاع، وكان يلوح لها بطفلها فكان على مرأى من ناظرها، وصرخ قائلاً: "ارحمي طفلك يا بريبتوا". ولم يستطع القاضي أن يحتمل هذا المشهد، فألح على بريبتوا أن تنبذ إيمانها وتنسحب قبل فوات الأوان، وقال لها: "احفظي شبيهة أبيك، وارحمي طفلك، وكل ما هو مطلوب منك أن تقربي مقدمة وأن تعبري عن ولائك لإمبراطورنا العظيم، وهكذا يفرج عنك فوراً". فأجابت بريبتوا: "لا أستطيع أن أفعل هذا". فسألها القاضي: "هل أنت مسيحية؟" فأجابت بعزم وثبات: "نعم إنني مسيحية".

بعد هذه الكلمات صرخ أبوها صراخاً مرّاً، واستمر هكذا محدثاً جلبة كبيرة حتى نفذ صبر القاضي فأمر بإبعاده. وفي أثناء إبعاده عن المشهد، أهالت عليه ضربات الحراس بهراواتهم الثقيلة. سمعت بريبتوا أصوات الهراوات وهي تنهال على أبيها، فكتبت في مذكراتها تقول: "لقد عانيت آلام الضربات التي تعرض لها أبي كما لو كانت تنهال علي. لقد عانيت بسبب شيخوخته البائسة الكئيبة". ولكن لم تستطع بريبتوا أن تتراجع عن إيمانها؛ لم تستطع أن تنكر الحقيقة؛ لم تستطع أن تخدع عائلتها؛ لم تستطع أن تنكث عهد سيدها ومخلصها. لقد صدر الحكم بإدانتها مع الآخرين وبات عليه أن تواجه الوحوش في الساحة العامة.

كان هناك محام شاب يدعى تيرتوليانوس (Tertullien)، وكان يعيش في قرطاجة في ذلك الزمان. ويحتمل أن هذا الشاب كان واقفاً في الرحمة الكبيرة، وقد كان هذا الشخص هو الذي كتب إلى الحكومة الرومانية يقول: "إن دماء المسيحيين هي بذار". فإذا زرعت هذه البذار المقدسة، لا بد من أن تعطي ثمارها، وستكون هذه الثمار حصاداً مذهلاً مدهشاً.

على كل حال، نقل السجناء إلى زنزاناتهم، وبقوا هناك ينتظرون الاحتفال الكبير الذي سيقام بمناسبة عيد ميلاد أحد أبناء الإمبراطور. كان مقرراً في تلك الأثناء تنفيذ حكم الإعدام بالسجناء لتسليمة أهل المدينة. وقبل موعد تنفيذ حكم الإعدام، توفي واحد من الشبان يدعى سكوندولوس (Sécundulus)، ولكن بمرور الأيام شهد السجن مشاهد استثنائية ملفتة للنظر حقاً. ذلك أن الشبان المسيحيين الخمسة، بدل أن يندبوا حظهم العاثر، كانوا يستمتعون بشعور البهجة والسرور. كما أن دماثة أخلاقهم، وإيمانهم المخلص الثابت، ترك عند المشاهدين انطباعاً عميقاً. والذين كانوا يزورونهم ليرثوا لهم، كانوا يجدونهم ممتلئين ثقة وثباتاً. والذين كانوا يأتون ليطمئنوهم ويعزّوهم، كانوا يجدونهم متمتعين بأقصى الطمأنينة والسلام والثقة التي منحهم إياها الله في حينه. لقد تأثر زوارهم لدرجة أنهم صمموا بدورهم على السير وراء المخلص يسوع المسيح. كتبت برييتوا تقول: "غادر جميع الزوار وهم مندهشون، ونتيجة لذلك آمن معظمهم. ويبدو بوضوح أن الحارس المدعو بودنز قرر أن يكون مسيحياً هو أيضاً". شاهدهت برييتوا أباهم مرة أخرى قبل يومها الأخير، ولكنها لم تر ابنها لأن جده رفض أن يحضره.

كانت العادة تقتضي أن يقام احتفال عام ليلة الإعدام لتسليية السجناء المحكوم عليهم بالموت؛ فانتهاز هؤلاء الفرصة ليتناولوا وجبة طعام مشتركة، بعضهم مع بعض، وذلك تذكاراً لمخلصهم يسوع المسيح الذي عانى وتألم ومات من أجلهم. تجمهر سكان المدينة ليشاهدوهم، وقد كان بعض هؤلاء السكان متحدين معهم في الإيمان، أما بعضهم الآخر فلم يكونوا كذلك. لكن الجميع تركوهم مستغربين إيمانهم الثابت وعزيمتهم التي لا تلين.

وفي اليوم التالي، وهو الموافق اليوم السابع من شهر مارس سنة ٢٠٣ م، اقتيد كل من برييتوا وفيليسستاس والشبان الثلاثة، ساتوروس وساتورينوس (**Saturninus**) وريفوكاتوس (**Révocatus**) إلى ميدان الوحوش - وهو المدرج الشعبي العام حيث كانت تجرى المباريات والألعاب وسباق المركبات. شعرت برييتوا وزملاؤها بالارتياح والاسترخاء، لأن الفرج قد اقترب، ولأن العذابات التي يقاسونها ستنتهي. كذلك انتابهم شعور من الفرح العظيم عندما تأملوا في ذلك الترحيب الذي سيلقونه في بيوتهم السماوي. وفي أثناء مرورهم بين صفى الجند كانوا يتلقون ضربات مبرحة. وقد حاول الحرس أن يضعوا عليهم أردية وثنية احتفالية - حيث الزي لباس قرمزي وأصفر، وكان الرجال كهنة للإله زحل (**Saturne**)، والنساء كأنهن مكرسات للإلهة كيريس (**Cérès**). فاعترضوا على ذلك بشدة مصرحين جهاراً بأنهم مسيحيون لا عبدة أوثان. وهكذا، سمح لهم في النهاية بأن يخرجوا بشيائهم الاعتيادية. شرع المحتشدون المنحمسون، مجتمعين وجالسين فوق مصاطبهم، يصخبون ويصرخون بأعلى أصواتهم، بينما كان المحكومون يسرون بشجاعة نحو الفسحة المفتوحة في منتصف

المدرج. وأخيراً غضبت الوحوش الكاسرة وصرخت من شدة الجوع، واستثارة الحراس لها، ففتحت الأبواب بسحب المهماز الذي كان يفصل الوحوش بعيداً عن المدرج. فهرعت النمر والدببة الوحشية باتجاه هؤلاء المؤمنين الخمسة، وشرعت تمزق أجساد الرجال الثلاثة بوحشية قاسية. أما برييتوا وفيليبستاس فربطنا بشبكيتين وكانتا تترنمان بمزامير الفرخ والإيمان بالرب. وهنا وعلى حين غرة ألقيت الشبكتان اللتان كانت مأسورتين بداخلهما أمام بقرة ووحشية غاضبة، وسرعان ما أعمدت البقرة قرنيها في الأسيرتين بوحشية وحملتتهما في حال تشنج وهياج، ورفعتهما برأسها إلى الورااء وقذفتهما بعيداً بعنف كبير.

سقطت برييتوا أرضاً وقد تمزق رداؤها من جانبه. فأعادت سحبه، ولفته حولها لأنها "اهتمت ببقاء جسدها محتشماً أكثر من اهتمامها بالأذى والهوان الذين لحقا بها". ربطت برييتوا شعرها السائب ودارت بنظرها حول المكان بحثاً عن رفيقتها فيليبستاس، فوجدتها مطروحة أرضاً، فاقتربت منها وأعانتها على النهوض والوقوف على قدميها. ثم النفث إلى زملائها الذين كانوا لا يزالون يصارعون الوحوش في الساحة، وصرخت إليهم تحنهم وتشجعهم وتقوي معنوياتهم.

اقتيدت برييتوا وفيليبستاس إلى غرفة خارج الميدان وجراحهما ثخينة دامية. وعلى الرغم من جراحات برييتوا البليغة، فقد كانت في نشوة ما بعدها نشوة، ولم تكن لتشعر بآلامها المبرحة. سألت برييتوا عن موعد عودة الوحوش إلى الميدان من جديد. وفي هذه الفترة القصيرة من الراحة، وبعد أن استطاعت برييتوا أن تلتقط بعض أنفاسها، جاءها أخوها وواحد من الأصدقاء يدعى روستيكوس (Rusticus)

ليفترقدها. فشجعتهما بربيتوا قائلة لهما: "أثبتوا في إيمانكم، أحبوا بعضكم بعضاً، لعل استشهادنا لا يكون سبباً للخجل لكم جميعاً". ثم نهضت بربيتوا وتوجهت إلى الميدان من جديد. وفي الوقت عينه وفي الجانب الثاني من الميدان، كان ساتوروس يتحدث إلى الحارس بودنز وهو يحثه قائلاً: "الآن يا أخي، آمن منكل قلبك ... الوداع، تذكر إيماني، ولا تجعل أموراً كهذه تقلقك، بل لتكن حافزاً لتزيد إيمانك وتقويه".

عندما شيع المحتشدون من مشاهدة ما قامت به الوحوش الكاسرة في الميدان، وأدركوا أنه مازال هناك بعض الضحايا الأحياء المجروحين، صرخوا مطالبين التعجيل بقتلهم والتخلص منهم. أما بربيتوا وزملاؤها المؤمنون، فهرعوا يعانقون بعضهم بعضاً، لأنه العناق الأخير قبل انتقالهم إلى أحضان المسيح. مشوا متعبين إلى منتصف الميدان مسيرة الشرف والكرامة وهم هادئون فرحون. وفيما هم سائرون، انهمالت عليهم طعنات السيوف من رجال عينوا لهذا الغرض. أما الجلاد الذي أوكل عليه قتل بربيتوا فقد كان فتياً يافعاً، غير ذي خبرة في أعمال الإعدام. كان ينفذ مهمته من دون إتقان، إذ طعن بربيتوا طعنة غير فعّالة. عندئذ أمسكت بربيتوا بسيفه وغرزه في صدرها بكلتا يديها. وبهذا تحررت بربيتوا من الوضع الذي كانت تعانیه وانطلقت إلى أحضان المخلص.

كانت قرطاجة تحمل صفات غريبة تلفت الأنظار. فهي عاصمة إفريقيا، أو على الأقل، تلك المقاطعة الرومانية التي كانت تحمل ذلك الاسم؛ وفي الواقع كانت إفريقيا أرضاً ضيقة تحاذي الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط. وتذكرنا قرطاجة وإبان القرن الثالث للميلاد، من بعض وجوهها، بمدينة كورنثوس. فكلتا المدينتين كانتا

ميناءين يقطنهما شعب بلا جذور، يمتنون التجارة. ولم يكن هناك فوارق اجتماعية تذكر في كلتا المدينتين، ماعدا ما يتعلق بالغنى. كانت كل منهما تعاني ظاهرة الانحلال الخلقي التي تبرز في المدن الواقعة عند شبكة طرق رئيسية تربط الدول بعضها ببعض. هذا لأن روادها هم من المغامرين اللذين يشعرون بأنهم بعيدون عن قيود الأصدقاء والأهل، ينغمسون في المذلات الدنيوية التي تتيحها أمامهم الديانة الوثنية. ونحن نجد في كلتا المقاطعتين أعرافاً وأجناساً خليطة من جميع أنحاء العالم – الأفارقة، والإيطاليين، فاليهود، والمصريين والغالين. كذلك نجد طاقات عقلية أو عاطفية تظهر من خلال المشاحنات المستمرة التي تطالعا سواء في الشارع أو الأسواق، أو على المدرجات. ومما زاد الوضع تفاقماً حرارة المناخ والذباب والحشرات والقذارة والأمراض المستشرية في الأزقة التنتنة المردحة. تعزز مدينة قرطاجنة بنفسها وتزهو بكيانها وتفتخر، مع أنها فقدت عظمتها السابقة. فهي تحت حكم روما قسراً؛ ومن جهة أخرى، قد يبدو أنها تسيطر على المناطق المحيطة بها بالإضافة إلى القبائل الداخلية، لكنها في الواقع تفقد تلك السيطرة. وقد يبدو أيضاً أن مواطنيها متحدون في تعبدهم للآلهة القديمة، ولكنهم كانوا مفرقين داخلياً يشككون في مصداقية تلك الآلهة.

إن شعب قرطاجنة، وجدوا في وسطهم رجالاً ونساءً يتميزون بطابع الغرابة: تحالهم عائلة، لكنهم لا يرتبطون بروابط الدم. وتظن أنهم دين، إنما في الواقع بلا آلهة منظورة. كذلك يبدو أنهم من عرق واحد، ولكن بالحقيقة متحدون من دول متعددة. الغني والفقير، الكهل والشاب، المتعلم والأمي، وهم من الأفارقة أو الإيطاليين أو اليهود، من دون تمييز. لهم جميعاً دماثة خلق مؤثرة، ولهم أيضاً جاذبية أخاذة عجيبة. لا

تجدهم يتشاحنون، أو يغشون، ولا يسكرون، ولا يشاركون في طقوس العريضة، أو الاحتفالات الفاسدة التي كان جيرانهم يحتفلون بها. ولم يرههم أحد يشاركون في المسرحيات العامة، ولم يعرف عنهم قط أنهم دخلوا إلى معابد المدينة التي كان يرودها كل السكان. ففي الواقع، كانت هذه الجماعة الغامضة لغزاً من الألغاز وسراً من الأسرار. كانوا يعيشون في قرطاجة، ولكنهم لم يشاؤوا يوماً، أن يكونوا جزءاً من هذه المدينة أو من شعبها. بل على العكس، كانوا يجتمعون سراً، وفي الخفاء - جماعات صغيرة هنا وهناك - لا يعرف أحد ماذا يجري وراء أبوابهم المقفلة، من أمور وأمور.

ومع ذلك، فقد كان أولئك القوم من أفضل الناس وأحسنهم. فإذا اتفق أن تعرفت بواحد من هذه الجماعة ترى أنك تنساق انسياقاً لتثق به وتطمئن إليه. وإذا طلبت إليهم أن يمدثوك عما يؤمنون به، يجيبونك بلطف، أنهم يؤمنون بشخص أتى إلى هذه الدنيا، ليس منذ وقت طويل، وذلك ليعين البشرية، فرفضه هؤلاء الذين جاء لكي يعينهم؛ وأخيراً، نفذ فيه حكم الموت، لكن موته لم يكن نهاية المطاف. لأنك لو صدقت روايتهم وما يقولونه لك، فهذا الرجل الذي مات قام من القبر في اليوم الثالث. قام بطريقة عجيبة وهو لا يزال حياً بصحبة أتباعه، ومعهم حيثما ذهبوا أينما وطئت أقدامهم.

وبالتأكيد، فإن هذه الرواية هي رواية جميلة، والإيمان بها لا يؤدي أحداً، وقد تكون صحيحة. ولكن لم تكن الإمبراطورية الرومانية تعنى كثيراً بالجمال أو بالحق. لقد كان الدين عند أولئك الرومان مفيداً، لكنه مفيد إذا ما استعمل كأداة للتسلط على الناس واستغلالهم. فحتى ذلك الوقت، كان استغلال الدين قد أعطى نتائج حسنة،

وكان مفعوله جيداً، شريطة أن يخلص الناس لدين واحد، ويقدموا له الولاء المطلوب فيشارك جميع الناس عبادة واحدة عامة موحدة. أزعج السلطات الرومانية أن تجدد في قلب العاصمة الإفريقية أناساً يزدادون باطراد، ويرفضون قبول العبادة الشعبية العامة، ويمتنعون عن تقريب التقدّمات التي تكرم الإمبراطور. كما شعرت السلطات أن من شأن هذه الظاهرة أن تهدد بنية المجتمع والحضارة التي يسهر عليها الإمبراطور. لذا ارتأوا أن تخمد هذه الحركة وتقمع وهي بعد في مهدها قبل أن يستفحل أمرها وتنتشر. وفي هذا الوقت أصبحت الحكومة الرومانية قلقة ومتوترة بسبب الأزمة الاقتصادية والاجتماعية المتفاقمة والتي جعلت الناس يتذمرون في جميع أنحاء الإمبراطورية. بدأ التملل يتنامى بين سكان قرطاجنة، وبدأ صبرهم ينفذ بسبب حكاهم الرومان. لقد أصبح الشعب بحاجة إلى مزيد من مهرجانات اللهو والتسلية. وصلت السلطات الرومانية إلى الحل المنشود، حين طلب مروصو الوحوش الكاسرة مزيداً من الضحايا لإطعام وحوشهم الجائعة، على المدرجات. فإن هؤلاء المسيحيين سيفون بالغرض.

بعد مصرع برييتوا وأصحابها بقي جمهور المؤمنين بمشاعر متضاربة - يسرهم أن معاناة أحيائهم قد انتهت، لكنهم يحنون لفراقهم؛ اطمئنان إلى أنهم من الشهداء الذين رحبت بهم السماء، وهم الآن في مكان أفضل حيث استقبلهم الراعي الصالح الذي تراءى لبرييتوا، وقلق على مصير المؤمنين الباقين. رفع الأخوة الجثث الخمس المطروحة على أرض الملعب، ودفنوها بكل محبة. كذلك نصبوا لوحة تذكارية لإحياء ذكرى هؤلاء الشهداء الشجعان، الذين وقفوا وقفة مشرفة. وكان المؤمنون يحتفلون سنوياً بذكرى استشهاد هؤلاء الأبطال، فيستمدون من ذلك القوة؛ لاسيما أن هؤلاء كانوا

نماذج حية للشجاعة والاستشهاد. قامت إحدى النسوة المؤمنات من الجماعة المسيحية بتبني طفلة فيليستاس وتربيتها مع أطفالها. وعندما شبت هذه الطفلة تعرفت بحقيقة والدتها وبإيمانها بالمسيح الذي لم تنكره حتى الاستشهاد. كذلك عرفت هذه الابنة الشابة أنها تستطيع أن ترى والدتها يوماً ما وستتعرف بها، مع أنها لم تعرفها في الحياة الدنيا. هناك في السماء ستبقى معها، حيث لن يكون دموع أو أحزان، أو فراق بين الأحبة. أما ابن برييتوا، فلا نعلم ماذا حصل له، لكن ربما عاش مع جده كوثنى، وربما بقي مع خاله واعتنق المسيحية.

كذلك لا نعرف شيئاً مؤكداً عن زوج برييتوا. فمن الممكن ألا يكون له مكان في هذه القصة، لأنه قد تكون برييتوا قد تزوجته رغماً عن إرادتها وهو لا يأبه إلا قليلاً لزوجته ولإيمانها. وهكذا قد يكون تخلى عنها في ساعة محنتها وحاجتها إليه. ثمة احتمال آخر، وهو أن يكون هذا الزوج من الذين سجنوا أيضاً معها. فعند سماع ساتوروس بإلقاء القبض على برييتوا، نرى أنه قد أسلم نفسه طوعاً إلى السلطات الحاكمة. وفي الرؤيا، رأت برييتوا ساتوروس ينتظرها في رأس السلم ليدخلا معاً إلى الجنة وهي بصحبته وإلى جانبه. ولم يكن هذان المؤمنان ليفترقا أبداً. لذلك، فلاحتمال هو أن يكون ساتوروس زوجها. فالمسيحي الذي يمكنه أن يحظى بحب امرأة عظيمة كبرييتوا، لا يمكن أن يكون من الذين يخافون الخطر ويهربون منه. فلا بد لمثل هذا الإنسان أن يعلن إيمانه ويعيش هذا الإيمان، وأن يموت في سبيله شهيداً إذا ما اقتضت الحاجة إلى ذلك. فمثل هذا البطل لا بد أن يقف بجانب زوجته، في المدرج الروماني، أو في الجبال، أو في

الصحاري، أو بعيداً داخل الوطن، وفي كل الظروف والأحوال. كان هناك الكثير من مثل هؤلاء الرجال الأشداء في إفريقيا الشمالية إبان تلك الحقبة من الزمن.

أما فيما يتعلق بالإمبراطورية الرومانية فقد أدت سياستها العقيمة المشهورة إلى نتائج عكسية ظهرت واضحة أمام الملا جميعاً: قبل المسيحي المؤمن هذا التحدي الكبير، وهكذا ربح المعركة. والآن عرف أهل قرطاجة أن المسيحيين لا يهابون الموت وأن استعمال القوة معهم لا يجدي نفعاً. لقد ثبت ستة أبطال من الرجال والنساء بإيمان راسخ بقوة مسيحتهم ومخلصهم، ولم يرضخوا في يوم من الأيام للتهديد والقسوة ولا خضعوا للطغيان الروماني. وهكذا نجد الناس يتحدثون في كل مكان عما رأوه وسمعوه متسائلين: ماذا تعني هذه الظاهرة؟ ما هو هذا التعليم الذي يستحق أن يموت الناس لأجله؟ لقد ظهر بوضوح لأولئك المتسائلين، أن هذا التعليم الجديد يمنح قوة غير مألوفة تستطيع أن تترع من قلب المؤمن كل خوف من الموت. كما أنه يملأ معتنقيه فرحاً - فرحاً يصعب التعبير عنه ويقيناً غير محدود يصعب تفسيره. لكن ماذا يلي ذلك؟ كانت المدينة الإفريقية العظيمة تنتظر بترقب، متسائلة ما هو جوهر هذا الإيمان المسيحي الذي لا نظير له.

ملاحظة: هذه قصة واقعية أخذت تفاصيلها من وثائق كتبت في زمن وقوع

الأحداث. من الممكن الحصول على ترجمة إنكليزية للقصة المعاصرة في:

ed. Roberts & Donaldson The Ante-Nicene Fathers Series Vol. III pp. ٦٩٧-٧٠٦.

الفصل الثاني الانفتاح على العالم المتحضر

كانت قرطاجة موجودة قبل واقعة بريبتوا بألف سنة، واستمرت ناشطة خلال هذه الحقبة من الزمن. ويشكل أولئك الناس الذين أقاموا في المدينة العظيمة، مجموعة أقوام مختلفة متنوعة، وجدوا طريقهم إليها من الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب. بعضهم جاء من البحر وتزوج من فتيات القوم الذين كانوا يقطنون في تلك الديار منذ آلاف السنين، ويرعون قطعانهم ومواشيهم في السهول الساحلية. ونزل بعضهم الآخر تدريجياً من جبال الأطلس والريف، مدفوعين بتزاعاتهم أو طموحهم إلى الأفضل. آخرون منهم سافروا شمالاً على طول طريق القوافل الصحراوية التجارية. وحينما بلغوا مدينة قرطاجة لم يستطيعوا أن يذهبوا أكثر من ذلك، لأن هذه المدينة هي الحد الأقصى والتخوم الأبعد على امتداد البحر الأبيض المتوسط، حيث لا يمكن تعديده، أو السفر لأبعد منه. لقد تزامن البحار مع المزارع، وتوافق أحد أعيان المدينة مع العبد، والإفريقي مع الأوروبي، فاختلط هؤلاء الأقوام، بعضهم ببعض إلى حد كبير، في الشوارع الضيقة، من المدينة القديمة، ومزجوا لهجاتهم المحلية وبضائعهم في أسواقها. وقد ارتفع سكان هذه المدينة في القرن الثالث الميلادي إلى ١٠٠٠٠٠٠ نسمة.

وعندما أسس الفينيقيون الأشداء قرطاجة، استخدموها كمركز تجاري صغير لهم، وقد وصلوا إلى هذه البقعة من شرقي البحر الأبيض المتوسط نحو سنة ألف قبل الميلاد. ولكن الفينيقيين لم يكونوا أول من سكن في محاذة هذه المنطقة الساحلية، فقد

وصف الكتاب الأوائل الأفارقة بأنهم من الأمازيغيين (Imazighen) أو البرابرة، الذين قابلهم الفينيقيون عندما اندفعوا بمراكبهم الغربية إلى السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. وكان معظمهم من البدو الرحل الذين امتنعتوا تربية المواشي والأغنام والماعز، وهم يعيشون في خيم ينتقلون من مكان إلى آخر حسب المواسم، ويقيم بعضهم الآخر إقامة ثابتة دائمة في الوديان النجدية وهم يعيشون في أكواخ عبارة عن جدران أو أسوار من الطين أو الحجارة. ويعتنون بشجر الزيتون ويستغلونه، ويربون الدواجن، ويبدرون حبوب الخنطة والشعير في حقول صغيرة. أما نساؤهن، فكن يحكن الثياب، ويصنعن الخزف، بينما يعمل الرجال بأعمال الحجارة والأخشاب، صانعين منها أنواعاً عديدة من الأدوات التي قد يحتاجون إليها في حياتهم اليومية. كانت المعادن نادرة الوجود ولم يكونوا يعرفون النقد بعد.

كان الغذاء الرئيس المتوفر لديهم، وهو عبارة عن سميد مصنوع من الخنطة والشعير المجروش، يعرف باسم كسكسو (Couscous). وكانوا يلبسون رداءً طويلاً مزيناً بشريط أحمر، وفي الصقيع، كانوا يلبسون برانس مقلنسة من الصوف. وكانوا يحبون الجواهرات ويهندمون لحاهم وشعورهم ببراعة وإتقان. وكانوا يشتهرون ببنيتهم الجسدية القوية، وبطول أعمارهم.

تعيش المجموعات العشائرية مع بعضها تحت مراقبة الجد الأكبر أو العم الأرشد وعنايته. وتشارك في امتلاك الأراضي. وكانوا يبنون قراهم بجانب الوديان، حتى يتمكنوا من حماية أنفسهم بسهولة من الأعداء وقت الحاجة. وقد شكلوا تحاداً من العشائر والقبائل للحماية المشتركة المتبادلة، وفي بعض الأحيان للمشاركة في العدوان.

وتفقد مثل هذه الاتحادات الكونفدرالية عادة، جمعية تتألف من رؤساء العشائر. ويمكن لرجل مشهور بشجاعته العسكرية أن يوحد العشائر، ويكون شيخاً لها أو حتى ملكاً لبعض الوقت، وذلك في وقت الاضطرابات أو القلاقل.

لم يتهجم الفينيقيون على أراضي هؤلاء الأفارقة الأصليين، وإنما اقتنعوا ببساطة، بأن ينشئوا مستعمراتهم أو مستوطناتهم الصغيرة بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط وكان الفينيقيون قد أنشئوا لهم قاعدة رئيسة في قرطاجنة بين الأعوام ٨٠٠ - ٧٠٠ قبل الميلاد، واستمروا في بناء المستوطنات باتجاه الغرب، وأقاموا لهم مستودعات ومخازن ومراكز تجارية بمحاذاة الساحل عبر جبل طارق مروراً بالساحل الأطلسي المغربي، وامتدوا إلى ما ندعوه الآن العرائش والصوريرة. كان الفينيقيون رحالة ومسافرين عظماء، وقد احتفظوا لهم بخطوط اتصال بحرية من وإلى كل مكان معروف في العالم آنذاك، من الأطلسي وحتى البحر الأسود امتداداً إلى القنال الإنكليزي.

إلا أن هذه الشبكة التجارية الواسعة المديدة لم يكتب لها البقاء. فقد كان الفينيقيون يلحظون، سنة بعد أخرى، كيف أن بلادهم الأصلية، في الطرف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، تتعرض لقوى عسكرية ساحقة معادية تهددهم، وبخاصة من الإمبراطورية الآشورية. ولقد أجهز أخيراً، القائد اليوناني العظيم "الاسكندر" على العاصمة الفينيقية "صور" التي سقطت في القرن الرابع قبل الميلاد. وقد وجدوا أن جذورهم الشرقية قد انتزعت بالقوة، اختار المغامرون المستوطنون بمحاذاة الساحل الإفريقي البقاء هناك، وبناء مستقبل جديد لهم في وطنهم المتبنى، وعرفوا عندها باسم "القرطاجيين".

والفينيقيون، أو القرطاجيون، كما دعوا فيما بعد، يبدو أن قطعهم لعلاقاتهم بوطنهم، أعطاهم زخماً جديداً، وذلك على مدى الثمانية قرون اللاحقة. وهكذا تطور القرطاجيون الدؤوبون على العمل وأنشئوا إمبراطورية كبيرة هيمنت على جزء كبير من البحر الأبيض المتوسط، وسببت قلقاً شديداً لا يستهان به لمنافسيها عبر البحار المتمثلين بروما. كان القائد القرطاجي المهوب هنيبعل على أهبة احتلال مدينة روما، عاصمة الإمبراطورية الرومانية. ففي العام ٢١٩ قبل الميلاد، بدأ هنيبعل عبوره جبال الألب بإسبانيا، في حملة عسكرية نقل خلالها ٣٧ فيلاً قتالياً. ولكن الفيلة ماتت، وكذلك مات الكثير من رجاله، وبقي هنيبعل ينتظر وصول الإمدادات العسكرية التي لم تصله. لذا فقد باءت حملته هذه بالفشل. وكان سقوط هذا القائد، كسقوط قرطاجة نفسها التي احتلها الرومان بعدئذ.

والحقيقة أن القرطاجيين لم يحاولوا قط مهاجمة إفريقيا الشمالية، أو حكمها بالقوة. وببساطة، فقد نظروا إلى القارة الجنوبية الكبيرة وكأنها مصدر من مصادر المواد الخام، وحيثما وجدوا رجالاً، يستخدمونهم للقتال في حملاتهم العسكرية في أماكن أخرى. وقد أنشأوا مراكز خارجية، إلا أنها لم تكن أكثر من أسواق تجارية محاطة بضياح واسعة لإنتاج زيت الزيتون والحنطة والعنب. ولكن هذا الاستيطان الذي أسسه القرطاجيون، لم يكن كافياً لحمايتهم من أي هجوم عسكري حقيقي قد يتعرضون له، لذا اعتمدوا على بناء علاقات أخوية وثيقة بالأمازيغيين، وأوجدوا لهم علاقات تجارية تربطهم وجيرانهم. كانت هذه العلاقات، لمصلحة كل من القرطاجيين والأمازيغيين على حد سواء. ولتقوية هذه الروابط، فقد تزوج سكان الجاران بعضهم مع بعض، وقام

القرطاجيون بتعليم الأمازيغيين لغة فينيقية خاصة بهم تدعى البونية (Punique). وقدموا لهم شعارهم الديني الوثني، وجرت بمقايضة بين الفينيقيين من جهة، والرعاة والمزارعين اخلين من جهة أخرى: جلبوا هؤلاء الأفارقة البضاعة المعدنية المشغولة يدوياً، والزجاجيات، والثياب الملونة المصوغة، من أطراف العالم احيط بأطراف البحر الأبيض المتوسط، وقايضوا بضائعهم هذه بالصوف والأحصنة وزيتون الزيتون والعاج الإفريقي، فضلاً عن العبيد، وريش النعام الذي مصدره تجار الصحراء. قدم القرطاجيون للأمازيغيين أشجاراً جديدة لم يكن هؤلاء يعرفونها من قبل، كالتين والكروم والمان، وعلموهم كيفية غرسها والاعتناء بها. إن الزراعة الواسعة النطاق التي أدخلها القرطاجيون إلى إفريقيا، كانت ابتكاراً جديداً بالنسبة إلى الأفارقة الذين كان عملهم حتى ذلك الحين، محصوراً في تربية الأغنام والأبقار، وتوفير حاجيات عائلاتهم من البساتين والحقول الصغيرة. وافق الأمازيغيون فرحين مسرورين على أن تستعمل أراضيهم بتلك الطرائق. وبالطبع فقد استفادوا كثيراً من الأسواق الجديدة التي فتحت أمام إنتاجهم الغذائية والحيوانية. وليس من شك في أن التغيير الكبير الذي طرأ على غذائهم وأطعمتهم والعدد المعدنية والبضائع المشغولة يدوياً التي زودهم بها القرطاجيون، زادت من سرورهم وبهجتهم أيضاً، حيث كانت هذه جميعها تدل على ذوق رفيع وثقافة عالية. لقد شرع الأمازيغيون يلبسون الأزياء الأرجوانية، والجواهرات الثقيلة التي يستعملها القرطاجيون عادة، كما تعلموا استخدام لغتهم أيضاً.

ولكن هذا لم يدم إلى الأبد، لأنه، على الرغم من أنه كان للقرطاجيين أصدقاء في إفريقيا، فقد كان لهم أعداء أقوياء أيضاً في مناطق أخرى من العالم. فالرومان صعقوا

بالنجاحات السريعة المؤقتة التي حققها هنيبعل، جنرال قرطاجنة. لذلك ففي القرن الثاني قبل الميلاد، زحفت الجيوش الرومانية، وشارفت أبواب قرطاجنة، ولم تمض فترة قصيرة حتى سقطت مدينة قرطاجنة، واستسلمت لمهاجميها في العام ١٤٦ قبل الميلاد.

كان الهدف الأهم من دخول الرومان إلى إفريقيا الشمالية هو تدمير قوة منافسهم الأول في البحر الأبيض المتوسط، والعودة إلى ديارهم بعد تحقيق هذا الحدث الهام. ولكن لسبب لم يتمكنوا من تجنبه، وجدوا أنفسهم وقد تورطوا في نوع من الاتحاد الجديد مع القادة الأمازيغيين، الذين أسرعوا بدورهم إلى تشكيل صلات وروابط مع الوافدين الجدد، كذلك الروابط التي كانت تربطهم بأسلافهم من القرطاجيين. وهكذا بدأ الرومان يعون أهمية الطاقات الكامنة في إفريقيا، فراحوا يطوعون مرتزقتها لدى القوى العسكرية المرابطة آنذاك على الحدود الأخرى للإمبراطورية، والتي كانت في حاجة إلى إمدادات. فمنذ فترة، استعاض عن الجنود الرومانيين بالإداريين، لوضع المخططات المطلوبة لاستعمار إفريقيا الشمالية، فبدأ المستعمرون يأتون من الأجزاء الأخرى للإمبراطورية، ولم يكن معظم الوافدين من إيطاليا نفسها، بل كانوا من الغالين والإسبانيين والدلماطيين والسوريين واليهود الذين أضافوا دماءهم وعاداتهم إلى الخليط الموجود قبلاً في مدينة قرطاجنة. وتكلم هذا الخليط من الناس اللغة اللاتينية واليونانية من دون أن يتكلموا البونية.

كان الرومان من أعظم الإداريين في عصرهم وأبرعهم. فإذا قرروا يوماً أن يقيموا في بلد ما، كانوا يشرعون بنشر تنظيمات إدارية مناسبة. وعليه، فقد بدأوا بتنظيم مقاطعة إفريقيا الشمالية، بكل نشاط. وقد نظروا إلى إفريقيا أولاً على أنها مصدر

جيد للطعام والغذاء، وساورهم القلق، كما هي عادتهم دائماً، على كيفية تغطية احتياجاتهم للخبز، وذلك طبعاً بسبب اتساع الإمبراطورية وازدياد احتياجاتها. لذلك، قامت السلطات الرومانية باقتلاع أعداد كبيرة من أشجار الزيتون، وزرعت مكانها الحنطة والشعير. وكذلك قطعت من أشجار الغابات الموجودة بمحاذاة الأنهار أو البحار التي تمكنهم من شحنها. وخلال فترة وجيزة، نظم الرومان أعمال ري واسعة، وبنوا القنوتات لمدن متعددة كقرطاجة وقيصرية (شرشال)، وشرعوا بتعبيد الطرقات بأسلوبهم المميز وهو استعمال البلاطات الضخمة التي كانوا قد استخرجوها من المقالع حديثاً.

في البداية، سمح الرومان للقادة والشيوخ المحليين الأمازيغيين أن يحكموا على ما كان تحت سيطرتهم من البلاد والناس. والقادة الأمازيغيين والقرطاجيين الذين قدموا الطاعة والولاء للإمبراطور الروماني، فقد منحوا وبسرعة، منزلة خاصة، باعتبارهم مواطنين رومانيين: فاستفاد هؤلاء من وضعهم الجديد هذا. وهكذا، وبسرور لا يوصف، وجد هؤلاء القادة والرؤساء الأمازيغيون والقرطاجيون أنهم قادرون على أن يتبوأوا مناصب عليا رفيعة في السياسة وفي الهيئات أو السلطات الاجتماعية الأخرى في المدن التي جرى تطويرها وإتمامها حديثاً. وقد أصبح العديد من الأفارقة قادة في الجيش الإمبراطوري. وفي سنة ١٩٠ ق.م صار ما يقارب ثلث المجلس الذي يحكم الإمبراطورية من روما، مشكلاً من أعضاء إفريقي الأصل. وهكذا انتخب أحد الأمازيغيين المدعو سبتيميوس سفيروس (Septime Sévère) إمبراطوراً لروما في وقت مبكر من عام ١٩٣ قبل الميلاد. هذا لأن التعيينات الإدارية في روما كانت تبني على أساس الاستحقاق والكفاءة. كان بإمكان أحد الأمازيغيين الذي أصبح حاكماً في روما أن

يكتب باعتزاز واضح: "في رأيي، إن عصرنا البشري مميز، وكأنما قدر له أن يكون كذلك. لأنه أنتج أناساً كثيرين ذوي قدرات عالية، وهو يرى أن الأطفال الذين أُنجبهم ورباهم يتبوأون أعلى المراكز وأرفعها: (١)

أما أولئك الذين لم ينجحوا في مواكبة الركب الإمبراطوري، فقد كانوا غير متحمسين للإمبراطورية. وبما أن المسؤولين الإمبراطوريين، كان همهم الأساسي السعي وراء تنسيق ما يختص بتنظيمات الأراضي الزراعية، وفرض الضرائب عليها، الأمر الذي لم يفلح القرطاجيون في إنجازه، فقد اعترض عليهم عموم الشعب الذين كانوا يأملون، ربما، بالحصول على أرباح أكبر بعد أن تغير شركائهم التجاريون. لكن ذلك لم يحصل، بل اكتشف الشعب أن الرومان كانوا أكثر رغبة في السيطرة على الأراضي مما كان عليه أسلافهم القرطاجيون. فالقرطاجيون مثلاً، كانوا يدفعون الإيجارات المستحقة عموماً على الأراضي التي يستغلونها. أما الآن، ومع استمرار تقدم زراعة الحنطة وتقلص المراعي، فقد خسرت بعض القبائل أراضي الكلاً التقليدية التي كانوا يستغلونها لرعي قطعانهم، واستولى عليها الرومان لتحويلها إلى مزارع الحنطة والشعير وغيرها. وهنأ، فضل الكثير من الرجال الأمازيغيين اختيار العمل كأجراء؛ أما بعضهم الآخر، فقد انتقل مع قطعانهم إلى أراضٍ داخلية بعيدة ومرتفعة، وهي بالطبع أقل خصوبة وكلاً. وبذلك فقد أصبح مستقبل الشعب مشكوك في أمره وغامض النتائج، لا اعتماد عليه.

وما إن حل القرن الأول للميلاد، حتى شرع الرومان بتقسيم الحزام الساحلي إلى خمس مقاطعات، وبطريقة سائبة وعشوائية. وكان هذا التقسيم العشوائي السائب يتلاءم، في الواقع، كثيراً مع تنظيمات إدارتهم الحكومية. فمثلاً، امتدت مقاطعة

كورينيكيا باتجاه الغرب وبمحاذاة الساحل من مصر إلى ليبيا الحديثة. وإذا توغلنا إلى أبعد من ذلك لجهة الغرب، نجد أن مقاطعة إفريقيا البروقنصلية التي دعيت فيما بعد تريبوليتانيا، تطوق الساحل الذي يدعى الآن خليج سرت. كان هذا مقر الإدارة الرومانية في شمالي إفريقيا والمتمركزة في عاصمتها، قرطاجة، بالقرب من مدينة تونس حالياً. وإذا استمرنا بالتوغل غرباً، فإننا نجد نوميديا وبعدها موريتانيا قيصريانسيس (أي الجزائر حالياً)، ومن ثم موريتانيا تنجيتانا والتي تستمر نزولاً حتى الساحل الأطلسي إلى أن نصل إلى سلا (بالقرب من الرباط). إن المدينة الداخلية فولوبيليس (وليلي) في شمال المغرب، ليست بعيدة عن مكناس في الوقت الحاضر. وقد تطورت بالتدرج حتى أصبحت عاصمة المنطقة الغربية لحين حلول القرن الرابع الميلادي. وعندما أدت فوضى الاضطرابات إلى اضطرار الإدارة الرومانية إلى سحب مراكزها القيادية والإدارية إلى طنجة.

عرفت السهول والجبال الداخلية التي كانت سائبة تقريباً، ولا حكومة فيها، باسم أراضي الجيتوليين أو المورين (**Maures.Gétules**) وكان يحكمها شيوخ القبائل. وقد حكم الشيخ الأمازيغي المدعو يوغرتا (أو يوكرتن) (**Jugurtha**) (عام ١٥٤ - ١٠٤ قبل الميلاد) المنطقة حكماً صارماً لا رحمة فيه ولا شفقة، وذلك حتى يتمكن من بسط نفوذه، ومد سيطرته على كل المنطقة التي توجد تحت نفوذ قرطاجة. وفي حدود العام ٢٥ ق.م، كانت المنطقة الممتدة إلى الغرب تحكم من المدعو يوبا الثاني، وهو رجل أمازيغي متزوج من امرأة مصرية تدعى سيلينا (**Célène**)، وهي ابنة أنطونيو وكليوباترا. وقد شب جوباً في روما، وتفوق في دراسته. وقدم خلال ملكه

الذي دام ٤٨ سنة، مظاهر عديدة للحضارتين الرومانية واليونانية في إفريقيا الشمالية. ذاق الأمازيغيون حلاوة التجارة وتقنية الصناعات اليدوية لحضارات البحر الأبيض المتوسط، وسروا كثيراً بحراثة الأراضي وجني المحاصيل والحصادات المتنوعة التي مارسوها. وقد أدى الاستقرار الذي فرضته الإمبراطورية الرومانية في المنطقة إلى تمكن مزارعي إفريقيا الشمالية وصناعاتها اليدويين من أن يوردوا إلى الأسواق البعيدة الواقعة في أقصى أجزاء الإمبراطورية. وهكذا نعمت بلادهم بالسلام، وحالفهم النجاح والرخاء الاقتصادي بسبب المعاهدات التي عقدها، والارتباطات الدولية التي حصلوا عليها. لكنهم، في الوقت نفسه، أعطوا صورة غير مشرفة عن المجتمع الروماني المتهريئ آنذاك، حيث أن هذا المجتمع كان يمارس الأعمال الوحشية والفظة في الملاعب والميادين، وقد ترسخت جذور العبودية المذلة، فضلاً عن الوثنية الفاسدة الفاسقة. وبالإضافة إلى هذا، فإن الرومان قد حكموا البلاد بشكل فعال ومشدد، لكنهم لم يهتموا، إلا قليلاً، بحاجيات أفراد الشعب ومشاعرهم.

وهكذا نرى، أن إفريقيا الشمالية، كانت في السنوات الأولى للميلاد، مزيجاً مختلفاً من الناس، لهم لغات وثقافات متنوعة. وقد اجتذب هذا الواقع مستوطني الأرض الذين توافدوا عن رضا، ليندمجوا في هذا الاتجاه السائد لحضارة البحر الأبيض المتوسط. فتبنوا بسهولة وحماس الأفكار الجديدة للتقنية التي صادفتهم هناك. وهكذا صارت الحقول جاهزة، بانتظار حلول الحدث الجديد والأهم، حيث تبشر السنوات القليلة القادمة بالدخول في عصر جديد وهام، وهو قدوم أشياء لم تعهدها إفريقيا الشمالية من قبل.

جاء الفينيقيون والرومان في السنوات السالفة إلى المنطقة، طمعاً في التجارة والاستيطان، وحباً بالنجاح والثراء ... ولكن، من خلف الأفق الشرقي تحديداً، بدأ بعض المسافرين الأفاذاذ يبحرون إلى كوريني وقرطاجة. كانت حوافر هؤلاء المسافرين تختلف تماماً عن غيرهم من الوافدين؛ لم يكونوا يرغبون في الاستغلال الزراعي أو استثمار الموارد المعدنية للأرض، لم يأتوا ليتاجروا مع المستوطنين، وبالتأكيد، لم يأتوا ليستأثروا بالسلطة. لم يحملوا معهم السلاح أو العتاد، ولا الغنى. لم يأتوا بشيء مما تقدم، جاءوا برسالة الأخوة والأمل والطمأنينة. وهؤلاء القوم اختارت بريبتوا أن تسير معهم وأن تنضم إليهم. ومعهم فقط، استعدت لتلقي رحلتها، وتسلم حياتها.

ملاحظات:

Ayache p. ٥٤ - ١

من المصادر الثانوية عما قبل تاريخ إفريقيا الشمالية وعن تاريخها القديم نذكر:

١٤٥ - ١٧٧; Frend pp. ٢٥ - ٤٧; Camps pp. ٨٦ - ١١٩

Guernier pp. ٥١ - ٨٢

الفصل الثالث البحث عن الله

منذ العصور الغابرة، أظهر أهالي إفريقيا الشمالية اهتماماً في الأمور الدينية العميقة والصعبة الإدراك. وبالطبع، فإن هناك شيئاً عالمياً عاماً، تشترك فيه الطبائع البشرية، ألا وهو الرغبة في الوصول إلى حل ألغاز هذا الكون، وأساره غير المرئية، والتي تتشارك فيها جميع قارات العالم وتؤمن بها كل الأجيال. وكلما اقترب الناس بعيشهم من العالم الطبيعي، اشتدت رغبتهم في التواصل مع هذه القوى الخارقة الموجودة في الخليفة. والواقع أن الإلحاد استطاع أن ينمو ويزدهر في القرن العشرين فقط، حيث المدن الكبيرة التي أوجدها الإنسان بنفسه. فقد أحاط إنسان هذا القرن نفسه بأعمال يديه، ولم يعد لديه متسع من الوقت ليتأمل فيما هو أعظم من منجزاته من أمور مدهشة يحاول فهمها.

وكسائر الناس الذين يقضون أوقاتهم في الحقول أو الغابات، فإن الأمازيغيين القدامى، في العصر الحجري الحديث والعصر الحديدي، لا بد أن تكون قد روعتهم القوى الظاهرة المدركة في الطبيعة. ولاشك في أنهم شعروا في قلوبهم بالمشاعر نفسها التي نحسها نحن ونشعر بها عندما نستيقظ في الصباح ونلقي نظرة على قمم الجبال المكللة بالثلوج تحت أشعة الشمس المشرقة الصافية. لقد امتلأ الأمازيغيون رعباً، كما نحن، بسبب القوى العنيفة الهائجة التي لا يمكن مقاومتها وهي تجرف الأشياء بقوة بعد كل عاصفة، إذ تكنسح الأشجار والصخور أمامها، وتلقيها أرضاً وكأنها عصابة في مهيبها. لقد افتتق هؤلاء وسحروا أيضاً، بهياج البحار، وبأمواجها الصاخبة على

السواحل الصخرية، وكذلك باندفاع طيور البحر وهي تتساق بسرعة فائقة خلال هبوب الرياح الغربية. لقد أدهشهم غروب الشمس وهي تصقل لونها الذهبي المتحول تدريجياً إلى اللون الأحمر، لكي يختفي بعيداً وراء التلال الرمادية، في آخر النهار. والطبيعة أيضاً مليئة بالخوف والرعب، فهي تحمل لهم قوى الحياة والموت. فإذا لم يتساقط المطر، يفسد الحصاد وتموت الغلة، وهذا يعني الجاعة. وإذا ما تفشت الأمراض في قطعان الماشية، فسيترصد الموت الناس أنفسهم، إذ أنهم يعتمدون على هذه الماشية لتأمين معيشتهم، فلا ينجو إلا القليل من أطفالهم إبان طفولتهم. فإن قدر أن يعيش واحد من أطفالهم، ويموت الآخر، فيكون قدراً مبهماً ومخيفاً. فهل هناك طريقة ما يمكن من خلالها أن نؤثر في حوادث المستقبل؟ هل يمكننا أن نتجنب الكوارث والنكبات، أو أن نؤكد استمرار الحياة؟ هل هناك قوى خفية غير منظورة تتحكم في مجريات الأمور؟ وهل يمكن استرضاء هذه القوى ومناصرتها؟ هل يمكن لهذه القوى أن تساعدنا في صراعاتنا مع الحياة؟.

ليس من السهل أن نعود القهقري لأربعة آلاف سنة غابرة، لنذكر ما كان يفكر فيه أسلافنا، وما اعتقدوه في الحياة والموت؛ أو لنستطيع أن نتصور كيف حاولوا تفسير أسرار هذه الدنيا والطبيعة في ما يتعلق بهم، وما تزخر به من أشياء محيرة مربكة، خصوصاً إذا ما علمنا أنه لم يكن لهم سبب واحد يحملهم على تدوين ما يختص باقتنائهم العميقة، وتأملاتهم الخفية الغامضة. ولكن بإمكاننا أن نمسك بالمفتاح الذي يزودنا ببعض المعلومات فيما يتعلق بمعتقداتهم، وذلك من صناعاتهم ومنتجاتهم التي يكتشفها علماء الآثار هنا وهناك، كالأصنام والمذابح والحجارة المنقوشة والملونة، أو أي

شيء آخر يعطينا مغزىً حقيقياً لدين معين. وهذا، وإن لم يكتب الأقدمون شيئاً، فيممكننا أن نجد المراجع بخصوصهم، من خلال كتابات غيرهم، ومن عرفهم من الناس، لاسيما أولئك الذين يبادلونهم في التجارة، أو يجارونهم. أحياناً يمكننا أن نميز أشياء كثيرة عن معتقداتهم، من خلال العادات والتقاليد التي لا تزال حتى اليوم. وإذا تأملنا في ديانة الأمازيغيين نجد، ولحسن الحظ، بعض المفاتيح لفك لغزها بواسطة الأساليب الثلاث السالفة الذكر.

هناك شواهد وإثباتات تدل على أنهم تطلعوا بشكل خاص إلى السماء، مسكن الشمس بنورها ودفنها، ومصدر المطر المحيي - والسماء بطبيعتها مليئة بالعجائب والروائع - وإلى النجوم المشرقة بلمعائها ليلاً، والقمر الذي يضيء بنعومة ورقة، والألوان السحرية لقوس القزح الذي ينشق متألئناً من بين الغيوم بعد سكون العاصفة، وكتل الثلج البيضاء الصامتة التي تنساق بغموض إلى الأرض، والوميض المروع الذي يبعثه البرق، والتهديد المدمدم في قصف الرعد المزجر. فليس عجباً أن تنشر السماء الرعب والخوف والعبادة في نفوسهم. وكثيراً ما نجد نقوشاً تمثل الشمس في حجرات الموتى وأقبيتهم، وحتى على الصخور القائمة. وفي بعض الأحيان، يعبر القدماء عن إله الشمس بشكل أسد، شعر عنقه ملتهب ومتقد اتقاداً. وكان هذا الحيوان معروفاً عند الأفارقة الشماليين قبل أزمنة الرومان وبعدها، وهو لا يزال يظهر مراراً وتكراراً في حكاياتهم الشعبية. وتشير نقوشهم الخفورة، وكلماتهم المنقوشة، إلى الإله "أيور" (Ayyur) أي القمر، بلغة الأمازيغيين.

استمرت عبادة الأجرام السماوية خلال أزمنة التاريخ. فقد كتب لنا هيرودوتس (Hérodote) في القرن الخامس قبل الميلاد، أن الأمازيغيين، قربوا في أيامه التقدمات لكل من الشمس والقمر. أما بليبي الكبير (Pline l'Ancien)، فقد أكد لنا تقديم مثل هذه الذبائح في القرن الأول للميلاد. قال شيشرون (Cicéron) إنه عندما قابل الملك الأمازيغي ماسينيسا (أو ماسنيسن) الجنرال الروماني سكيبيو (Scipion) في القرن الثاني قبل الميلاد، صلى إلى الشمس قائلاً لها: "إني أقدم شكري العميق لك أيتها الشمس المرتفعة ولسائر الآلهة أيضاً في السماء، بسبب إتاحة الفرصة لي، وقبل انتقالي من هذه الحياة، أن أرى في مملكتي وتحت سقف بيتي كرنيليوس سكيبيو". (١) أما ابن خلدون فقد ذكر أن الكثير من الأمازيغيين في القرن الرابع عشر بعد الميلاد، كانوا لا يزالون يتعبدون للشمس والقمر والنجوم.

وتتحدث السماء عن أسرار لا يمكن الوصول إليها. وكما فعل الإنسان، بتوجهه نحو السماء، هكذا أيضاً فعلت قمم جبال الأطلس التي نحتها الرياح. ومن الممكن أن يكون هذا هو السبب الذي جعل قمم الجبال تدفع الأفارقة الشماليين إلى العبادة. ويخبرنا بليبي الكبير "أن الليبيين يعتبرون الأطلس إلهاً ومعبداً". ولقد وجد علماء الآثار في الأمكنة العالية بقايا المعابد الرومانية، وهي مكرسة لخدمة ساتورن (زحل) وعبادته. فقد بنيت هذه المعابد، في الواقع، على أنقاض مزارات الفينيقيين، والتي كانت قد شيّدت هي أيضاً من حجارة معابد وثنية قديمة. ولكن حتى قبل هذا التاريخ، وفي فترة العصر الحجري الحديث، كان الأمازيغيون ينقشون الرموز والصور على أعالي قمم جبال الأطلس والريف، وفي الكهوف والمغاور، وعلى الصخور التي

تنذر مواقعها ومناظرها المشرّبة بالخوف؛ وكأنها تراقبهم، إما لمعاقبتهم وإما للتروؤف عليهم.

هل كانت هذه المناطق الصخرية مهبطاً "للأرواح الأرض" التي كانت تدعى "جنون" (Jnun)؟ يظهر أن الأمر هو كذلك. ولا تزال، حتى يومنا هذا، تقدم تقدمات النذور والقرايين في أوان خزفية تشابه إلى حد كبير الأواني الفخارية لما قبل التاريخ، اكتشفها مؤخرأ علماء الآثار؛ ولا تزال الشرائط تربط على الشجيرات الشائكة التي تستظل بها أرواح حرس الصخور التي كانت تعتبر مقدسة، وعلى الكهوف التي تأوي الأشباح، وعلى الينابيع، وعلى الأشجار القديمة المتنوية الكثيرة العقد والتسويات والتحدبات. إن أعمال العبادة هذه هي الشهادة لإيمان ثابت بالأرواح الخلية، ويتضح تماماً أن هذا الإيمان مستمر ودائم منذ ما لا يقل عن أربعة آلاف سنة. كان ينبغي استعطاف الأرواح الخلية قبل الحرائة، أو قبل جني الأثمار، أو قبل قضاء ليلة في المنطقة التي تحرسها هذه الأرواح. فإن أزعجت أو أغضبت، فلا بد من أن يحدث لك المصاب ويأتيك البلاء، لأنك بهذا الإزعاج أو المضايقة أو الإغضاب، تكون قد خاطرت بالتعرض للعقاب المباشر، كالعقم أو العمى أو الجنون أو حتى الموت.

ونحن نعرف ٥٢ اسماً من أسماء هذه الآلهة الخلية. ولقد تعرفنا بها بشكل واسع من النقوش والكتابات المحفورة، أو الوقف الذي أوقف لهم، أو التكريسات التي كرس لهم في عهد الفينيقيين والرومان. ومعظم تلك الآلهة تحمل أسماء أمازيغية تظهر أنها كانت أرواحاً قادرة على أن تأتي بالأمطار وتمنح الإخصاب؛ ولكن نفوذ كل من هذه الآلهة مقتصر على منطقتها الصغيرة الخاصة به. فمثلاً نفوذ هذا الإله أو ذاك، يقتصر

على تلتها الخاصة، أو ينبوعه الخاص، أو حتى قريته الخاصة. كانت هذه الديانة هي الديانة النموذجية العملية للآمازيغيين القدماء، وهي شكل من أشكال مذهب حيوية المادة (Animisme) أو صيغة من صيغها، تتشابه إلى حد بعيد مع مذاهب حيوية المادة الأخرى التي وجدت في أجزاء كثيرة من العالم.

كان على المسافر الذي ينتقل من مكان إلى آخر، وعلى التاجر أو الموسيقي أو الجندي، أن يرضي أي روح يراقب أي موضع يؤمه هؤلاء الرجال. فعلى المسافرين، وبالأخص أولئك الجنود الآمازيغيين المسجلين في الجيش الروماني، أن يعتنوا بطائفة من الآلهة المحلية بشكل جماعي، واسم هذه الآلهة داي مووري (Dei Mauri) أي الآلهة الموريين، وبعد ذلك يجب أن يتوسل إليها ويجلها مجتمعة، لأنه بذلك يضمن لنفسه أنه لم ينس أياً منها. إن إحدى أكثر التكريسات التبعديّة المعروفة والمتكررة، هي للإلهة وارسيسم أو فارسيسما (Varsissma)، واسم هذه الإلهة يعني في الحقيقة "إله بلا اسم". والظاهر أنهم كانوا يتلهفون كثيراً في استرضاء هذا الإله، وجعله مسروراً، تماماً كما كان تلهف أهل أثينا لعبادة مثل هذا الإله في أيام الرسول بولس. (٢)

ومن الصعب أن نعرف تماماً كيف كان يجري استرضاء هذه الآلهة المعبودة. ولكن رسوم الكهوف في العصر الحجري الحديث، تشير إلى أنهم كانوا يسترضونها بذبائح الكباش والثيران التي يقدمونها كفدية عنهم. ولكن، من المستحيل أن نعلم ما إذا كانت هذه الأضاحي أو الذبائح تقدم لآلهة معينة لا نعلم شيئاً عن أوصافها. ولا يزال تقديم القرابين والذبائح الحيوانية موجوداً بين الآمازيغيين، وهذه الذبائح تختلف عن تلك

التي يقدمها العرب في الشرق الأوسط، مع أنها تتشابه كثيراً مع قرابين الفينيقيين وأصاحيهم.

هذا ما كان يختص بالأحياء، ولكن الأمازيغيين لم يكن اهتمامهم بموتاهم يقل عن اهتمامهم بأحيائهم. كانوا يشيدون القبور من قطع الصخور، جاعلين هذه القبور تواجه الشمس. وكانوا يزودون موتاهم بالجوهرات والأوعية الخزفية، كما لو كان موتاهم سيحتاجون إلى استعمال هذه الأشياء في الحياة الآخرة. أما القبور الأخرى، فقد كانت تطمر وواجهاتها إلى الجرف، وترين بالرسوم الملونة بصلصال أحمر. وتعود بداية تاريخ هذه القبور إلى العصور الحجرية، وقد استمرت حتى عهد الفينيقيين.

ويظهر أن الديانة العملية للأمازيغيين لا تختلف إلا قليلاً عن ديانة المتحدرين من أصلهم الذين يقطنون القرى في أيامنا. فمن ذلك الوقت، وإلى اليوم أيضاً، هناك اعتقاد قوي وفي كل مكان، بوجود قوى فوق طبيعية حاقدة، ولا تزال الرغبة مستمرة في إيجاد الحماية والوقاية من هذه القوى. ولم يجد الكثير من معتقدات الأفارقة الشماليين وعاداتهم مكاناً لها في الديانة المسيحية الصحيحة أو في الإسلام. أما بقايا هذه المعتقدات التي مازالت موجودة، فهي قائمة منذ العصور القديمة.

ويتضمن استعمال "السحر الأسود" الكثير من الممارسات، وهي تركز على افتراض أن الإنسان قادر على كسب النفوذ على غيره، سواء أكان ذلك على الإنسان، أم على الحيوان، أم الأشياء، وذلك بصنع نموذج للضحية التي يراد إنجاز طقس ما أو أي من الشعائر ضدها. وبهذا تلزم الضحية على أن تتصرف بطرق خاصة معينة حسب ما تخطط لها، أو تكابد قدراً أو قضاءً معيناً. فمثلاً يمكن للمرء أن يربط

عقدة في شريط أو في خصلة شعر لربط مخططات الخصر وإحباطها، أو لإغلاق رحم امرأة عدوة. كما يمكن أن يؤدي إقفال نصل سكين الجيب إلى عجز جنسي عند الشخص الذي يكتب اسمه على هذا النصل.

كذلك كان الاعتقاد أنه بالإمكان التأثير على مسار الأحداث في العالم الخارجي وذلك من خلال ممارسة طقس محدد، كأن يصار إلى ارتداء الثياب بالمقلوب بقصد تغيير ظرف معين. إن شعائر الإخصاب الموسمي تضمن إنتاجية مبدعة من المحاصيل والحصاد والقطعان. لقد تميزت السنة الزراعية بإحياء احتفالات يحرث فسها الشق الأول وتجمع الحزمة الأولى من المحصول. كتب أغسطينوس وغيره من المؤرخين المعاصرين عن إحياء طقوس جنسية عريضة متطرفة، "ليالي الخطايا"، لحث آلهة أو أرواح الإخصاب، آملين منها أن تنفخ نشاطاً مشابهاً بين القطعان والمواشي.

ظهرت العادات والخرافات المتعلقة بسقوط الأمطار تقريباً في كل الأراضي شبه القاحلة بما في ذلك شمال إفريقيا، حيث تقوم النسوة بصنع دمي تمثل "عروس المطر"، تماماً كما يفعل بعض الناس في بعض مناطق اليوم. وتم تحمل هذه الدمي في موكب طقسي مصحوب بأغاني ودعاءات والتماسات مرفوعة إلى السماء(٣). ومن عادات أهالي جزر الخالدات أن يضربوا مياه المحيط بالعصي، وذلك محاولة منهم لإطلاق مياه السماء. وقد دان أغسطينوس هذه الممارسة الوثنية القديمة، كما وبخ أولئك الذين يستحمون وهم عراة في يوم الانقلاب الشمسي الصيفي، مؤججين بذلك شهوات مشاهديهم. وقد يبدو أن مثل هذه العادات قد ماتت، إلا أن الأرضيات وعتبات الأبواب مازالت ترش بالماء في مواسم معينة، وغالباً ما لا ترش أكثر من رشة رمزية، إذ

يبقى معظم الغبار غير ممسوس. هل المراد من هذه الرشة أن تبرد الأرض وتنعشها، أو هل لهذه العملية دلائل أكثر عمقاً؟

اعتقد الكثيرون، منذ زمن الرومان إلى يومنا هذا، أن أقدارهم مسجلة في النجوم. فهم يرجعون إلى المنجمين والعرافين ليقرأوا لهم مستقبلهم في السموات، أو في أحشاء الحيوانات، أو في علبة ورق اللعب. فهم يريدون أن يعرفوا، ويريدون أن يسألوا أياماً ميمونة لأعراسهم أو لرحلاتهم. كما يريدون أن يعرفوا هل بإمكانهم التعامل مع أناس معينين أو تجنبهم، أو هل بإمكانهم الذهاب إلى أمكنة معينة أم لا. إنهم يتساءلون، وفي قلوبهم أمل لا يستند إلى أي منطق، عما إذا كان بإمكانهم الهروب من أقدارهم الختومة إذا كانت سيئة، أو إنجاز عمل ما، إذا كانت هذه الأقدار حسنة. فالخوف من "العين الشريرة" - اللعنة التي يطلقها عدو حسود - تعود إلى ما قبل العهد الروماني. والشيء عينه، ينطبق على الاعتقاد أن الأفراد، أو حتى الأشياء التي لا حياة فيها، يمكن أن تكون مستودعات للقوى الروحية أو "البركة". لقد استعملت المياسم الحديدية الملتهبة، كما اليوم، لشفاء أوجاع الرأس، ولمعالجة سوء التصرف كالإدمان على السكر والسرققة مثلاً.

وقد كان للرقم خمسة، ولرمز العين المفتوحة، وللرمان المرسومة، معان معينة ومغزى سحري، ونحن لانزال إلى اليوم نلمسها ونراها في إفريقيا الشمالية. هذه المعتقدات والرموز كلها كانت تتزامن مع الإلهة الفينيقية تانيت، التي تتوافق بدورها مع القصد من وراء رسم اليد المفتوحة التي نشاهدها، بشكل كثيف، على الأبواب الخلفية للشاحنات. وهي ترسم أيضاً على عضادتي الباب (جانبي الباب)، كما تصنع ببراعة من

الجوهرات، وهي تعرف عموماً باسم "يد فاطمة الزهراء" (ابنة محمد) أو "الخميسة". ورمز اليد المفتوحة غالباً ما يعتقد أنه مستورد من العرب، والحقيقة أنها أقدم من ذلك بكثير، إذ وجدت أيضاً في البقايا الفينيقية في قرطاجنة، وفي أماكن أخرى (٤). كانت الضرائح والمواضع المقدسة في أزمنة الرومان تبيض بالكلس، ومازلنا حتى هذا اليوم نرى قيور رجالات المسلمين، من أولياء وأئمة، وهي مطلية بالكلس المطفأ، وكذلك على الصخور المفردة والمعزولة، والأشجار، وعلى عضادات الأبواب وأطر الشبائيك والبيوت. إن هذا التجصيص لا يعدو كونه بعض اللطخات على الجدران الخارجية للبيت. فهل المقصود أن يكون التجصيص لغرض التزيين فقط، أو أن لهذا العمل معنى آخر أو غرضاً آخر؟ إن الذين يمارسون مثل هذه العادات في أيامنا، غالباً ما يجهلون أية معاني كانت لها في الأصل.

لا يزال الناس، وبخاصة النساء، يلبسون التعاويذ، كالعظام والصدف الأصفر، حيث يعتقدون أن مثل هذه التعاويذ تمنحهم الأمانة والضمانة ضد العفاريت أو الجن أو العيون الشريرة، وتبعد عنهم الحظ السيئ، لقد كتبت الرقيات السحرية على الأوراق وعلى العظام، وفي عدة أحيان كانوا يغسلون الحبر الذي استعمل في كتابة الرقية والتعويدة ويشربون الماء الممزوج بالحبر. وكذلك، ففي أحيان أخرى كانوا يدفنون الورقة أو يحرقونها في المكان الذي يتأكدون فيه أن الضحية المقصودة ستستنشق دخان هذه الأوراق المحروقة. وغالباً ما يصنعون أكياساً صغيرة من الجلد فيضعون فيها التعاويذ والحجاب أو أي شيء صغير فيه قوة سحرية، ثم يعلقون هذه الأكياس في رقابهم، أو مشكولة في صدورهم أو أي مكان آخر في أجسامهم. ثم راحوا لاحقاً يستعملون

الآيات القرآنية ويكتبونها على تعاويذهم، أو يصفون رموزاً وكتابات عربية منظمة بعينات وأشكال سحرية، كما أنما ما زالت تكتب بالحروف التيفيناغية (Tifinagh) القديمة، بصيغتها احرفة تماماً، مما يوحي لنا بأن أصل هذه الكتابات والتعاويذ يعود إلى ما قبل التاريخ الإسلامي (٥). وكان للنباتات الطيبة آنذاك شعبية واسعة، لم تضعف حتى في أيامنا هذه. إنه ليس من السهل إطلاقاً، في بعض الأحيان، أن نرسم خطأ فاصلاً أو متميزاً بين العلاجات الشعبية وممارسات السحر الأسود في استعمال الأعشاب والمواد المعدنية والحيوانية (٦).

هذه هي معتقدات الأمازيغيين القدماء والتي تتجذر في الماضي حسب ما نعلم، وصولاً ربما إلى العصر الحجري. وهي من بعض جوانبها مستمرة حتى وقتنا الحاضر. إلى ذلك، فإن بعض الممارسات الأخرى قد فرضت نفسها خلال القرون التالية. لقد جلب الفينيقيون معهم، منذ العام ١٠٠٠ قبل الميلاد وإلى ما بعده، بضائعهم التجارية ومحاصيلهم، ومجموعة من الآلهة الجديدة إلى إفريقيا الشمالية. وقد تبني أهالي إفريقيا شكل ديانتهم، إلى جانب التقاليد والأعراف المتعلقة بمذهب حيوية المادة. فتم نقش الأصنام والصور والأيقونات الخاصة بآلهة الفينيقيين بنحت نافر خفيف على سطوح الصخور، أو نصبت على أعلى الصخور لعبادتها. وقد ترافق مع هذه الأصنام والأيقونات المحفورة في بعض الأحيان، كلام منقوش بالحروف التيفيناغية، لكن النماذج المتأخرة استعملت الأبجدية الفينيقية واللاتينية. كان لبعض هذه الأصنام أشكال بشعة. ونحن نجد أن تروتوليانوس يؤنب معاصريه في القرن الثاني بعد الميلاد بسبب عبادتهم

التافهة العقيمة للخشب والحجر. وفي القرن الرابع للميلاد، بقي شعب تيباسا (Tipasa) يتعبد بحماسة شديدة للحية البرونزية العظيمة ذات الرأس المطلي بالذهب. أما بعل أمون، فهو إله الشمس ورئيس الآلهة عند الفينيقيين. كان إلهاً هاماً في مناطق البحر الأبيض المتوسط كلها، وبخاصة المدن. وبالرغم من الطقوس القاسية والفظة لعبادة هذا الإله السامي، قبل الأمازيغيون عبادته بسرور وعن طيب خاطر. ويبدو أن عبادة رئيس الآلهة هذا قد مست وتراً حساساً في قلوب الأمازيغيين، إذ توافقت مع شعور كان عندهم بوجود مثل هذا الكائن العظيم الذي يقف على رأس كل الآلهة المحلية والأرواح الأخرى. كما يظهر أنه قد تكون عند الأمازيغيين ميل إلى الاعتقاد بوجود إله سام يتصدر كل الآلهة في الوقت نفسه الذي كانوا يتفاعلون فيه مع قوى أقل منه شأنًا وفي متناولهم. وقد اكتشف علماء الآثار أوقافاً كثيرة كرست للبعل، وفي ما بعد، لنظيره الروماني ساتورن (زحل)، والتي تعود إلى ما قبل دخول المسيحية إلى شمال إفريقيا (٧).

وفي ما بعد، وجد اليهود والمسيحيون أن الأمازيغيين يتجاوبون بشكل خاص مع إيمانهم بالإله الواحد، كما أن هذا الأمر يصح أيضاً على المسلمين لاحقاً. ولربما كان اليهود، منذ القرن الرابع قبل الميلاد وما بعده، أول من قدم فكرة وجود الإله الواحد الكلي القدرة، ولكن يبدو أن اليهود لم يضيفوا بذلك سوى أبعاد جديدة إلى مفهوم كان موجوداً، ولكن بشكل مبهم (٨). وفي القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد؛ أشار بعض شيوخ الإسلام، إلى وجود الإله الأوحد باسم "ياكوش" أو "يوش" (٩). فهل لا يزال هذا الاسم حياً بين ذوي الأصل الأمازيغي منذ ماضيهم الغابر؟ أو إنه لم

يعرف عندهم إلا حديثاً؟ نحن لا نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال ولكن يبقى من الحقائق الخيرة وجود آثار تدل على الإيمان بالإله الواحد، ليس هنا فقط، بل في أماكن معزولة في جميع أنحاء المعمورة، وعند شعوب وأجناس لم يكن لها احتكاك بأية حضارة، ويظهر أن هذا اعتقاد عفوي بوجود إله سامٍ قصي غطت معاملة الممارسات الطقسية وعبادة الأرواح الخلية وأرواح الأسلاف.

فهل يمكن القول إن هذا الإدراك للإله الأسمى، الكوني والشامل هو علامة من علامات الأصل المشترك الأوحى للبشرية جمعاء، ومشابهة الأقدمين في صفاتهم، والذاكرة المنتقلة من جيل إلى جيل والتي ترجع إلى أقدم أسلافنا، إلى نوح وحتى إلى آدم قبله؟ فبعض الأساتذة العلماء يلمح بمجدية إلى أن هذا هو واقع الإنسان (١٠). أو هل يتجدد ببساطة، عند كل جيل، الشعور بأن الطبيعة بجمالها وبتعقيدها المذهلة، لا بد من أن تكون قد صممت بعقل جبار عظيم؟ ناهيك بالإنسان بحد ذاته - فهناك الكثير الكثير من الأمور المدهشة حقاً فيه - النظر، السمع، التفكير، الكلام - أليست هذه كلها أمور مدهشة محيرة؟ أو هل يمكن القول أن البشرية انبثقت من طريق الصدفة، وجاءت من اللاشيء؟ ولكن الحقيقة الواضحة هي أنه لا يمكن أن يخلق الإنسان إلا كائن أعظم من وأكبر؛ كما أن الكائن العظيم الذي هو أظهر من البشر، وحده يقدر أن يلهمهم بهذه الأشواق الحميدة المقدسة التي يختبرونها في أفضل لحظات حياتهم وأحسنها.

وبالطبع فإذا ما وعى الأمازيغيون هذه الأمور، سيجدون في هذه الحال، أن عبادة بعل آمون لا يمكن أن تكون إلا عبادة محيية للأمال وفاشلة، إذا ما قورنت بجمال

العالم الطبيعي، ونبيل أقدس المثل الإنسانية. إن عبادة البعل ورفيقته تانيت هي عبادة موسومة بقساوة ممرضة ووحشية تفرز النفس. كتب جيمس فرايزر (Ja Frazer) في كتابه "العصن الذهبي" (Le Rameau d'or)، وهو يصف التضحيات البشرية في معبد تانيت بتفصيل مؤلم بغيض، حيث ذكر عن الأولاد الصغار كيف كانوا يوضعون على يدي الصنم المنحدرتين، فيتزلق الأولاد المساكين من هناك ليستقوا على فرن ساخن ملتهب. وفي هذه الأثناء "يرقص الناس على أنغام الموسيقى والنفخ على المزمارة، وهم يقرعون على الدفوف الصغيرة، ليحجبوا صرخات الضحايا المحترقة وعويلهم". وكانوا يمتعون الأبوين من إظهار الحزن والأسى خلال عملية التضحية بهؤلاء الأطفال. وقد وجد علماء الآثار بقايا هؤلاء الأطفال المتفحمة في قرطاجة، وهي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد؛ وتتراوح أعمار هؤلاء الأطفال بين حديثي الولادة إلى ٣ سنوات، فضلاً عن أنهم وجدوا براهين أخرى تثبت هذه العبادة البشعة. وقد ظهر أنه بحلول القرن الثالث قبل الميلاد، استبدل كبش أو ثور بالأطفال، وكان يتم ذلك، على الأقل، بالنسبة إلى العائلات الغنية الموسرة.

اندثرت عبادة الآلهة الفينيقية وماتت، ولكن لا يمكن اعتبار ذلك منطبقاً على ممارسات مذهب حيوية المادة التي سبقت هذه العبادات زمنياً. ويشهد ما تبقى من هذه المعتقدات الدينية والخزعبلات، على الأهمية والمعنى العميقين الذين حملتهما ممارسة مذهب حيوية المادة هذه إلى تلك الأرض. وقد تلاقت ممارسات هذا المذهب مع حاجات عميقة عند مشاعر الإنسان في تلك البقعة من العالم. كما كانت محاولة ذكية من أناس مرهفي الإحساس ليسيطروا على عالم معقد ومخيف.

في القرن الأول للميلاد، كان هناك عدد وافر من الأمازيغيين يعيشون في المدن الساحلية المتنامية للبحر الأبيض المتوسط. فتزاوجت عائلات أمازيغية كثيرة مع المستولين والإداريين الحكوميين الرومانيين والتجار، كما كانت لهم معاملات يومية معهم في أعمال السوق وعلى المرافئ. كذلك استمعوا إلى الأنباء والأخبار المتداولة بين الناس، واقتنعوا بمعظم الأفكار الحديثة التي انتشرت في الإمبراطورية. كما أن أبنائهم الطموحين تعلموا اللغة وحوافز الثقافة والحضارة الرومانية واليونانية. وقد ناقشوا مع المعلمين المثقفين، الأفكار الفلسفية العميقة لليونانيين، وتأملوا الشروح والتفسيرات الرياضية للألغاز التي كانت حتى ذلك الوقت غير مفهومة. لقد دخل الأمازيغيون إلى العالم الأوسع لبلدان البحر الأبيض المتوسط، وبحثوا بحثاً فكرياً عقلانية كانت معروفة سابقاً، وبدأوا هم أنفسهم في البحث والتنقيب في المفاهيم الأكثر عمقاً معرفة ما هو متراكم من علوم ومعارف حتى ذلك الحين. فماذا كانت يا ترى الأفكار التي بحثوها بعضهم مع بعض، وفي مدارسهم الأدبية وفي فناءاتهم وساحات دورهم المظلمة لداراتهم المصقولة بالقرميد الأحمر؟

لم يكن الناس الذين يعيشون في السهول والتلال، والذين يدينون بمذهب حيوية المادة، هم الوحيدون الذين كانوا يرون أنه لا بد من وجود إله أسمى يزداد شموخاً وسمواً عن تلك الآلهة ذات القوة الأدنى، إذ إنه كان هناك في الوقت نفسه مثقفون رومان قد توصلوا إلى مثل هذا الاتجاه أيضاً. كما كانت هناك في الواقع رغبة ملحّة، خلال العصور الأخيرة للوثنية الرومانية واليونانية، في التواصل مع الإله الواحد الموجود قبل كل الأشياء والمخلوقات. هذا، وقد أصبحت الآلهة الأسطورية الخرافية القديمة تمل

باطراد. وعلى الرغم من ذلك، فإن المجتمع الإنساني كان وما زال لديه احترام لما هو فوق الطبيعة. فالفلاسفة تمكنوا في الواقع من ممارسة نفوذ على الناس يفوق نفوذ كهنة روما الوثنية. ويعود الفضل لهم في إيقاظ الرغبة والاشتياق إلى المناقبيبة والكمال الأخلاقي، وهم الذين أخوا إلى وجود "المحرك الأول" و"العللة الأولى لكل الأشياء". لقد آمن الناس أن هناك إلهاً في مكان ما أو في الأعالي وهو إله غير منظور، والذي لا بد من أن يكون هو من خلق العالم. ولم تكن مشكلة هؤلاء الناس إلا معرفة طريقة الاتصال بهذا الإله.

في هذه الأثناء كان سكان المدن الذين كانوا مازالوا يعبدون الآلهة القديمة على مضض، يقربون التقدّمات للإله زحل (Saturne) أو لأحد الآلهة الأخرى، كعطارد (Mercure)، إله الفصاحة والمهارة، والمريخ (Mars) وهو إله الحرب، والزهرة (Vénus) وهي إلهة الحب والجمال، ونبتون (Neptune) وهو إله البحر، وهلم جرا. وهناك آخرون عبدوا آلهة "الديانات السرية". وقد سميت بالديانات السرية لأن شعائرها لم تكشف إلا لأعضائها. وقد تضمنت هذه العبادات والمذاهب آلهة غريبة، نصف بشرية ونصف حيوانية، فضلاً عن قصص أسطورية خرافية عن أعمال هذه الآلهة كانت تترافق مع هذه العبادات، ولربما كانت عبادة الإله ميثرا (Mithra) هي الأكثر شعبية، حيث كان أتباعها المتعبدون يستحمون بالدم الذي يهب الحياة، من ثور يذبح بأسلوب شعائري. وكان موت أحد الآلهة وقيامته أمراً شائعاً بين معظم هذه العبادات والمذاهب، وأحياناً تكون هذه الآلهة أزواجاً: ذكراً وأنثى، يموت الأول ويساعده الآخر في عملية قيامته. ويتزامن الموت والحياة عادة مع الاعتدالين الخريفي والربيعي، ويرمز

ذلك إلى موت السنة الفاتنة وولادة السنة الجديدة. ويحاول المتعبدون، من طريق الاحتفال بالعيد والمسكرات وطقوسهم الجنسية، أن يؤكدوا خلودهم الخاص وخصوصية أرضهم وإنتاجهم الزراعي. إلا أن الكثيرين لم يكونوا مقتنعين بكل هذا. وبدأوا يشعرون بأن هذه الفظاظة والخشونة لم تكن متوافقة مع ظواهر العجائب المهيبة والجليلة التي يشعرون بوجودها في الطبيعة المليئة بالقداسة وفي الكون بأسره، كما رأوا أن قصص الآلهة تحمل علاقات صغيرة تافهة عند مقارنتها بقوى الخير والشر التي تبينها في قلب الإنسان والعالم من حولهم، حيث أن تصرفات الآلهة لم تكن أقل قسوة وظلماً وإباحية من قسوة الذين يعبدونها وظلمهم وفسادهم.

إن أكثر ما أربك الناس في العصر الروماني هو أن الفناء يحمق بكل شيء، وقد تملك الناس شوق غامر إلى الحياة الأبدية والخلود. وظهر لهم آنذاك أن جميع الأشياء من حولهم محكومة بحتمية الاضمحلال والانقراض. لم تكن الأشياء الجميلة تدوم مطولاً، فالدمار كان قدراً لا مناص منه لجميع البشر. كما كان هناك اشتياق عظيم في قلب كل رجل وامرأة إلى الانتصار على العدو القديم، الموت. وكان الجميع يتوقون إلى حياة تستمر ما بعد القبر، وإلى حفظ كل ما هو نبيل وصادق. ولم يستطع الفلاسفة كأفلاطون وغيره أن يعطوا سوى جواب غامض للأسئلة التي كانت تقض مضجع الناس. فقد أعطت الديانات السرية أملاً أكبر، لكنها كانت متنوعة وكثيرة العدد. ومن الواضح أن هذه التعددية تظهر للعقلاء والأذكياء، أن الديانات مازالت تتحرك في غسق من التخيلات الأسطورية الخرافية، ولا تسير أو تتحرك في نور النهار الواسع المتوكئ على الحقائق الوطيدة. كانت قلوب الناس جائعة، وهي تصرخ مستغيثة تطلب

رسالة لأمل متجدد وأكد. لذلك، فعندما وصلت هذه الرسالة، التي تعطي الأمل والرجاء، أوصلت إلى الناس انفراجاً عظيماً واطمئناناً كبيراً، ولاسيما لأولئك الرجال والنساء المخلصين ذوي التفكير العميق، سواء أفي مدارس المدن ودورها أو في القرى الريفية المسكونة بالأرواح (١١).

ها قد وصل بعض المسافرين وهم يجوبون الشوارع والطرق والأسواق يتحدثون بثقة شهود العيان، أو ثقة أناس كانوا قد تقابلوا حديثاً مع شهود عيان واستفهموا منهم. لم يكونوا يتحدثون عن نظريات غامضة مبهمة أو عن آلهة أسطورية خرافية، بل عن حقائق ثابتة. كانوا يتكلمون عن أحداث وقعت حديثاً، وفي مواقع وأمكنة مميزة معروفة، وفي أوقات محددة يعرفها الكثير من الناس. لقد جاء هؤلاء بأخبار عن فيلسوف عظيم جديد برهنت حكمته العجيبة ومبادئه الأخلاقية الرفيعة على قوته المدهشة في تطهير الضعفاء والأشرار، عن تفوقه على كل معلمي العصور القديمة. وكان يتحدث عن الإله الواحد الحقيقي، خالق كل شيء، وكأنه يعرفه معرفة شخصية. وقضى أيامه في وسط الزحمة الصاخبة والمزعجة لأناس كثيري الطلب. وقدم العون والراحة بكل لطف وحنان لكل من جاء إليه. وقد جعلتهم شخصيته وحياته ينظرون إليه كفيلسوف كامل. وتحمل حسد الأشرار ومكرهم بكل صبر. وبعد ذلك أدهشهم إذ أنجز أمام أعينهم القصة القديمة التي تحكي عن الإله الذي مات وقام، تلك القصة التي لم تعد الآن مجرد حكاية خرافية، بل حقيقة معترف بها. إذ حقد الناس عليه جوراً، وحكم عليه بالموت على يد القادة اليهود، قام هذا الرجل البار الصالح من القبر. لقد أنجز في الواقع كل ما كان الآباء يتصورونه في مخيلتهم. كما كانوا متيقنين بأن التضحية

بحياته البرينة لم تكن مجرد حركة تقوى لا جدوى منها، إذ بموته حمل في جسده الحكم الإلهي على خطية العالم، وحرر سكانه من عقوبة الموت وجهم التي كانت تهددهم. وبعد ذلك سبقهم إلى مملكة السماء حيث الحياة الأبدية. وكان اسم هذا الشخص الفريد الجليل: "الرب يسوع المسيح". لقد كانوا يدعون سامعيهم قائلين: "آمنوا به تتغيروا جذرياً وتجذروا وتحكمته العجيبة ونقاوته الروحية في قلوبكم، وستشتركون في نصرته على الموت وتدخلون خلوده الأجدد.

كان لهذه الأحداث الهامة صدى عميق في إيقاظ الاهتمام الواسع لسكان المدن الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط وساحل إفريقيا الشمالية. ولكن، ماذا عن أولئك الذين يعيشون في المناطق الداخلية، والذين لا يعرفون شيئاً عن هذا البحث الفلسفي المتعلق بالخلود وبالحياة الأبدية، ولا عن المثل الأخلاقية للمفكرين الإغريق، أولئك الناس البسطاء الذين ظلوا تحت عبودية الأرواح التي كانت تحتل الصخور والينابيع الموجودة حولهم؟ فماذا تعني أخبار الإنجيل لمثل هؤلاء الذين يعيشون في القرى والأرياف؟

إن الرسالة التي حملها إليهم المسيحيون الأوائل، كانت حسب اعتقادنا، الأكثر تأثيراً وتشويقاً. لقد أعلن الزوار الذين جاءوا إلى المنطقة أنهم قابلوا المنقذ الكامل القدرة، الذي أرسله الله الواحد السامي، صانع الأرض والسموات وكل الأشياء التي ترى والتي لا ترى. وقد بين هذا الشخص السماوي قدرته الكاملة التي تتحكم في الرياح العاتية والأمواج الصاخبة، والأمراض والأسقام والموت. لقد كانت تفر من أمامه أكثر الأرواح النجسة جنوناً، كما كانت سلطته على قوى الظلمة مطلقة. كانت

تلتف حوله الجماعات وتصرخ فرحة كلما حررها من قيود الجسد والنفس. ولكن بعد ذلك بدا وكأن قوى الشيطان قد قامت أمامه وأخذته وضربت جسده وعلقتة على خشبة تحت أشعة الشمس ليموت. فوضع في قبر يشبه دهليزاً داخل تل صخري، ودحرج حجر كبير على المدخل لإغلاقه. إلا أن القوى الشريرة لم تستطع أن تسكت هذا الشخص. فبعد ثلاثة أيام، قام من الموت، وخرج من الكهف، وراه مئات من الناس حياً قبل صعوده بجلال ملوكي إلى السماء الزرقاء فوق مدينتهم.

ماذا يعني كل هذا؟ إنه يعني تحرراً مجيداً رائعاً من عبودية قوى الظلام، ويعني أيضاً أن السلام أصبح الآن متوافراً للتواقين إليه. ففي حياته، حرر المسيح الناس من الأمراض والخوف وتأثير الأرواح الشريرة؛ وفي موته، حمل المسيح آلام العالم الفاسد والمنهار؛ وبقيامته سحق قوى الشر وهزمها إلى الأبد. والآن، راح هؤلاء المسافرين الشجعان يصرحون بأن هذا المنقذ العظيم هو حي، وروحه النقية القوية لا تسكن الصخور، أو الكهوف، ولكنها تسكن فينا نحن المؤمنين به. وأضافوا أنه إذا ما دعوتوه طالبين إنقاذه وخلصه، وواضعين ثقتكم الكاملة به، تستطيعون أن تجدوا ملاذاً أكيداً لكم، وتضمنوا حماية كاملة في اهتمامه ورعايته المحبة لكم جميعاً. وفوق كل هذا وذاك، لا داعٍ للخوف فيما بعد من الأرواح الشريرة، ذلك لأن الروح الأكبر هو صالح صلاحاً كاملاً وقدوس قداسة كاملة. وكل من يؤمن به، يجد أمامه حياة جديدة مفعمة بالرجاء والسلام والحرية. كانت هذه هي الرسالة التي جاءوا بها.

حواشي الفصل

١- اقتبسها p. ٢٠٠ Camps

٢-(أعمال ١٧ : ٢٣)

٣- ٢٥٥ - ٢٠٢ Laoust pp.

٤- ١٨٠ - ١٧٩ Moscati pp.

٥- ٤٤ - ٤٣ Akhmisse pp.

٦- يقدم لنا Camps.Hart و Coon بحثاً أشمل في الديانات الشعبية الحديثة

في إفريقيا الشمالية. كذلك يعالج Camps أيضاً بشيء من التفصيل عدة أوجه من الوثنية القديمة في إفريقيا الشمالية.

أما ٤٦٨ - ٤٦٥ Servier pp. فيذكر معتقدات تقليدية مماثلة في أوروبا

الجنوبية مؤكداً بذلك أن نظاماً دينياً متجانساً هو الذي كان سائداً في القديم في بلدان

البحر الأبيض المتوسط. راجع أيضاً: Rachik; Akmisse; Laoust; ed.

arbres ، animisme. *Encyclopédie Berbère* (amulettes.Camps sacrés etc.)

٧- ٢١٥ Frennd pp. ٧٧ - ٧٩; Camps p.

٨- درجت العادة أن يخاطب الأمازيغيون الله إذ يدعونه "ربي" (Rebbi)،

لكن أصل هذه التسمية يبقى غير واضح. وبما أن المسلمين العرب يشيرون عادة إلى الله

بالعبارة "الله" قد يقود ذلك أحداً إلى الاعتقاد أن التسمية "ربي" تعود إلى ما قبل

الإسلام. كما أنه من الممكن جداً أن تكون قد نتجت من تأثير يهودي قديم. بالمقابل،

إن الكلمة العبرانية "رابي" تعني "سيدي"؛ إلا أن الكتاب المقدس يستخدم هذه الكلمة دائماً بالإشارة إلى الناس، لا إلى الله. وعليه، قد نحتاج أن نبحت عن أصل "ربي" في تلك اللغة السامية الأخرى البونية (Puniqu)، أو إلى عوامل لغوية سامية أقدم، أثرت في تطوير اللغة الأمازيغية نفسها. وهكذا فإن التسمية "رب" بمعنى سيد، المستخدمة من وقت إلى آخر في القرآن، قد تعني بالنسبة إلى الأمازيغيين أكثر من الكلمة المستحدثة "الله"، الأمر الذي دفعهم إلى تسمية الله بشكل عام "ربي".

٦ - ٩. Norris p. "يقترح G. Marcy أن "ياكوش" قد يكون مشتقاً من اسم يسوع". (*Encyclopédie Berbère* p. ٤٣١ f). لكن هذا الأمر يبدو قليل الاحتمال إلى حد ما. ومن الممكن أيضاً أن يكون "ياكوش" مشتقاً من فعل في اللغة الأمازيغية بمعنى "يعطي". وعلى هذا الأساس، يعرف الله بأنه "المعطي". ومن الصيغ الأخرى لهذا الاسم نذكر: "يوش"، "أيوش"، أو "أغوش" (Aggouch).
 ٦٣. (Ouahmi Ould Brahim; Aherdan p.٦٣)

في القرن التاسع عشر، كان التوارك (Touareg) ساكني الصحراء، يدعون الله "أماناي" أو "أمناي مقارن"، وأحياناً "مسي" (Norris p. ٢٢٨). إلا أن هذه الكلمات كانت مشتقة على الأرجح من جذور لاتينية وعبرانية (مسي = المسيا = المسيح).

١٠ - Custance ، ٥٠، Richardson pp. ٣٤؛ DP. ٥١،

"وبالعودة إلى أقدم الشعوب - البغميون في إفريقيا، أو هنود كاليفورنيا الوسطى - لقد كان عندهم جميعهم إله واحد، "إله السماء الأسمى"، كانوا يأتون بتقدماتهم

أمامه". (Schmidt، اقتبسها ٢١ p. Custance) "كلما كان من الممكن تعقب المراحل الأولى للاعتقاد بتعدد الآلهة، نجد أنه ينتج من ضم عدة معتقدات توحيدية بعضها إلى بعض. ففي مصر، حتى أوزيريس (Osiris)، وإيزيس (Isis)، وهورس (Horus)، التي طالما اشتهرت كمجموعة ثلاثية، كان لها في البداية وجود كوحدة منفصلة في أماكن مختلفة: إيزيس كالإلهة عذراء، وهورس كإله موجود بحمد ذاته". (Petrie، اقتبسها ١٠ p. Custance).

١١ - ١١١ - ٩٤ Frend pp. "لا يمكن قهر الأرواح الشريرة إلا بواسطة معرفة سرية يحصل عليها الناس من منقذ برهن أنه أقوى من الموت. إن مفتاح الخلود كما هو معروف ... في المسيحية، تمسك به بثبات العديدون من الذين كانوا يشعرون بأن مخاطر شيطانية، لا سلطة لهم عليها، كانت تقلق حيواتهم". (Frend ٩٥ - ٩٤ pp.). إن موضوع عبادة الأوثان في عهد الرومان، يتناوله كل من: Bainton pp. ٧١ - ١١٢ ; Foakes - Jackson pp. ١٨٠ - ١٩٧ ; Green pp. ١٣٤ - ١٩٩.

الفصل الرابع الأخبار المسارة

كان التجار القادمون من الشرق، يمرون عموماً على موانئ شمالي إفريقيا خلال مراحل أسفارهم البحرية الطويلة، وهم متجهون إلى الغرب نزولاً، بمحاذاة حوض البحر الأبيض المتوسط. وغالباً ما تكون مراكب الشحن محملة بالبضائع التجارية المستوردة من قبرص وأورشليم ودمشق والإسكندرية، فضلاً عن نقل عدد كبير من الركاب المسافرين. وقد حدثنا سفر أعمال الرسل، أحد أسفار الكتاب المقدس، عن ذلك لدى ذكره رحلات بولس الرسول التبشيرية. ولم يكن المسافرون من التجار فحسب، بل من المستولين الرومان الرسميين وإداريهم أيضاً. والسبب في وجود هؤلاء الرسميين في سفن الشحن هو أن المرور عبر هذه المعابر الضيقة، من عاصمة الإمبراطورية إلى مدينة قرطاجنة، لا يستغرق أكثر من ثلاثة أيام.

ويعود تاريخ هذه الطرق التجارية البحرية إلى زمن الفينيقيين. وخلال القرنين الأول والثاني للميلاد، كانت هذه الطرق معروفة وكثيرة الاستعمال. كان ساحل إفريقيا الشمالية المأهول بأجناس متعددة من البشر واسعاً، وكان في مقدور المسافرين أن ينتقلوا بسهولة ويسر. وهذا ما شجع مسيحيي فلسطين وجنوب أوروبا على أن يطلبوا الإرشاد الإلهي، وهم متحمسون لإيمانهم الجديد، ومتحرقون شوقاً لمشاركته مع هؤلاء الأجناس.

والواقع أن عدداً من الأفارقة الشماليين كانوا هم أيضاً قد وجدوا هذا الطريق المبهج السعيد. فبعض الليبيين الذين تمودوا، وكذلك بعض المستوطنين اليهود في ليبيا،

كانوا حاضرين يوم الخمسين في بداية تأسيس الكنيسة المسيحية، ووقفوا مع الحشد الذي كان يستمع إلى بطرس الرسول وهو يبشر الناس ببشارة الخلاص للمرة الأولى. وما لاشك فيه أن بعض الأفارقة الشماليين كانوا في عداد الثلاثة الآلاف الذين آمنوا بالمسيح في تلك الأيام (١).

وحتى قبل هذا التاريخ، كنا نلتقي سمعان الذي قدم من كوريني، وهو مرفأ بليبياء، قرب المدينة المعروفة اليم بينغازي، وهو الذي حمل صليب المسيح. ومن المرجح أنه صار من المؤمنين، إذ إن ولديه ألكسندرس وروفس أصبحا فيما بعد معروفين بين الأصحاب الذين كتب لهم مرقس الإنجيل (٢).

لقد التقى بعض الكورنيين من "مجمع الليبرتيين" استفانوس، وذلك بعد صلب المسيح ببضعة أسابيع فكان هذا اللقاء من اللقاءات البارزة، ذلك لأنهم "لم يقدرُوا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلم به" (٣). وبعد أيام قليلة سمعوا استفانوس يشرح بقوة كتابات العهد القديم، كما عاينوا استشهاده. هذا مع العلم أنه كان ممن بينهم شاب يدعى شاول الطرسوسي. وبعد فترة وجيزة، نقرأ مرة أخرى، عن أناس من كوريني وقبرص آمنوا بالمسيح. وهم لم يكتفوا بصيرورهم مسيحيين مؤمنين، بل انطلقوا للتبشير بإنجيل المسيح بين الأمم، لا بين اليهود فقط. كما ذهبوا إلى "مدينة إنطاكية وتحذثوا هناك مع اليونانيين وبشروهم بالرب يسوع المسيح" (٤). كانت كوريني مدينة هؤلاء القوم، مرفأً نشطاً ومزدهراً، يلتقي فيه اليهود والفينيقيون والأمازيغيون في بوتقة واحدة، إلى جانب العديد من زوار منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط. بما أن بواكير المؤمنين الأفارقة كانوا يحتلطون مع أناس من خلفيات مختلفة، فإن هذا ساعدهم كثيراً،

ولاشك، في تعاطفهم مع كل من كان يقيم بين ظهرانيهم. وكانوا أول من أوصل رسالة الخلاص إلى أمم تختلف عن أمتهم. وقد وجدت مقابر المسيحيين الأولين في كوريني بين مقابر الجماعات اليهودية؛ وهذه شهادة أكيدة على أن هؤلاء المؤمنين اللبيين، عادوا إلى إفريقيا الشمالية من أورشليم، حاملين معهم إيمانهم الجديد (٥).

في هذه الأثناء، كانت رسالة الخلاص في المسيح تنتشر في كل الاتجاهات. وقد ذكر تروتيانوس، وهو أحد الكتاب المسيحيين، عن اتصالات قديمة كانت بين الأفارقة ومسيحيي روما (٦). وعليه، فمن المرجح أن الأخبار السارة قد سافرت إلى كل من الاتجاه الغربي، من فلسطين والإسكندرية، والاتجاه الجنوبي، من إيطاليا، وربما وصلت إلى كل الموانئ الرئيسية في إفريقيا، والتي تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وذلك في مدة الخمسين سنة بعد موت المسيح وقيامته.

فاللبيون الذين جاءوا بهذه الأخبار السارة عن يوم الخمسين، لحقت بهم فيما بعد جماعات من المؤمنين، كانوا قد تخلفوا في أورشليم لبعض الوقت، مستفيدين من ملازمة الرسل وغيرهم من المسيحيين. "وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات ... وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة" (٧). وبسبب الضيق الذي حصل بعيد استشهاده استفانوس، فقد تشتت معظم هؤلاء المؤمنين من رجال ونساء، وعادوا بالطبع إلى وطنهم إفريقيا. وبوصوفهم، وصات معهم أخبار مذهلة عن اختبارات الإيمان المسيحي في أورشليم: فمن إيمان العديده بيسوع المسيح، إلى حادثة إطلاق بطرس الرسول من سجنه بواسطة الملاك، إلى حادثة حنانيا وامراته سفيرة الذين لقيتا حتفهما بسبب ما صدر عنهما من افتراء، إلى حوادث شفاء

المرضى الرائعة على أيدي الرسل، ثم شهادة استفانوس البطولية، واهتداء شاول إلى المسيحية، ذاك الذي كان ألد أعداء الإيمان المسيحي.

وبعد فترة وجيزة، وصلت أخبار إلى الساحل الليبي عن زيارة بطرس لقائد المئة الروماني، وكيف آمن جميع أهل الأمم الذين كانوا في بيته، وقبلوا خلاص الرب وعطية الروح القدس، تماماً كما أعطيت لليهود. وقد استمع أهل الأمم، من رومان وأمازيغيين، إلى هذه الأخبار بشوق واهتمام كبيرين. كما ارتاحوا كثيراً للترحيب الكبير الذي أبداه الرسل وشيوخ الكنيسة في أورشليم بالرجال والنساء أمثالهم في كنيسة المسيح.

كانت حيوية وحماسة هؤلاء المؤمنين الأوائل مؤثرة إلى أقصى الحدود. فقد ذكر لنا المؤرخ الشهير يوسابيوس، الذي من قيصرية - فلسطين (Eusèbe de Césarée) (٢٦٣ - ٣٣٩ م)، ذكر عن القرن الثاني للميلاد يقول: "التهيت قلوب المؤمنين المسيحيين بكلمة الله المقدسة، وزاد اشتياقهم ليكونوا أكثر نضجاً وكمالاً في الإيمان. وكانت أولى نشاطاتهم في طاعة الرب المخلص، أنهم باعوا كل ما يملكون ووزعوا على الفقراء والمساكين. وبعد ذلك تركوا بيوتهم لينفروا لأعمال التبشير، وكان همهم نشر كلمة الخلاص بين أولئك الذين لم تصلهم هذه الكلمة بعد، وأن يودعهم أيضاً كتب الإنجيل المقدس. وقد اكتفوا ببساطة أن يرسوا أسس الإيمان بين سكان تلك الدول المتباعدة؛ من ثم قاموا بتعيين رعاة آخرين وأكلوا إليهم مسؤولية تعزيز الذين قبلوا الإيمان حديثاً. هذا، وقد مروا بالبلدان والشعوب الأخرى سائرين بنعمة الرب وعونه" (٨).

وباستطاعتنا تصور أولئك الرجال والنساء الشجعان الذين كانت قلوبهم مملوءة بالأمل والرجاء وهم يطئون بأقدامهم سواحل إفريقيا. لقد وقف هؤلاء على الأراضي التي توازي أرصفة الساحل، وراحوا يمدقون إلى مباني المدينة القليلة الارتفاع وهي تتلأأ تحت أشعة الشمس الصباحية، ثم تساءلوا حين رأوا الدور الواقعة فوقهم: ترى؟ أي من هذه البيوت سيشتر فيها الكلمة ويكون لنا فيها أخوة وأخوات بالرب؟ أو أي من هذه البيوت سيختاره الرب ليكون بيتاً مباركاً نستظل تحته ونستمتع بالشركة الروحية مع مؤمنين جدد ونصلي بين جدرانها؟ ولقد أتى هؤلاء المسافرون المسيحيون الأوائل، ليس فقط باختباراتهم الشخصية عن حياة الرسل وتعليمهم وعن المسيح يسوع نفسه، بل أحضروا أيضاً نسخاً نادرة وقيمة لبعض أسفار الكتاب المقدس التي نقلوها بأنفسهم عن النسخ الأصلية التي كانت في اورشليم أو مدن أخرى. وبات من المؤكد أن هذه المخطوطات التي جاءوا بها، كان معظمها مكتوباً باللغة اليونانية، وهي اللغة المستخدمة لتدوين أولى الكتابات المسيحية في إفريقيا الشمالية (٩).

ولربما اتبعوا أسلوب الرسول بولس في توجيههم إلى المجموعات اليهودية أولاً. فاليهود الذين سكنوا شمالي إفريقيا كانوا يعرفون الله الذي خلق كل شيء، كما كانوا ينتظرون "المسيا" الحقيقي الذي وعدوا به مخلصاً. وكان أغلب ظنهم أنهم سيجدون بين هذه العائلات اليهودية قلوباً مستعدة لقبول المسيح المخلص الذي طال انتظارهم له. وكما علمنا، فإن بعض اليهود آمنوا بالمسيح في وقت مبكر في شمال إفريقيا. إلا أن بعضهم الآخر لم يؤمنوا. وكما حصل لبولس الرسول، فقد توجهوا عنهم إلى الوثنيين ذوي المبادئ الأخلاقية الجوفاء، وكذلك إلى الذين يعبدون الأصنام الخشبية والحجرية.

لقد اهتم كتاب القرن الأول بالرد على أسئلة اليهود واعتراضاتهم أكثر من اهتمام المدافعين عن الإيمان (Apologistes) في القرنين الثاني والثالث، عندما كان قد أصبح المهتمون إلى المسيحية من الوثنيين أكثر من الذين جاءوا من أصل يهودي.

لم يكن في نية مسيحيي إفريقيا الأوائل أن يتركوا سجلات عن نشاطاتهم، ولا هم أسسوا أبنية متميزة. كما أنه لم يظهر بينهم في ذلك الحين، كتاب عظماء، يدونون مآثرهم وأعمالهم وإيمانهم. وعلى الرغم من ذلك، فإننا نلمس تأثير إيمانهم في الناس الآخرين بشكل فعال، كما تدل النتائج من خلال اتساع الجماعات المسيحية ونضجها العظيم، ولاسيما بعدما كشف النقاب عن هذا الأمر بعد مئة سنة (١٠). وفي الواقع فإن الشواهد التي بين أيدينا لا تدلنا سوى على واحدة من الجماعات المسيحية التي كانت متواجدة في القرن الأول، في إفريقيا، وذلك غرب مصر، وبالتحديد في مدينة كوريني. لكن، بحلول العام ٢٠٠ ميلادية وصلت تقارير تفيد عن إنشاء كنائس مزدهرة في أجزاء عديدة مما ندعوه اليوم تونس والجزائر (١١).

وكم كان الأمر سيبدو رائعاً لو عرفنا تفاصيل أكثر عن المسيحيين الأوائل، أين وصلت إليهم رسالة الإنجيل لأول مرة، وكيف بدأوا ينظمون اجتماعاتهم معاً، وكيف كانوا يعلمون ويشجعون بعضهم بعضاً. ولربما كانوا يجتمعون يوماً فيوماً في بيوتهم ليبحثوا متضمنات هذا الطريق الجديد للحياة، وليقرأوا كل ما يصلهم من الكتابات النادرة لكلام الله، والتي كانت تلف منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط برمتها. على أن وصول أي مسيحي من آسيا الصغرى أو من فلسطين كان يقابل بالفرح العارم والبهجة. وكانت أخبار وصوله تنتشر من دار إلى دار، ومن عائلة إلى أخرى، وكان

المؤمنون يدعون إلى الاجتماع بهذا القادم الجديد من الشرق، فيسألونه عن مدى استيعابه لهذا الإيمان، واختباراته في الكنائس الموجودة في المناطق الأخرى. وغالباً ما كان يُسأل: هل التقى بطرس؟ أو ماذا يقول بولس في هذا الأمر؟ أو ماذا يعني يعقوب بذلك؟ أو هل أن يوحنا لا يزال سجيناً في بطمس؟ ولربما جلب مثل هؤلاء الزوار أجزاء من الكتاب المقدس الذي كان يقرأ على الأخوة المجتمعين، أو كانوا يعلمونهم ترانيم جديدة كانت تترتل في أورشليم أو إنطاكية أو مدن أخرى. ومما لا شك فيه أن هؤلاء الضيوف كانوا يصغون بكل اهتمام وعطف إلى استفسارات أحوقهم، ويقدمون لهم بالتالي النصح والإرشاد ولاسيما في الأمور التي تتعلق بالممارسات اليومية لهذا الإيمان، خصوصاً بين ذويهم.

انتشرت أخبار البشارة السارة عبر السهول الساحلية لشمال إفريقيا كانتشار النار في الهشيم، وبالشكل الذي انتشرت في فلسطين. كان عدد الذين يسمعون الإنجيل يزداد أكثر فأكثر؛ وكانوا يقبلون الكلمة "بابتهاج وبساطة قلب مسبحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب" (١٢).

لقد انتقلت رسالة الخلاص من شخص إلى آخر، ومن جار إلى جار. وبالطبع فقد كانت أخباراً سارة مفادها: إعلان محبة الله للإنسان، بإثبات وبراهين مقنعة، ومن دون التزامات سياسية أو تجارية. لقد جعلت الناس أحراراً. وجلبت لهم في الواقع حرية لم يعرفوها من قبل أبداً: الانعتاق من الأساطير الكاذبة، والخلاص من الأخلاق المتفسخة المنحلة، والتحرر من الأرواح المحلية التزوية الدينية. ولقد تمكنا من رفع رؤوسهم عالياً بشجاعة واعتداد بالنفس وإيمان، وهم بفخرون بانتمائهم إلى عضوية المجموعة الجديدة

المتنامية التي تبني كيانها على مفاهيم رائعة من مبادئ الحبة والثقة والتراثة. "لقد فتحت الأبواب المغلقة، وانبعث النور مشرقاً في الظلمة" (١٣). هذا ما كتبه كبريانوس (Cyprien) الذي كان قد ولد في بيت وثني في قرطاجة في حدود سنة ٢٠٠ بعد الميلاد، ومات بعد مرور نصف قرن. وهو أحد أشهر المسيحيين في كل العصور والأوقات.

تميل تعاليم المسيح إلى توحيد الناس على أساس مبادئ المساواة التي لا تعرف الخباة. فليس هناك من هو أفضل أو أكثر قدراً من الآخر. فالجميع قد خلقوا من إله واحد، وجميعهم سيحاسبون على أساس المعايير نفسها. فكل من أصبح على طريق الحياة الأبدية هو محبوب في عيني الرب، ومرحب به في شعبه. ولا بد من أن تكون المساواة التي جاءت بها المسيحية قد صدمت الكثير من الرجال والنساء وجذبهم إليها. فمهما كانت خلفيات المؤمن متواضعة، ومهما كان محتقراً منبوذاً، سواء في السوق أو المدرسة، فله الحق في أن يأخذ مكانه اللائق كابن من أبناء الله في اجتماعات الكنيسة المحلية، فيقف هناك جنباً إلى جنب مع أغنى الناس وأرفعهم قدراً على هذه الأرض. كما يستطيع هذا الإنسان أن يتخطى هؤلاء جميعاً، ويربح تقدير الكنيسة واحترامها بنوعية حياته المقدسة وثبات شهادته في ساعة التجربة، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه في حياة المجتمع. المؤمنون كسيدهم، لا ينظرون إلى المظهر كما يفعل الإنسان، "لأن الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب" (١٤). فالمسيحية بحق، جلبت الشرف والكرامة والثقة في النفس، إلى الكثيرين الذين من دونها، كانوا سيتخبطون،

متشوقين لعيش حياة آمنة في هذا العالم. كان هذا الإيمان الفعال والجذاب، هو الذي اكتسح شمال إفريقيا بفرح عظيم.

لقد كان عمل هذه الجماعات المسيحية فعالاً حتى إن بشارة الإنجيل قد عرفت وقبلت في كل المدن الساحلية بشمال إفريقيا، بعد جيلين أو ثلاثة تقريباً من وصولها للمرة الأولى. لقد انتشر عمل التبشير بالإنجيل وتوسع بنشاط وإقدام، وبفترة لا تزيد على مئة وخمسين عاماً، أصبحت كنيسة قرطاجنة وكنيسة كوريني وكنائس أخرى في شمال إفريقيا، كأنتاكية وأفسس وفيلبي ذات مكانة مرموقة، تسير جنباً إلى جنب، مع أعظم المراكز المسيحية الأولى التي يتحدث عنها سفر أعمال الرسل.

وفي العام ١٩٨ بعد الميلاد عندما خاطب ترتوليانوس حكام روما دفاعاً عن المسيحية، ذكر أن الكنائس المحلية كانت تجتمع بانتظام من أجل العبادة والتعليم. فقد أقرت الكنائس تعيين قادة لها، وقدمت الدعم والمساعدة للأرامل والأيتام. وكانت لهم مدافعهم الخاصة، وأماكن عبادة خاصة كذلك. ولم يكن المسيحيون، بأي شكل من الأشكال، مغمورين، ولا كانوا أقلية تافهة مهملة. قال ترتوليانوس: "بدأنا بالأمس فقط، ومع ذلك فقد ملأنا كل الأماكن الخاصة بكم: المدن والجزر والقلاع والقرى والأسواق وحتى مخيماتكم العسكرية وكذلك قصر الإمبراطور والجلس الأعلى والساحات العامة." (١٥) ولم تمض إلا خمس عشرة سنة من هذا الوقت بالذات، حتى كان نمو الكنيسة العمومية قد ازداد أكثر، الأمر الذي دفع ترتوليانوس إلى التصريح بالقول: "نحن جماهير كبيرة، ونشكل الأكثرية تقريباً في كل مدينة." (١٦)

دخلت البشارة خلال وقت قصير كل طبقات المجتمع، وشمل تأثيرها كل مجالات الحياة. وقد عقد مؤتمر في العام ٢٥٦ ميلادية في قرطاجة، حضره ممثلون عن خمسين كنيسة محلية من مقاطعة أفريقيا البروقنصلية، هذا فضلاً عن عشرين ممثلاً من مقاطعة نوميديا. ولم تمض سوى خمسين سنة أخرى حتى كبر هذا العدد وازداد كثيراً. وقد بينت التقارير أن المسيحيين كانوا يشكلون أغلبية السكان في منطقة أفريقيا البروقنصلية، ما عدا شبه جزيرة رأس بون بالقرب من تونس المدينة. وكانت المجموعات المسيحية تنمو وتزدهر كذلك في شمال المغرب بالقرب من طنجة، وفي أماكن كثيرة على امتداد الساحل الليبي إلى الشرق. وهذا النمو الهائل والمتسارع، يشهد على قوة الإنجيل وعلى الطاقة الكبيرة التي كان يمتلكها حاملو الرسالة. فالحقول قد ابيضت للحصاد، والحصادون اندفعوا إلى العمل من دون كلل أو ملل. (١٧)

لقد تسلقت الكرمة المسيحية بسرعة على خيمة الحضارة الرومانية. لقد انطلقت أغصانها واخترقت القبائل داخل أفريقيا الشمالية الأمازيغية. استفادت المسيحية، ولا شك، من السلام الذي ساد جميع الأجناس الخاضعة للسيطرة الرومانية، وقد عرفت هذه الوضعية تاريخياً بالباكس رومانا (Pax Romana). كانت تلك الفترة فترة سلام واستقرار سياسي، ونمو وازدهار اقتصادي ناتج من الحكم الروماني. وكانت منطقة شمال أفريقيا في ذلك الوقت مزدهرة. ونادراً ما كان ينالها أي تخريب أو تدمير بسبب الحروب المحلية كتلك التي كانت مشتتة في جنوبي أوروبا. وقد أصبح الآن بإمكان المسافرين إلى جميع المناطق، أن ينتقلوا بأمان وسلام نسبيين، وكانوا يجدون الوسائل لدعم حياتهم وإعالة أنفسهم بسهولة ويسر. كان الأهالي المحليون منفتحين جداً

على تقبل الأفكار الجديدة، ولم يكونوا يريزون تحت طائلة الفقر المدقع، كما كانوا بعيدين عن الصراعات والمنازعات والحقد، الأمر الذي وفرّ عليهم هموم القلق المستمر وانشغال البال. وعلى الرغم من أن الحكومة الرومانية لم تكن قد وافقت بعدُ على الدعوة إلى المسيحية والتبشير بالإنجيل، إلا أنه كان يمكن لكل إنسان أن يخضع على الأقل، لحاكمة عادلة. وكانت تمنع تعرض المسيحيين للعنف الجماعي والاضطراب الناشئين بسبب دعوتهم هذه.

ولكن، مع أن هذا السلام الذي كان يسود جميع الأجناس الخاضعة للسيطرة الرومانية في حدود إمبراطوريتها، قد ساعد كثيراً في نشر تعاليم المسيح، إلا أن المبشرين لم يتقيدوا بهذه الحدود بأي شكل، فانتشروا إلى مسافات تبعد كثيراً عن حدود هذه الإمبراطورية. فالأبطال من المسيحيين والمسيحيات، لم يعتمدوا على حماية حكومة الإمبراطورية، بل اتكلوا على الله الحي، ولم يكونوا خدام الحضارة بل خدام المسيح، كما أنهم لم يكونوا يحملون السلاح ولا البضائع في ترحالهم وتجوّاهم، إنما حملوا الأخبار السارة والبشارة المفرحة التي تظهر حب الله للإنسان. فتوغلت عملية التبشير بالإنجيل إلى بلدان ابعده بكثير من حدود السيطرة الرومانية. وهكذا تحدث تروتوليانوس بحماسة عن اهتمام عدد كبير من الناس "بين صفوف قبائل الجيتولين الامازيغية (Getules) والمقاطعات الفسيحة الواسعة للموريين، التي تعذر على الرومان بلوغها، ولكنها خضعت للمسيح" (١٨) أما أطلال الكنائس فقد وجدت في قرى صغيرة نائية حتى أنها لم تُسجّل في المستندات الرومانية. (١٩) وقد رفعت النقوش على قبور الأموات من المزارعين المسيحيين والأمراء المسيحيين، وكتبت الكلمات القصيرة لإحياء ذكراهم وذلك في

أماكن بعيدة عن حدود الإدارة الرومانية. إن محبة الله لا تُقيّد بقيود بشرية، فهؤلاء المؤمنون الممثلون من حبه تعالى، نقلوا هذا الحب إلى أقصى المعمورة.

حواشي الفصل

١. (أعمال ٢: ١٠)
٢. (مرقس ١٥: ٢١) ؛ (رومية ١٦: ١٣). يجب التمييز بين كوريني بلييا حالياً، التي تسمى في بعض الكتابات بالقبروان، وبين القاعدة التي أسسها المسلمون لاحقاً بالقرب من سوسة بتونس.
٣. (أعمال ٦: ٩ و١٠)
٤. (أعمال ١١: ٢٠)
٥. **Latourette Vol. II pp.٩٧ ff. Neill p.٣٧**
٦. ***De Praescriptione Haereticorum* ٣٦**
٧. (أعمال ٢: ٤٢، ٤٦)
٨. **٣٧:٢-٣ (NAPNF Series ، Historia Eccles. III**
٩. **Vol. I)، ٢**
٩. **Latourette Vol.Ip.٩٢**

ليس هناك أي احتمال يقيني حول ما قيل عن سمعان القانوني، وهو احد رسل المسيح الإثني عشر، انه قام بالتبشير في أماكن مختلفة من شمال أفريقيا. ولا توجد وثائق تذكر هذه الزيارة إلا في القرن التاسع في اسطنبول. بالإضافة إلى وثيقة أخرى مجهولة المصدر تنسب إلى ناظر كنيسة في فلسطين في القرن الرابع. إلا

أن ما يفنّد عدم صحة هذه الرحلة، هو أن هذه الكتابات أتت من خارج شمال أفريقيا، كما انه لم يرد ذكرها إلاّ بعد سماعان بعدة قرون.

ولو انه فعلاً بشرّ في شمال أفريقيا، يكون من المستحيل ألاّ يأتي على ذكره الكتاب المسيحيون الأوائل الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث، أمثال تروتوليانوس. هذا على اعتبار أن هؤلاء الكتاب كانوا قد ناقشوا مصدر كنائسهم.

١٠- بعد العصر الرسولي، كان شهداء سكيليم المذكورين في الفصل التاسع، أول المسيحيين الأفارقة الذين تم تدوين أسماءهم في السجلات التاريخية. كذلك تذكر سجلات أخرى أيضاً اسم فيكتور الذي ولد في أفريقيا البروقنصلية وخدم كناظر لكنيسة روما على مدى ثلاث عشرة سنة (١٨٥-١٩٨ م). لقد اشتهر فيكتور هذا بشكل خاص في إصراره على أن يتم الاحتفال بذكرى القيامة في يوم أحد كل سنة، وذلك بمعزل عن التاريخ الذي يصادف فيه وقوع هذا اليوم. وهكذا أصبح هذا الترتيب مألوفاً ومعمولاً به في الكنائس في كل أنحاء العالم. لكننا لا نعلم من أية مدينة كان فيكتور، ولا كيف أصبح مسيحياً، ولا أية علاقات تربطه بكنائس وطنه.

١١- كانت كنائس القرن الثاني موجودة في قرطاجنة (تونس)، وفي سيبثيفيس (سطيف، الجزائر)، لامبايسيس (تازولت، الجزائر)، ماداورا (مداوروش، الجزائر)، أمّاء، ثوبرومينس وثيسدروس (وجميعها في تونس) ولبتيس ماغنا (ليبيا). (Cooley p. ٢٩).

١٢- (أعمال ٢: ٤٦ و٤٧).

١٣- *Ad donatum* ٤

١٤- (صموئيل ١٦: ٧).

***Apologeticus* ٣٧-١٥**

***Ad Scapulam* ٢-١٦**

١٧- بالإشارة إلى (يوحنا ٤ : ٣٥).

***Adversus judaeos* ٧-١٨**

Camps p. ١٥٧-١٩

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص الكرازة في القرون الأولى، في

أفريقيا الشمالية، يمكن الرجوع إلى المصادر الثانوية التالية:

Neill pp. ٣٧ - ٤٢

Frend pp. ٩٤ - ١١١; Cooley pp. ٢٨-٣٠; Latourette

١١٢، vol. I pp. ٩٢-٣

الجزء الثاني

عصر ترويليانوس

(أواخر القرن الثاني- أوائل القرن الثالث)

الفصل الخامس أسلوب الحياة الفاضلة

"الكنيسة المسيحية فريدة في نوعها. فهي أقدم من أية منظمة أو مجموعة منظمات موجودة الآن على كوكبنا. ولم تتمكن أي ديانة أخرى من تكوين مؤسسة نظيرها. فالديانة اليهودية التي لها فضل كبير على المسيحية طورت جماعة انتشرت كالكنيسة المسيحية، في كل أنحاء العالم. ومع ذلك فبنية الديانة اليهودية هي بنية عنصرية بقدر ما هي دينية. أما الديانة المسيحية، فتختلف عن اليهودية بكونها مزيجاً من أجناس مختلفة لا يربط بينها رابط الدم أو العرق." (١) هذا القول هو للمؤرخ لاتوريت.

لكن، ما هو إذاً الرباط الذي يوحد بين هؤلاء الناس المتعددي الأجناس؟ هل هو حقاً خضوعهم لقوانين السلطة الكنسية وأحكامها؟ أم هل هو رباط غير منظور؟ فما هي حقيقة الكنيسة في الواقع؟ وهل هي اليوم كما كانت عليه في ما مضى؟ أو هل حققت شيئاً ما بمرور الزمن؟ هل خسرت شيئاً؟ هل الكنيسة هي تنظيم معين، أم هل هي ببساطة فكرة مثالية؟

يتحدث المؤرخ لاتوريت عن المبادئ العظيمة التي أوجتها الديانة المسيحية في أيامها الأولى: "من بدايتها تبتت هدفاً، يبدو أنها أخذته مباشرة من مثالها الأعظم يسوع المسيح نفسه، وهو مثال الراعي." وقد انتدب أتباع المسيح أنفسهم "للاهتمام بالأفراد

عن طريق التضحية والحبّة في سبيل ربح النفوس لما تراه المسيحية انه الحياة الأسمى، ومساعدتهم في النمو على هذا الأساس." (٢)

فالكنييسة الأولى في أورشليم، كما يعلمنا سفر أعمال الرسل، كانت جماعة تقوم بهذه الخدمة. وكعائلة كبيرة، احتضنت أناساً من مختلف الاعمار، يعرفون ويعجبون ويساعدون بعضهم بعضاً في السراء والضراء. وكانوا كل يوم يجتمعون في الهيكل، ويأكلون سووية في بيوتهم، بفرح وسرور، وقلوب كريمة معطاء، وهم يعلمون ويشجعون بعضهم بعضاً، ويصلون سووية، ويشكرون الله على بركاته الواضحة التي منحها لهم. (٣) وكانوا يرحبون ترحيباً حاراً بكل من اتبع سيدهم الرب يسوع المسيح. ولربما بسبب سمو معاييرهم، أو ربما بسبب العجائب والمعجزات التي صنعت في وسطهم، وقع رعبهم على كل الذين في هذه المدينة، حتى أن أحداً لم يجرؤ على الاختلاط بهم: "أما الآخرون فلم يكن احد منهم يجسر أن يلتصق بهم. لكن الشعب يعظمهم. وكان مؤمنون ينضمون للرب أكثر. جماهير من رجال ونساء." (٤)

وعليه، فقد اضطر هؤلاء المسيحيين المؤمنين المتحدين إلى أن ينقلوا هذه الأخبار السارة إلى اليهودية والسامرة، وخلال بضع سنوات إلى أقاصي الأرض. (٥) وقد قبلت معظم هذه الأصقاع البعيدة رسالتهم بفرح. ونتيجة لذلك، فقد تكونت جماعات مسيحية جديدة، على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وفي أوروبا وآسيا الصغرى وحتى إلى المناطق الأبعد من ذلك. وكانوا يجتمعون معاً، ليعلموا بعضهم، وليشجع احدهم الآخر، كما فعلت الكنييسة الأولى في أورشليم.

لقد كانت كل جماعة من المؤمنين تتسم بقدر عال من الوحدة. إلا أن وحدة هذه الجماعات ككل كانت مسألة نظرية أكثر من كونها أمراً عملياً، ذلك أنهم كانوا مبعثرين في مناطق بعيدة بعضها عن بعض بشكل لا يسمح بالاتصال الكثير بينهم. ولكن، شيئاً فشيئاً أخذت روابط هذه الجماعات تتصل من مدينة إلى مدينة، حتى اشتدت اشتداداً وثيقاً وقويت. فهم عاشوا في البيئة نفسها، وجابهوا المشاكل والفرص عينها. وفي الوقت الذي كانوا يلاحقون أعمالهم التجارية والمهنية من مكان إلى آخر، كان من الطبيعي أن يتطارحوا الكلام عن الأمور ذات الاهتمام المشترك. وأكثر ما كان يواجههم من تحديات هو كيف يعيشون للمسيح بكل أمانة وإخلاص وسط عالم وثني فاسد، وكيف يتجنبون مغريات ورذائل الحياة المدنية الوثنية، وكيف يستطيعون أن يربحوا نفوس أصحابهم وجيرانهم لطريق الحق.

عاش المسيحيون مع الوثنيين، وسكنوا معهم في أفريقيا الشمالية جنباً إلى جنب، وكان قربهم كما هو عليه الحال في آسيا وأوروبا. وكثيراً ما وجدت أمكنة اجتماعات المسيحيين الحجرية في المدن إلى جانب مزارات الإله ميثرا (Mithra)، أو قبالة المعابد الوثنية. وفي الأرياف، قد نجد القبور الحجرية المسيحية، في الأماكن المخصصة للأرواح. كذلك فإن بيوت المسيحيين كانت موزعة بين بيوت جيرانهم الوثنيين، ولم يفكر هؤلاء قط في الانعزال، وإقامة أحياء خاصة بهم.

لم تتميز الجماعات المسيحية عن المجتمع الوثني بمواقعها الطبيعية أو المادية، ولكنها تميزت عنها بطبيعة وأسلوب الحياة التي تحياها. كان جل اهتمامهم أن يكونوا المصباح المنير والأمل الزاهي لكل أهل المدينة، والملح الجيد الذي يُملح به. لقد شقوا

طريقهم مع جيرانهم الوثنيين بمجد وأناة، وتعاملوا معهم بصدق وإخلاص، وسعوا ليتجنبوا كل ما من شأنه أن يسبب المواجهة معهم. كما سعوا بكل جدية لتطبيق الوصية القديمة: "تحب قريبك كنفسك." وهذه هي المحبة التي كانت تحتهم على التكلم عن خلاص المسيح كلما ساحت لهم الفرصة. (٦) لقد اظهر المسيحيون حقيقة إيمانهم بنوعية الحياة التي عاشوها، فلم يكونوا ينجلون بمسيحتهم، بل كانوا مستعدين ليشرحوا الحق الإلهي لكل من يصغي.

يتألف مجتمع شمال أفريقيا من ثلاث فئات رئيسة. وهذه جميعها كانت حاضرة في الكنائس المسيحية. وكان الأمازيغيون يشكلون الأغلبية. أما الفينيقيون الذين تزوج الأفارقة معهم، فكانوا موجودين في المدن والحواضر وكانوا يمثلون الطبقة الحرفية والتجارية. على أن الطبقة الرومانية كانت الطبقة الأرستقراطية الإيطالية، وكانت تمثل أصحاب الممتلكات الزراعية الواسعة، وقد شكل هؤلاء نخبة أهل المدينة وصفوتهم. لكن الكنيسة جمعتهم أخوة وأخوات في عائلة تحطت حدود العرقية واللغة والتخوم الاجتماعية الأخرى. أما علاقتهم باليهود، فكانت علاقة صداقة ولطف. وقد استعص عن المناظرات الحادة التي دوها العهد الجديد مع اليهود، بالتسامح والاحترام المتبادلين، على الرغم من أن ذلك لم يجعلهم يستسلمون. بأي شكل من الأشكال، أو يتخلوا عن آمالهم في كسب اليهود واستمالتهم إلى الدخول في الإيمان.

ومن البديهي أن علاقتهم الحميمة كانت بأولئك الذين يشبهوهم في الفكر والمعتقد. فالمسيحيون كانوا في دائرتهم الخاصة، يعيشون حياتهم بموجب تعاليم المسيح، إذ كانوا يخدمون بعضهم بعضاً، كما خدم المسيح تلاميذه وغسل أرجلهم. ولم تضع

الكنيسة برنامجاً لتغيير المجتمع، بل كان كل همها أن تأتي بالنفوس إلى مجتمعها وتغيير مواقفهم ومبادئهم. وقد شددت على أهمية خلاص الإنسان كفرد. لقد كان المسيحيون يتوقون إلى أن يصالحوا الرجال والنساء مع الله، حتى يعيش هؤلاء الناس بعد المصالحة بانسجام وتوافق يومي معه سبحانه وتعالى. إلا أنه كان لا بد لهم في معرض مساعدتهم الفرد على الإيمان، من أن ينتقدوا الرذائل الاجتماعية التي قد تعيق الناس في هذا المجال. فالعهد الجديد في الواقع، بالأخص ما جاء من أقوال المسيح، يقدم لنا المثاليات التي لو نفذها جميع الناس فعلاً وبالكامل، لتغير المجتمع تغييراً جذرياً. وقد رأى عدد من أصحاب السلطة الوثنية أن تعاليم المسيح هذه فيها ما يكفي لإجراء تغيير جذري إذا مل تبنائها عدد كبير من الناس، وبإمكانها أن تشق طريقها إلى أعماق جذور المجتمع، وتصل إلى أساس بنيته.

لم تشجب الكنيسة رسمياً العرف القائم والمختص بالعبودية والاسترقاق، كما لم تتصد للصراع الوحشي الهمجي الذي كان يجري في الميادين لإمتاع الناس بقتال بين العبيد، يستمر حتى الموت. ولكن الكنيسة كانت تحث المسيحيين اللذين يمتلكون عبيداً، على ضرورة معاملة هؤلاء العبيد بتهذيب ولباقة، مثلما يرغب مالك العبد أن يعامل من سيده السماوي. (٧) كما أن العبد المسيحي يجب بالمقابل أن يخدم سيده الأرضي بأمانة وإخلاص كتقدمة مقبولة ترضي الله. (٨) وفي الحقيقة، اختار الكثير من المسيحيين إعتاق عبيدهم، على أنه في جميع الحالات كان العبيد مسرورين فرحين كونهم عبيداً لسيد مسيحي طيب، وهو بالمقابل، كان فرحاً مسروراً لامتلاكه عبداً، أميناً صادقاً. "وكم

رأينا عبداً لم يكونوا يفتقرون إلى شيء، بينما هناك رجال أحرار مكرهون على التسول." (٩) هذا ما قاله اغسطينوس بعد مضي مائتي عام.

لم تكن تجارة الرقيق واسعة الانتشار في شمال أفريقيا في زمن الرومان، بالمقارنة بحالة هذه التجارة في القرون التي تلت خروج الرومان من شمال أفريقيا. فالعبيد في الإمبراطورية الرومانية كانوا في غالبيتهم من أصل يوناني أو من شمال أوروبا وليس من أفريقيا. ولم يعان الأمازيغيون العبودية إلا في الظروف الاستثنائية، ولم تشجع الكنيسة المؤمنين على شجب هذه الظاهرة، أو الوقوف ضد مثل هذا الوضع الرسمي الذي مارسه المجتمع الوثني آنذاك. لان الاهتداء إلى المسيحية لا يحل الإنسان من تبعيته الشرعية والتقييد بنظام المجتمع الذي يعيش فيه، على الرغم من آماله في الحصول على حريته من هذه العبودية. ومع ذلك فعليه أن يتقبل قدره هذا بصبر وتؤدة في الوقت الحاضر. "الدعوة التي دعي فيها كل واحد فليلبث فيها. دعيت وأنت عبد فلا يهملك. بل وان استطعت أن تصير حراً فاستعملها بالحرى. لان من دعي في الرب وهو عبد فهو عتيق الرب. كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد المسيح." (١٠)

لم يكن عاراً كون الإنسان عبداً. فكان لدى العديد من العبيد، وبخاصة اليونانيين، درجة من الثقافة والتعليم أعلى مما عند أسيادهم. وكان قد سمح لهؤلاء العبيد بأن يتجولوا في أملاك أسيادهم وفي شوارع المدينة بحرية كاملة. وحقاً قال المعلم المسيحي الشهير أمبروزيوس (Ambroise) إنه قد يكون العبد أعلى منزلة من سيده في صفاته وأخلاقه، وحتى أكثر حرية من هذا السيد لان السيد، قد يكون عبداً لإبليس والخطيئة.

لم تسع المسيحية وراء الاضطرابات والمشاكل، ولا أثارت استياء الناس. بل على نقيض ذلك، علّمت الإنسان كيف يبقى سعيداً في أي ظرف من الظروف أو حال من الأحوال. (١١) المسيحية لم تهجم نمط الحياة الذي كان يمارس الرق والعبودية، تماماً كما أنها لم تهجم أياً من مظاهر الحياة في المجتمع الوثني. ذهبت المسيحية ابعده من ذلك، فقد قدمت طرائق وأساليب جوهرية جديدة يُنظر من خلالها إلى العلاقات الإنسانية: "فالأولون آخرون، والأعظم يكون خادماً للجميع، وهي تدعو ذاك الذي يجلس في المؤخرة إن يتقدم ليأخذ المقعد الأول، وملكوت السماوات يخص الأولاد الصغار. لم ينظر المسيحي إلى مصالحة الشخصية فقط، ولكنه نظر إلى مصالح الآخرين أيضاً. فقد أدار الخد الأيسر لمن لطمه على خده الأيمن، وذهب ميلين مع الذي سخره ميلاً واحداً، وصلّى من اجل اللذين أساءوا إليه. ونجد أن لدى الإنسان المؤمن الكثير من الأمور المشتركة مع عبده المسيحي، ما لا يجده مع عائلته الوثنية: فهو يتمتع مع عبده بإيمان مشترك، ويتقاسمان المخاطر عينها التي قد تأتي نتيجة لهذا الإيمان المشترك. ولم يكن هناك فوارق بين المسيحيين في نظر الله والكنيسة، لأنه "ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكراً وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع." (١٢) لقد استدعي المدعو يوليبيستوس (Euelpistus) وهو عبد من عبيد آل البيت الإمبراطوري إلى المحكمة في روما في القرن الثاني للميلاد. ولدى سؤاله أجاب: "أنا عبد الإمبراطور، ولكنني مسيحي في الوقت ذاته، حيث أن الرب يسوع المسيح قد حررتني، وبنعمته المعطاة لي، أتمتع بالرجاء نفسه لإخوتي بالرب." (١٣)

تبوأ بعض العبيد مراكز هامة، حتى وصل بعضهم إلى مراكز قيادية بين الجماعات المسيحية: فبعضهم عَيَّنوا نظاراً على مجموعاتهم المحلية. ويعتبر المسيحيون انه امتياز أن يخدموا عبداً مسجوناً أو مضطهداً بسبب إيمانه بالمسيح، وكانوا جميعهم يرغبون في تكريم كل عبد حصل على تاج الشهادة المختوم بالدم. إن إظهار مثل هذا الحب نحو العبيد هو إبطال غير مباشر لمفعول نظام الرق المذل، وإيدان بأقول نجمه. فالكنيسة لم تحاول أن تقتلع شجرة العبودية – لان ذلك سيكون عملاً طويلاً وخطراً – ولكنها بالمقابل قشرت لحاء هذه الشجرة وتركتها لتموت موتاً بطيئاً.

عندما كان المسيحيون أقلية ضئيلة، لم يكن بإمكانهم أن يفعلوا الكثير ضد العنف والقسوة والانحراف الجنسي الذي استشرى بين المجتمعات الوثنية. على أنهم لم يكونوا هم أنفسهم طرفاً في مثل هذه الأعمال، ولا حضروا ذلك القتال الوحشي الذي كان العبيد يتبارون به في الساحات والميادين العامة لإمتاع الناس، كما أنهم لم يشاركوا في مشاهدة المسرحيات التي لا تخلو في مضمونها من الانحراف الخلقي. فإذا ما غرق الآخرون في مثل هذه الحمأة، فالمسيحي لم يكن ليفعل ذلك، كان المسيحيون في العالم ولكنهم "ليسوا من العالم" وكانوا يعلمون هذه الحقيقة. صلّوا بعضهم لأجل بعض، كما فعل سيدهم يسوع المسيح لأتباعه عندما قال: "لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير." (١٤) وهكذا، فكلما ازداد عدد المسيحيين سنة بعد أخرى، كلما نقص عدد المشاهدين لهذه المباريات، الأمر الذي حمل الوثنيين على إلقاء اللوم على المسيحيين الذين اعتُبروا السبب في انخفاض عدد المتفرجين وفتور شوقهم إلى الألعاب والمسرحيات، وضعف ولعهم بها.

إلى ذلك، فإن الكنيسة لم تحاول أن تزيل التفاوت المتأصل في بنية الطبقات الاجتماعية المدنية والأصقاع الريفية. فقد آمن المسيحيون بأن الله هو الذي يمنح الأرض والأموال لبعضهم، تماماً كما يمنح المهارة والقدرات لبعضهم الآخر، إلى جانب المواهب الأخرى المتعددة، من فن وقوة شخصية وطلاقة لسان وغيرها. وقد أصرّ المسيحيون على معاملة الناس اجمع باحترام متساو. فلم يهابوا الأقوياء ولا احتقروا الضعفاء. لقد خافوا الله وحده، وأحبوا جميع الناس. وكانوا يستقبلون الفقير والمتواضع بلطف ويكيلون له بالمعايير الصادقة والأمانة عينها، التي يكيلون بها للأغنياء ذوي النفوذ. ففي اجتماعات الكنيسة، كانوا يرحبون بالجميع على حد سواء. قال يعقوب أخو المسيح في الجسد: "لا يكن لكم إيمان ربنا يسوع المسيح رب المجد في المحابة. فإنه إن دخل إلى مجمعكم رجل بخواتم ذهب في لباس بهي ودخل أيضاً فقير بلباس وسخ. فنظرتكم إلى اللابس البهي وقتتم له اجلس أنت هنا حسناً وقتتم للفقير قف أنت هناك أو اجلس هنا تحت موطئ قدمي. فهل لا ترتابون في أنفسكم وتصيرون قضاة أفكار شريرة؟" (١٥) إن أخلاق الإنسان هي من حيث الأهمية أكثر بكثير من ثرائه ومركزه الاجتماعي. فقد كانت النقوش أو الكتابات على قبور المسيحيين، والمعرفة بهم، لا تشير إلا نادراً إلى المراكز الاجتماعية لأولئك الموتى. إلا أنهم كانوا ينتحون أحياناً رموزاً تدل على حرفه الميت، أو يرسمون بدقة الأدوات التي يستعملها في مهنته بالإضافة إلى كتابة عبارات تنم على المحبة العائلية.

كانت مثل هذه المواقف ثورية للغاية، إذ كانت تلمس أي إنسان حساس. ولكن المسيحيين لم يكونوا دائماً موضع استحسان في أعين أعضاء المجتمع الآخرين. فبعض

أعضاء هذا المجتمع رأى فيهم عاملاً مفسداً يسبب الخلاف والشقاق الحاصلين بين الناس، لأنهم كانوا على استعداد دائم لأخذ خط فكري مستقل خاص بهم. إلى هذا، فقد كانت طاعة المثاليات الإمبراطورية أمراً ملزماً يجب أن يغرس بثبات في قلوب الناس، فإذا ما نزع احد إلى مناقشة مثل هذه العادات الوطيدة الراسخة في المجتمع آنذاك، فإنه يعرض نفسه لتهمة تعكير سلام الإمبراطورية الرومانية، بل كذلك لتقويض الحضارة العظيمة التي تمثلها.

بعد مرور قرن ونصف على صلب المسيح، كتب كلوسوس (Celse) انتقادات عنيفة يتهم فيها المسيحيين برفض خدمة الجيش. وقد قال كلوسوس إن عملهم هذا يعرض حياة الإمبراطورية للخطر، إذ ماذا يحدث مثلاً لو حذا جميع الشعوب حذوهم؟ ألا يؤدي ذلك إلى اكتساح البرابرة هذه الإمبراطورية؟ أما أوريجانوس (Origene)، فقد دافع عن هذا الموقف اللا عنفي للمسيحيين، مشيراً إلى أن المسيحيين لا يطمحون إلى انقسام المجتمع، ولا إلى مساندة بلد آخر ضد بلدهم، وإنما إلى رفع جميع الناس إلى المستوى الأخلاقي الأعلى، وحتى، أن أمكن، إلى انتزاع رغبة الناس في أضرار الحروب. وفي هذه الفترة بالذات دافع ترتوليانوس عن المسيحيين قائلاً أنهم بعيدين كل البعد عن تهمة تمزيق الإمبراطورية، لأن الواقع يثبت أن المسيحيين هم أحسن رعايا الإمبراطورية وأفضلهم على الإطلاق. ومبادئهم هذه، لتجيز لهم القيام بأي عصيان مسلح أو شغب محل بالأمن، وهم لم ولن يتآمروا ضد السلطة، بل على نقيض ذلك، يقدمون الصلوات إلى الله تعالى ليحفظ الإمبراطور ويطيل بعمره ويمتعه بحكم ملوئه السلام والاستقرار. إنهم لا يهتمون بالسياسة، وليس لديهم أية طموحات نحو قوة أرضية، وهم ببساطة يرغبون

في أن يُتركوا بسلام. فقد قال سيدهم: "مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون." (١٦) كما أعلن تروتوليانوس من شمال أفريقيا بصريح العبارة ما يلي: "لقد برُدَ عندنا كل ما يعتبرها الناس طموحاً في سبيل الجسد الأرضي أو المراكز، ولسنا مضطرين إلى تشكيل اتحادات لمثل هذا الغرض، وليس ما هو ازهد من العمل السياسي بالنسبة إلينا، لأنه مغاير لمبادئنا، ونحن لا نعترف إلا بدولة واحدة، وهذه الدولة هي العالم بأسره." (١٧)

لم يكن المسيحيون من السداجة بحيث يفترضون أن المجتمع الوثني بأسره يرغب في قبول المسيحية واتساع مقاييسها، ولا أن شرور تلك الحضارة، يمكن إلغاؤها بالوسائل السياسية، إذ كثيرون من ذوي النفوذ كانوا يستفيدون من الفساد والجور المستشريين فيها. كما لم يكن هدف المسيحيين انتقاد النظام الاجتماعي والاقتصادي الوثني، بل بالحري أرادوا أن يبنوا للأفراد الطريق المؤدي إلى حياة أفضل: تأسيس جماعة جديدة داخل المجتمع الموجود، جماعة ذات معايير مسيحية يطبقها شعب مسيحي أصيل.

أثبتت المسيحية جدارتها بالامتداح من خلال نقاوة الحياة الواضحة لأعضائها. هذا، وقد أرست لنفسها نمط حياة مغايراً تماماً لحضارة ذلك الزمان التي عرفت باخرافاتها الجنسية وفجورها، وغطرستها المستفحلة، وبمبارياتها وألعابها الدموية، وبمواقفها الوحشية القاسية في معاملة العبيد والعمال والخدم الذين يخدمونها. وعلينا ألا نتصور أن المسيحيين القدامى كانوا مثاليين كاملين، ولكنهم كانوا، على الأقل، يطمحون إلى الكمال. لقد أقاموا وزناً كبيراً للصفات النبيلة من مثل الأمانة والاستقامة

والحنو والشفقة، وقد عقدوا العزم على أن يجربوا جيرانهم كأنفسهم. لقد كان عندهم في بعض الأحيان ذنوب ونقائص، لكنهم، بخلاف باقي الناس، كانوا مستعدين للاعتراف بأخطائهم ومواجهتها ومحاوله معالجتها. إلا أن هؤلاء المؤمنين الأوائل، في شمال أفريقيا، كانوا يعرفون انه بعد انزلاقهم يستطيعون القيام وإتباع المسيح عن قرب أكثر من ذي قبل.

كلما اشتد الظلام، بانت النجوم وضاءة لامعة. هكذا أضاءت محبة المسيحيين وأمانتهم وسط عالم معوج وملتبس. لم يشك المسيحيون يوماً ولا تأففوا. لقد رفضوا أن يتورطوا في المنازعات، وكانوا مستعدين دائماً لمساعدة كل محتاج. وعندما كنت تلقاهم في الشوارع، كنت تراهم يتحدثون بإخلاص عن أفراحهم وعن أحزانهم. كانوا يعزّون بعضهم بعضاً، ويصلّون بعضهم لأجل بعض. وعندما كانوا يسرون إلى أعمالهم، كانوا يترنمون بترانيم روحية محبة إلى قلوبهم المشتاقة. كانوا يشكرون الله في كل حين وعلى كل شيء، وكانت حياتهم واضحة سامية فوق جيرانهم. كانوا يشعرون بنهم شعب الله الخاص وكانوا يعيشون التوصية الكتابية القائلة: "فالبسوا كمختاري الله القديسين الخيويين أحشاء رأفات ولطفاً وتواضعاً ووداعةً وطول أناة. محتملين بعضكم بعضاً ومسامحين بعضكم بعضاً إن كان لأحد على أحد شكوى. كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً. وعلى جميع هذه البسوا الحبة التي هي رباط الكمال." (١٨)

لقد اهتموا فعلاً أحدهم بالآخر. وكتب الرسول بولس إلى أخ مؤمن بخصوص أحد عبيده اللصوص الهارين قائلاً له إن هذا العبد قد اعتنق المسيحية لتوّه، وحثه على لزوم مسامحته وقبوله "لا كعبد في ما بعد أفضل من عبد أحمأً محبوباً." (١٩) إن هذه

النظرة التي كان المؤمنون ينظرون بها إلى الحياة لم تمت أبداً بنهاية العصر الرسولي. فقد كانت كل من بريبتوا السيدة، وفيليبستاس خادمتها، تقاسمان الإيمان المشترك، فعاشتا وماتتا سوية، وكانتا تشجعان وتطمئنان إحداهما الأخرى، وذلك على المدرج الروماني بمدينة قرطاجنة. هكذا كان اتحاد الجماعة المسيحية والتحامها، إذ كان بإمكان الأرامل واليتامى والمسافرين البعيدين عن بيوتهم وذويهم أن يجدوا الدفاء والترحيب المملوءين محبة وعطفاً، حين تستضيفهم العائلات المسيحية. وحتى الوثنيين واليهود في الجوار، كانوا يحصلون على المساعدة التي يقدمها لهم المسيحيون. ولم يكن أحد يعرف شيئاً كهذا قبل بزوغ فجر المسيحية في العالم.

كان الزنا والدعارة وغيرهما من الرذائل القبيحة تغرز القبيح العفن في المجتمع الوثني الذي كان المسيحيون يعيشون فيه جنباً إلى جنب معهم، وكان هذا يسبب للناس تعاسة لا توصف وشقاء لا يحُد. لقد جعل القانون عملية الطلاق أمراً سهلاً، وكان يحصل لأتفه الأسباب، الأمر الذي جعل الحياة العائلية حياة مستحيلة تقريباً. كان الوالدان يعيشان في محيط يشوبه الشك وعدم الثقة، وكان العديد من الأولاد لا يعرفون أين أبواهم، ولا يعرفون حتى من هم أبواهم. أما حياة الجماعة المسيحية، فكانت تختلف اختلافاً جذرياً. فالمسيحيون كانوا يحترمون الزواج. وكانوا يتحدثون مطولاً عن العلاقات الخاصة المميزة بين الزوج وزوجته، والتي يشبهها الكتاب المقدس بالعلاقة بين المسيح والكنيسة: "أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب..... أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة واسلم نفسه لأجلها." (٢٠)

لقد جاءت المسيحية بمبدأ جديد إلا وهو مبدأ الإخلاص والولاء، إلا أن إخلاص الزوجين احدهما للآخر، تجاوز جميع الولاءات الإنسانية الأخرى. لم يكن الطلاق اختيارياً عند المسيحيين، فلقد قال المسيح: "ويكون الاثنان جسداً واحداً إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان." (٢١) تعلم القرينان أن يهتمما ويقدر احدهما الآخر، ويبدلا قصارى جهدهما ليعيشا بتالف وانسجام. وآمننا بان المقصود من القران هو المساعدة المتبادلة بين القرينين، والتشجيع في الأمور الروحية والعملية. فان علاقتهما الزوجية تتنامى باستمرار وتصبح نفيسة وغالية. قال ترتوليانوس: "يا لروعة الاتحاد الزوجي بين مؤمنين ذوي رجاء واحد، وعهد واحد، وتهديب واحد، وأسلوب حياة واحد. إنهما أخ وأخت، اثنان من خدم الرب، روح واحدة وجسد واحد... يصليان سوية، ويصومان معاً، يعلمان وينصحان ويدعمان احدهما الآخر. يذهب كلاهما إلى كنيسة الله، ولمائدة الرب. يتقاسمان الحن والاضطهادات مع الآخرين، والنمو الروحي. فلا يكتف احدهما شيئاً عن الآخر، ولا يتجنبه ولا يغضبه. يزوران المرضى بسرور، ويقدمان الاحتياجات للمعوزين ويتصدقان بسخاء، ولم يكونا في حاجة إلى إخفاء رمز الصليب ولا إلى كبح الفرح في المسيح ولا إلى إعاقة بركاته، يترفان بتسابيح ومزامير معاً، والمسيح يسر بما يراه ويسمعه منهما، ويمنحهما سلامة. وعندما يجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه، يكون الرب في وسطهم، وحيثما يكون الرب لا يستطيع إبليس أن يأتي." (٢٢)

فحيثما يعني الارتباط الزوجي تشكيل وثاق جديد، فهو ضمناً حل الروابط القديمة. فالزوجان كمسافرين يحزمان أمتعتهم ويودع كل منهما أبويه والبيت الذي

نشأ فيه وترعرع. وباتحادهما يتأسس بيت جديد، ومهما كان هذا البيت متواضعاً، فإنهما يغنيانه بحبة المسيح. تقول كلمة الله عن الاتصال والانفصال: "من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته. ويكون الاثنان جسداً واحداً." (٢٣) إن العادة القديمة أن تنتقل الزوجة لتعيش مع زوجها في بيت أهله هي عادة مخوفة بالصعوبات والمخاطر، ولكن كسر هذا التقليد ليس بالأمر اليسير، إذ يجب القيام به بطريقة ودية وعاطفية. فالأقارب المسنون يتوجب احترامهم وتقديرهم، وإذا دعت الحاجة إلى إعالتهم، ينبغي تقديم مثل هذه الإعالة. ولكن، على الآباء ألا يتوقعوا من أولادهم اللذين تزوجوا طاعة عمياء وإذعاناً كاملاً بعد زواجهم. فقد أصبح الزوج الآن مسؤولاً عن بيته، وعن زوجته، وطبعاً، عن أولاده في ما بعد. ولا يمكن للزوج في أي حال من الأحوال، ولأي سبب من الأسباب، أن يتهرب من مسؤولياته وواجباته. وحال الأولاد كحال والديهم، فبعد أن يكبروا يتركونهم بدورهم ذويهم وبيوت آبائهم، ويتزوجون لينبأ لأنفسهم عشهم الزوجي الخاص بهم. وهم يعلمون علم اليقين أن بإمكانهم الاتكال على إعانة والديهم وحبهم لهم، وعلى الصلوات التي يرفعها هؤلاء اخبون لأجلهم، في وقت احتياجهم.

والنساء بشكل خاص، سررن بالتقدير الذي صار من نصيبهن في الجماعة المسيحية. كنّ قبلاً مبعديات عن العديد من الديانات السرية، كما أن دورهن في ديانات أخرى كان يثير الشبهات. أما المرأة المسيحية، فقد كان لها مقامها وامتيازاتها الجديرة بالاحترام، وكانت لمواهبها وأحلامها متنفسات ومخارج مفيدة ونافعة، خصوصاً في ما يتعلق بالتوجيهات والإرشادات التي كانت تقدمها للشابات والأطفال. فقد كان هناك

دائماً أراهم وأيتام يحتاجون إلى العناية، فضلاً عما يقدم للمسافرين من حسن ضيافة وعناية. وكان الزوج يستطيع أن يترك كثيراً من المهام والمسؤوليات في يدي زوجته المسيحية بثقة كاملة، وكان يقدر مساعدتها اللطيفة ونصائحها السديدة. وقد أشار اغسطينوس إلى أن حواء لم تؤخذ من أقدام آدم لتكون بذلك أمة له، ولا أخذت من رأسه لتتحكم به وتستعبده، ولكنها أخذت من جنبه حتى تكون شريكة حياته الودودة الخبوة. (٢٤) فكم هو جميل أن يتمكن الزوجان من أن يصليا معاً لأجل كل ما يهمهما أو يختص بحياتهما، ويتهجان معاً عندما يستجيب الله لهذه الصلوات. "امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلئ، بما يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة،..... تفتح فيها بالحكمة وفي لسانها سنة المعروف." (٢٥) كانت بريسكلا نموذجاً لمثل تينك النسوة، وهي وأمثالها المذكورات في صفحات الكتاب المقدس، وكان هناك كثيرات مثلها في أفريقيا الشمالية. (٢٦)

الأولاد أيضاً، كانوا موضع ترحيب في الجماعة المسيحية. فقد قال الرب يسوع نفسه عنهم: "دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم لأن مثل هؤلاء ملكوت الله." (٢٧) وغالباً ما كان إيمان الأطفال العادي البريء دافعاً للأبوين، وحافزاً لهما للعبادة. وعندما كان الأبوان يقرآن الكتاب المقدس، كانا يجدان نصائح كثيرة عن كيفية تربية أبنائهم "بتأديب الرب وإنذاره." (٢٨) كان تيموثاوس واحداً من أولئك المباركين بهذه التربية المسيحية منذ نعومة أظفارهم، فكتب له بولس قائلاً: "إذ أتذكر الإيمان القديم الرياء الذي فيك الذي سكن أولاً في جدتك لوئيس وأمك افنيكي ولكنني موقن انه فيك

أيضاً. " ويتابع الرسول متحدثاً إلى تيموثاوس: " وإنك منذ الطفولة تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تحكّمك للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع. " (٢٩)

كان مثل هؤلاء الأولاد أحراراً في تكريس شبابهم وبذل أفضل فترات عمرهم في سبيل ملكوت الله، مع مباركة ذويهم وتشجيعهم. وبسبب قدرتهم على التمييز بين الصالح والطالح، فقد التصقوا بالأول ورفضوا الثاني. لم تكن لهم ذكريات محجلة عن ماضٍ حافل بالممارسات الشهوانية، ولا ندموا في يوم على سنين ضائعة. ولم يكتسبوا في يوم من الأيام تلك الأخلاق الإنسانية والترفة التي كانت لهؤلاء الذين منذ نعومة أظفارهم لا يفكرون إلا في أنفسهم.

لقد وفروا على أنفسهم ذلك الصراع المرير الذي يعيشه كل إنسان يأتي إلى المسيح في كهولته رغباً في ترك عاداته الشخصية الخاطئة الراسخة. أما أن يولد الإنسان في عائلة مسيحية، فهذا امتياز مدهش جميل، وكذلك عودة الإنسان إلى البيت المسيحي الموحد الذي تسوده المحبة والمودة، بعد يوم شاق في المدرسة أو في السوق أو في الشارع أو في المدينة، فإن ذلك لا بد من أن يملأ قلب المؤمن الشاب بالسرور والغبطة.

كان المسيحيون يشجعون بعضهم بعضاً، ليعملوا مجد ويبدلوا عرق الجبين في كسب أرزاقهم، وهكذا يتمكنون من مساعدة الآخرين ممن هم أقل منهم حظاً، خصوصاً أولئك الذين لا يستطيعون الاستمرار في أعمالهم، بسبب المرض والعجز. (٣٠) والمسيحية تعتبر العمل واجباً طبيعياً على كل أتباعها. كان الرسول بولس يكسب قوته من طريق عمله اليدوي، وفي صناعة الخيام. ويظهر أن الأعمال اليدوية لم تكن معتبرة من الأعمال المخزية. (٣١) وقد كتب بولس: " إذ انتم تعرفون

كيف يجب أن يُتَمَثَلَ بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ولا أكلنا خبزاً مجاناً من احد بل كنا نشتغل بتعب وكدّ ليلاً ونهاراً لكي لا نثقل على احد منكم" (٣٢)

في الواقع، بدأ كثيرون ممن اعتنقوا المسيحية، ولأول مرة في حياتهم، بمزاولة عمل شريف وكما يقول الكتاب المقدس: "لا يسرق السارق في ما بعد بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه ليكون له أن يعطى من له احتياج." (٣٣) نظرت الكنييسة المسيحية بازدياد واستنكار إلى أولئك الأصحاء القادرين على أن يعملوا، ولكنهم كسالى مهملون. فكتب بولس الرسول بهذا الخصوص قائلاً: "فإننا أيضاً حين كنا عندهم أوصيناكم بهذا انه إن كان احد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل." (٣٤) فالمسيحيون هم من يكونون "مستعدين لكل عمل صالح" (٣٥) وبالخص إذا كان عليهم إعالة من يعتمدون على ما يجنونه من معاش. "وان كان احد لا يعتني بخاصته ولا سيما أهل بيته فقد أنكر الإيمان وهو شر من غير المؤمن." (٣٦) لقد كانت هناك فرص كثيرة للذين يريدون أن يعملوا في المدن والقرى والأرياف، ولكل من لم تمنعه كبرياؤه من تلويث يديه بأية حرفة مهما كانت وضيعة. ولم تكن الأعمال الشاقة والأوضاع الاجتماعية المتدنية تعتبر وصمة عار ففي زمن الاضطهاد، أُرسِل الكثير من الناس إلى المناجم، وكان المؤمنون اللذين يستخرون للعمل في هذه المناجم يفتخرون بعملهم هناك، وهم يمجدون الرب دائماً، ويسبحونه على الرغم من أنهم في وضع لا يحسدون عليه. وكانوا يؤمنون بأن الله هو الذي أرسلهم إلى هذا المكان الوضيع ليكونوا نوراً يضيء في الظلمة كرسل المسيح، وليس كسجناء للإنسان.

ومع هذا، فقد كان هناك أعمالاً لا يقبل بها المسيحيون. فهم لا يقبلون مثلاً أن يعملوا كمجادلين. والمجادل كما أسلفنا، هو شخص يقاتل حتى الموت لإمتاع الجماهير في الإمبراطورية الرومانية، وبخاصة في ذلك العصر الذي تميز بالترويع والترهيب، سواء أكان هذا الترويع والترهيب ضد الإنسان نفسه أو ضد الحيوان على حد سواء. كذلك لم يكن المؤمن يقبل أن يشارك أو يتورط في أعمال الدراما على المسارح الوثنية، بسبب ما يعرض هناك من مشاهد بذينة ولا أخلاقية - أساطير وخرافات الآلهة - تلك الأساطير التي كانت تُمثل بقناع ديني على مرأى الجماهير الفاسقة الفاسدة. والمسيحي لا يشرك نفسه في أي شكل من أشكال الوثنية أو علم التنجيم، أو أية مهنة ترتبط بعبادة الأوثان، كصناعة المصاييح وأكاليل الزهور وغيرها من الزخارف والحلي التي تخص المعابد. ولم يكن ممكناً للمسيحي أن يقبل العمل كمعلم في مدرسة لان عليه أن يعطي دروساً تتنافى ومبادئه المسيحية. فجدول الضرب لم يكن في ظاهره مؤذياً، غير أن حروف الهجاء كان يتم استظهارها وحفظها غيباً من طريق أنشودة ترتل فيها أسماء الآلهة الوثنية. (٣٧) كذلك كان المسيحي يرفض أن يكون قاضياً حيث انه قد يطلب منه أن يحكم بسفك دم. والمسيحي لم يكن يرغب في أن يكون محامياً حيث انه قد يطلب منه أن يدافع عن رجل مذنب والترافع لصالحه، أو قد يطلب منه اتهام رجل بريء يتم تجريمه. ولا يستطيع المسيحي أن يكون خطيباً عاماً خصوصاً إذا كانت خطبته هذه تشتمل على التملق والمداهنة والإطراء والأكاذيب، وذلك لتمجيد حاكم مجرد من المبادئ الخلقية، أو للشئ على احد المتبرعين الوثنيين. وقد تخلى رجال كثيرون عن أعمال كانوا قد باسروها، لأنهم لم يستطيعوا أن يوفقوا بينها وبين ضمائرهم أو مبادئهم

المسيحية، واكتفى هؤلاء بأشغال أكثر تواضعاً. فالغنى، والوسيلة التي تؤمن الحصول عليه، ليسا نهاية المطاف. فالمواعظ الكنسية التي حفظت خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد، تخبرنا بأن الكنيسة كانت تحت المؤمن ذا الإمكانيات المتواضعة على أن يقتنع بدخله المحدود. أما ذوو الدخل الكبير، فعليهم أن يكونوا كرماء يدفعون بسخاء لعدد وافر من المحتاجين. وقد طُلب من التجار أن يتأكدوا من تثبيت أسعار عادلة، وأن لا يطلبوا أكثر من هذه الأسعار العادلة من المشترين، وكذلك ألا يقبلوا بأسعار أدنى منها. وخلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، اعتقد المسيحيون أن خدمة الجيش تتناقض مع الإيمان المسيحي. وبالطبع فإن هذه الخدمة تورطهم في استعمال العنف والاضطرار إلى سفك الدماء، الأمر الذي لا يتوافق مع تعاليم المسيح. (٣٨) فهل بالإمكان أن نتصور الرب يسوع المسيح يقتل إنساناً إذا ما صدرت إليه الأوامر بذلك من قائد فرقة عسكرية؟ ولا حتى، يمكن لإتباعه أن ينفذوا أمراً كهذا. قال ترتوليانوس: "إن تجريد الرب لبطرس من سلاحه، جرد الجنود من أحزمة أسلحتهم منذ ذلك التاريخ فصاعداً." (٣٩) قد أعطى ترتوليانوس أسباباً أخرى لعدم التحاق المسيحيين بالجيش. فأولاً: إن مثل هذه الخدمة تضع المسيحي تحت إمرة سيد غير سيده المسيح، وثانياً: فنها تمنعه من الوفاء بواجباته مع عائلته. وأكثر من ذلك، فإن أصحاب الرتب العليا في الجيش ملزمون في أن يشاركوا في الدعاءات والابتهالات الدينية المقدمة للآلهة، وذلك مع كتابتهم. كذلك لم تطلب الكنيسة من الجنود المنتهقين بالجيش أن يتمردوا أو أن يتسرعوا في معارضة ذوي السلطة. ولم تفرض الكنيسة على الجندي الذي اعتنق المسيحية أن يغادر الجيش بسرعة، بل كانت تشجعه على البحث عن عمل آخر حالما

يتحرر من قيود عمله السابق. وهذا لم يكن يسبب أية صعوبة، إذ أن الدولة يمكنها أن تملأ مركزه ورتبته بشكل آخر. وهندما يتحرر الجندي المسيحي من التزاماته العسكرية، فذلك لن يؤثر سلباً في الدولة، لأنه بإمكان الولاية أن تملأ مركزه ورتبته بشخص آخر من دون أية صعوبة تذكر. هذا، ولم يكن هناك نقص في عدد المتطوعين من الوثنيين في القوات الإمبراطورية. ومن جهة أخرى، لم يكن المسيحيون يجندون ضد إرادتهم، لذلك فإن هذا الأمر لم يشر أية إشكالات أو بلبلة في أوساط الكنائس المسيحية، في شمال أفريقيا.

وعليه، نرى أن المسيحيين بدأوا يشكلون جماعاتهم الخاصة بهم داخل البنية الرسمية للمجتمع الوثني، مع كونهم آنذاك أقلية مضطهدة تكافح لتبقى، وهي داخل غلاف هذه الإمبراطورية الوثنية القوية. وما كان المسيحيون أن يتصوروا في تلك الأيام أن وقتاً سيأتي، يتمكن فيه مسيحي من اعتلاء عرش هذه الإمبراطورية، ومن ثم يسُنّ قوانيناً تفرض مقاييس ومبادئ مسيحية على العالم المتحضّر بأسره. (٤٠) ومع ذلك كانت الأجيال المسيحية الأولى، في صلاحها الدؤوب والمستقيم، سبباً في احترام جيرانهم ومعارفهم، وباعتناً على قبول الكثير من مثالياتهم في المجتمع العالمي ككل.

حواشي الفصل

١- Latourette Vol. I. p. ٢٥١

٢- Latourette Vol. I. p. ٢٥٢

٣- (أعمال ٢: ٤٢ - ٤٧)

٤- (أعمال ٥: ١٣ - ١٤)

٥- (أعمال ١: ٨)

٦- (مرقس ١٢: ١٣). راجع أيضاً (أفسس ٤: ٢٥)؛ (رومية ١٥: ٢).

"كانت المسيحية أول ما تتأسس في مكان ما، تقوم بنفسها بأفضل عمل إرسالي. كانت تنمو بشكل طبيعي من الداخل. وكان مجرد حضورها يجذب الناس. كانت نوراً يشع في الظلام وينير هذا الظلام. ومع غياب الجمعيات الإرسالية المتخصصة لهذا العمل الخدد، كانت كل كنيسة محلية بمثابة جمعية إرسالية، وكان كل مؤمن مسيحي مرسلاً وصاحب قلب مضرم بحبة المسيح، ويسعى جاهداً لربح الناس للطريق نفسه."

(Schaff Hotcc Vol.II p.٢٠)

إن الإمبراطور الوثني يوليان (Julien) (٣٦١ - ٣٦٣م) عزا شعبية المسيحية مع انتشارها السريع في بدايتها، إلى ثلاثة أسباب: اللطف، الأمانة، والاهتمام بالموتى (تدبير دفن لائق بالنسبة إلى الفقراء).

(Schaff Hotcc Vol II p.٣٨١)

٧- (افسس ٦: ٩)

٨- (افسس ٦ : ٥-٨)، (تيطس ٢ : ٩ و ١٠)

٩- (Sermon ٣٥٦:٧) Hamman ١٣٤

١٠- ١ (كورنثوس ٧ : ٢٠-٢٢)

١١- (فيلبي ٤ : ٤ ، ١١-١٣)، (تكوين ٣٩ : ٢٠-٢٣)

١٢- (غلاطية ٣ : ٢٨)

١٣- Schaff Hotcc (Vol.II p.٣٥١); Martyrium

٣ (ANF Vol. Ip.٣٠٥)

١٤- (يوحنا ١٧ : ١٥)

١٥- (يعقوب ٢ : ١-٤)

١٦- (يوحنا ١٨ : ٣٦)

١٧- Apologeticus ٣٨

١٨- (كولوسي ٣ : ١٢-١٤)

١٩- (فليمون ١٦ و ١٧)

٢٠- (افسس ٥ : ٢٢ و ٢٥)

٢١- (مرقس ١٠ : ٨ و ٩)

٢٢- Ad Uxorem ٢ : ٨ (راجع ترجمة Schaff في Hotcc Vol.II

(p.٣٦٤)

٢٣- (افسس ٥ : ٣١)

٢٤- Schaff Hotcc Vol.II p.٣٦٣

٢٥- (أمثال ٣١ : ١٠ ، ١١ ، ٢٦)

٢٦- (أعمال ١٨ : ٢٦)

٢٧- (موقس ١٠ : ١٤)

٢٨- (افسس ٦ : ٤)

٢٩- (٢ تيموثاوس ١ : ٥ ؛ ٣ : ١٥)

٣٠- (أعمال ٢٠ : ٣٤ و ٣٥)

٣١- (أعمال ١٨ : ٣)

٣٢- (٢ تسالونيكي ٣ : ٧ و ٨)

٣٣- (افسس ٤ : ٢٨)

٣٤- (٢ تسالونيكي ٣ : ١٠)

٣٥- (تيطس ٣ : ١)

٣٦- (١ تيموثاوس ٥ : ٨)

٣٧- لقد اعتبر ترتوليانوس أنه كان من الضروري على الأولاد المسيحيين في المجتمع الوثني أن يلتحقوا بمدارس وثنية: وإلا سيشبون أميين. وبالمقابل، سيساعدهم ما حصلوا عليه من تعليم مسيحي في البيت على تقويم ما يدرسونه والتمييز بين الحق والباطل. ففي المدرسة، يكون الفتى المسيحي "في أمان، كمن يقبل السم من دون أن يشربه". (١٠ De Idolatria). وهذا الأمر، زاد بالطبع من مسؤولية الأهل جهة تعليم أولادهم ومساعدتهم على التمييز.

٣٨- مثلاً، (متى ٥ : ٣٩ ، ٤٠)

De Idolatria ١٩-٣٩، بالإشارة إلى (متى ٢٦ : ٥٢)

٤-مثلاً، لقد اصدر الإمبراطور قسطنطين في العام ٣١٥م قانوناً يحظر فيه
وسم العبيد على الوجه. وفي السنة التالية، سهل عملية الإعتاق إذ جعل لها شرطاً
واحداً: أن يوقع سيد العبد شهادة بهذا الخصوص، وذلك عوضاً عما كان يدور من قبل
من احتفال بالإعتاق في حضور الحاكم ومساعدته. كذلك شرّع الإمبراطور لمنع الأهل
من قتل الأولاد غير المرغوب فيهم.

(Schaff Hotcc Vol.II pp ٣٥٠، ٣٧٠)

للحصول على المزيد من المعلومات بخصوص حياة الكنائس المسيحية الأولى،
يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:

١٩٩ - ١٣٤، Green pp. ٧١ -، Bainton pp. ٢٨٥ - ٢٣٤

١١٠

٢٤٤، Neill pp. ٤٣ - ٤٤؛ Latourette Vol. I pp. ٢٦١ -

٢٩١، ٢٦٥

Schaff Hotcc Vol. II pp. ٣٣٤ - ٣٨٦؛ Foakes -

Jackson pp. ٢٣٦ - ٢٣٩

الفصل السادس الجماعة المسيحية

بعد أن سمع المسيحيون بعض الأمور التي تتعلق بحياة المسيح، واختبروا بأنفسهم قوة روح المسيح التي كانت تعمل في وسطهم، انكبوا بشوق وحماسة شديدين على دراسة ما كتبه أتباع المسيح الأوائل. أولئك الذين رأوا المسيح وسمعوه وعاشوا معه، ماذا يقولون عنه؟ وكيف وضع كل من بطرس ويوحنا ويعقوب تعاليم ربهم موضع التنفيذ والممارسة، وذلك في المناطق والأقسام الأخرى من عالم البحر الأبيض المتوسط، حيث كانوا يعيشون ويسكنون؟ كان شكل الكتابات التي جاء بها المسافرون المسيحيون تختلف في الواقع، عما كان عليه الدرج الملفوف حول المقبض أو المسلة الخشبية، والذي كان يستعمله اليهود ويعلمه معلموهم منذ أجيال طويلة. فالمسيحيون في الحقيقة، كانوا الرواد في استعمال الكتب الملونة المكونة من صفحات مكتوبة باليد ومدججة بواسطة الخياطة في مجلدات بشكل يسهل نقلها واستعمالها كمرجعية عند الضرورة.

انكبت مجموعة من الرجال والنساء على قراءة ما كتب عن سير المسيح ورسائل الرسل التي اعترضت سبيلهم. فالقادرون منهم على القراءة بشكل جيد نسخوا باعتناء شديد، نسخة من هذه المخطوطات، أو طلبوا من آخريين أن يقوموا بذلك. وفي بداية القرن الثالث، لم تعد اللغة اليونانية اللغة العالمية المستعملة في حوض البحر الأبيض المتوسط، لذا طلب أولئك الذين لم يتمكنوا من فهم لغة العهد الجديد الأصلية تلك، توضيح معانيه ومفاهيمه. إلا أنه كانت هناك ترجمة باللاتينية، وكانت معروفة بين الجماعات المسيحية المثقفة.

كانت كلمة الله مصدرًا مشجعاً للاجتماعات. وقد شجع بولس تيموثاوس في افسس لكي يسير في الاتجاه عينه إذ قال له: "إلى أن أجيء أعكف على القراءة والوعظ والتعليم". (١) وكتب يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) تقريراً من روما في العام ١٥٠ ميلادية مفاده أن "اجتماعات الكنيسة في روما كانت تبدأ بقراءة ما سجله الأنبياء من كتابات وما كتبه الرسل" (٢) ثم كان أحد قادة الكنيسة يقوم بتفسير الشواهد والفقرات، وبعد ذلك يصلي الجميع ويعبدون معاً. وبعد خمسين سنة، كتب ترتوليانوس: "كان يطلب من كل عابد أن يقف ظاهراً أمام الجماعة وبحسب قدرته يسبح الله، وما يرتله أو يرثمه يكون إما مأخوذاً من الكتاب المقدس، وإما من تأليفه الخاص". (٣) وما استطعنا أن نعرفه من العدد القليل المتوافر لدينا من الترانيم التي كانت تترتل في أثناء العبادة، يظهر أن الإنشاد كان مأخوذاً من المزامير المترجمة إلى اليونانية أو اللاتينية بشكل عام.

كان المسيحيون يقيمون احتفالين كبيرين رئيسين، الأول والاهم هو الاحتفال بعيد القيامة المجيد الذي يتذكرون فيه موت مخلصهم وقيامته. أما الاحتفال الثاني فكان في يوم الخمسين، أي خمسين يوماً بعد قيامة المسيح. إن الصلوات التي كانت تقام خلال الفترة الواقعة بين عيدي القيامة ويوم الخمسين، كانت ترفع بينما يكون المؤمنون وقوفاً عوضاً عن أن يكونوا راكعين. (٤) إلى هذا، كان هناك حدث آخر هام احتفلت به الكنيسة أسبوعياً، ألا وهو يوم الرب. فاستناداً إلى ما كتبه ترتوليانوس، جعل اليوم الأول من الأسبوع - أي يوم الأحد- وفي هذا اليوم يرتاح المؤمنون من أعمالهم ومشاغلمهم الدنيوية. وأصبح هذا اليوم هو يوم العبادة المشتركة لكل المجموعات

المسيحية، حيث تقام صلوات جماعية وأحاديث للمؤمنين في أمور الله. قال ترتوليانوس في هذا الصدد: "لقد جعلنا يوم الأحد يوم احتفال، وخصصناه لنفرح به." (٥) وقد أردف ترتوليانوس قائلاً إن في هذا اليوم يجتمع المسيحيون للاحتفال بالعشاء الرباني. وهم يجتمعون دائماً في مساء أول يوم في الأسبوع، كما كان يفعل نظراؤهم في ترواس حيث وقعت تلك الحادثة المشهورة عندما بقي الرسول بولس يتحدث حتى الفجر. (٦) ويبدأ الأحد، بحسب العادة المتبعة آنذاك. عند الغسق. وعليه، فإن الاجتماع كان يعقد في الوقت الذي ندعوه اليوم "ليلة الأحد". فكانت القناديل تضاء، وكانت تستحضر إلى أذهان الحاضرين، تلك الصورة البهية الرائعة، وهي صورة العشاء الأخير الذي شارك فيه الرب يسوع تلاميذه الإثني عشر، "في الليلة التي أسلم فيها." (٧) وفي أيام الاضطهاد، كان من الأسلم للمؤمنين أن يجتمعوا ليلاً، بينما فضل المؤمنون في مناطق أخرى أن يجتمعوا قبيل الفجر أو في صباح اليوم التالي.

لم يكن العشاء الرباني اجتماعاً شعبياً عاماً، ونادراً ما كان يؤتى على ذكره في الخطابات الموجهة لغير المسيحيين. فالعشاء الرباني، في الواقع، لم يكن معداً إلا لأولئك الذين نذروا أنفسهم للسلوك في طريق الرب، ليذكروه خلال هذا الاجتماع بمحبة، ويقربوا أحدهم من الآخر بإيمان مشترك. الأغنياء والفقراء ومالكو الأراضي والعمال، السادة والخدم، كل هؤلاء كانوا يجتمعون في غرفة كبيرة واحدة، في بيت من بيوت هؤلاء المجتمعين، أو في قاعة خاصة فرزت لهذا الغرض، وهم يأخذون أماكنهم بشوق وترقب، لما سيمنحهم إياه الرب حين يرفعون إليه قلوبهم بالصلاة والدعاء، والبركات التي سيهبها لهم لينقلوها إلى الآخرين.

كانوا إلى هذا يتذكرون أيضاً، كيف أن الرب بعد أن غسل أرجل التلاميذ، جلس واكل معهم العشاء الأخير. وكانوا يعيدون إلى ذاكرتهم كلمات الرب عندما اخذ خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم قائلاً: "هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم. اصنعوا هذا لذكري." (٨) لقد أعادوا إجراء المشهد بأنفسهم، فكسروا الخبز واخذ كل واحد منهم قطعة منه. ثم تذكروا أيضاً كيف اخذ سيدهم الكأس وقال: "هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم." (٩) وعندها نقل المؤمنون الكأس من شخص إلى آخر، وهكذا، حتى رشف الجميع منه رشفة رشفة. وأخيراً فكروا في ما قاله الرب لتلاميذه عندما أوشك أن ينهي عشاءه الأخير معهم: "وصية جديدة أنا أعطيتكم أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضاً لبعض." (١٠) فشعروا آتذ في ما بينهم بشعور مفعم بالنشاط مليء بالحياة، إذ غمرهم حبهم المقدس للمسيح الذي جمعهم برباط قوي ثابت لا يتزعزع.

أخبرنا ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني، وكذلك اغسطينوس في القرن الرابع، إن الزوار الوثنيين والمؤمنين غير المعمدين، كانوا يتركون الاجتماع قبل الاحتفال بذكرى العشاء الرباني. وفي جميع المناسبات التي يحضر فيها أولئك، كانوا يدركون ضرورة المغادرة قبل البدء بالاحتفال بالشعائر الدينية المقدسة، حيث أن هناك أسراراً في هذه الطقوس والشعائر لا يمكن إعطاؤها إلا للذين كانوا في سلام مع الله. (١١) كان المؤمنون يتناولون الخبز والكأس باحترام وتوقير عظيمين، لأنهما يرمزان إلى جسد المسيح ودمه. ويخبرنا ترتوليانوس أيضاً أن الذين يشاركون بذكرى العشاء الرباني،

اهتموا جيداً بالألّ تسقط كسرة خبز إلى الأرض، وألّ تراق قطرة واحدة من الشراب. وعند الانتهاء من اجتماعهم، كانت تؤخذ بعض كسرات الخبز إلى دور أولئك الذين بلغ بهم المرض أو الضعف أو كبر السن حداً منهم من حضور الاجتماع.

بعد الانتهاء من كسر الخبز، كان المؤمنون يُدعون إلى عشاء مشترك يسمى "وليمة المحبة" (Agape). ووصف ترتوليانوس هذه الوليمة هكذا: "عيدنا هذا، تظهر طبيعته من اسمه الذي يعني تناول المحبة في اللغة اليونانية. وفي هذه الوليمة لا يُسمح بأي فساد و خسة في التصرف. نجلس لتناول الطعام، ولكن ليس قبل أن نتذوق أولاً نكهة الصلوات إلى الله، فنأكل بما فيه كفايتنا، ونتحدث بعضنا إلى بعضنا الآخر، ونحن نعلم أن الله يستمع إلى كل ما نقوله." (١٢)

كان المسيحيون يأتون بعطايا ما أنعم به الله عليهم من خبز وفاكهة وغير ذلك، كلٌ حسب استطاعته، وكانت هذه الهبات تشكل أساساً للوليمة العامة. أما الزائد من الطعام، إضافة إلى النقود التي يقدمها الواهبون، فقد كانت تعطى للمحتاجين من أعضاء الكنيسة، كالأيتام والأرامل الذين ليس لهم من يعيلهم. وكذلك الحال بالنسبة إلى الذين يعانون جروحاً أو أمراضاً بالغة الخطورة ولم يعودوا يقوون على العمل، أو الذين فقدوا الرزق وأسباب العيش وسبله، بسبب إيمانهم بالمسيح، وهم يجتازون أزمات إذ يبحثون عن عمل آخر. على أن قسماً من المال كان يدّخر لتجهيز متطلبات الضيافة التي تقدم للمسيحيين المسافرين، أو يعطى لأولئك الذين سرقت أموالهم أو نجوا من الموت في أسفارهم البحرية وأضاعوا كل شيء. أو لدفع نفقات جنازات الموتى الفقراء من أعضاء الكنيسة. وأحياناً نقرأ عن مال استعمل لافتداء مسيحيين سجنوا بسبب إيمانهم،

أو أرسلوا في عقوبات تتراوح بين الأشغال الشاقة والعبودية. وفي بعض الأحيان كانت ترسل مساعدات إلى كنائس في أماكن أخرى خلال أيام المجاعات أو الضيق والحرب. وهذا ما أكدته ترتوليانوس بقوله: "هذا، كما يبدو، هو مخزوننا ورصيدنا من اللطف. فنحن لا نصرف من رصيد هذا المال لإقامة احتفالات الأكل والشرب، ولا لإحياء حفلات اللهو المبتذل والصاحب، بل لإطعام الفقراء أو دفنهم. كما نساعد الأولاد والبنات الأيتام المحرومين. وكذلك العجزة المقعدين بسبب المرض، أو أولئك الذين ضاع منهم كل شيء بعدما نجوا من الموت في رحلاتهم البحرية. أو ندفعه فدية لأولئك الذين في المناجم (الذين حكم عليهم بهذا العمل لأهم مسيحيين)، أو من ابعدوا عن الوطن إلى جزر نائية أو أودعوا السجن." (١٣)

كان من المستحب أن يساهم كل عضو من أعضاء الكنيسة في تقديم التبرعات التي يمكنه أن يتبرع بها، ولم يكن هذا التبرع إلزامياً، كما أن هذه التبرعات لم تكن أجوراً أو تعويضاً لما يقدم للمتبرع أو المتبرعة من بركات روحية. قال ترتوليانوس: "ليس لأمر الله أي ثمن. مع أن لنا نوعاً من صندوق المال، لكنه ليس لجمع أجور أو اشتراكات رسمية أو دينية ثابتة. كان كل منا يتبرع تبرعاً صغيراً في اليوم المحدد من كل شهر، أو في أي يوم يختاره المتبرع بنفسه، ويتم هذا التبرع حسب إمكانيته المالية، كما أن هذا التبرع كان اختياريًا." (١٤) وحيث عرفوا انه "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ" (١٥) كان المتبرعون مسرورين للمساهمة قدر المستطاع، وذلك بموجب تدبير الله وإرشاده. كتب بولس الرسول: "كل واحد كما ينوي بقلبه ليس عن حزن أو اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الله." (١٦)

لقد علمَ المسيحيون أن الممتلكات والمقتنيات ليست سوى وديعة مقدسة يجب أن تدبّر بالصلاة، وتدار بحكمة وروية وتعقل، للحصول على هدايته تعالى وتوجيهاته. وكلّ ما يحصل عليه الرجل أو تحصل عليه المرأة من الرب، يجب استعماله بشرف وأمانة ومن دون تفاخر أو تباهٍ. إن الإنسان ليس إلاّ وكيلاً مشرفاً مسئولاً، وسيكون عرضة للمحاسبة أمام كرسي الحكم يوم الحساب. وعليه، يجب أن يصرف الإنسان عطايا الله بحذر وتؤدّة، ولمصلحة ملكوته جلّ جلاله.

وحتى الفقراء، فإن حالهم كحال غيرهم من الأغنياء، فهم عرضة ليحاسبوا أمام الله عن كل ما يجوزتهم، مهما كان متواضعاً. فهناك دائماً من هو بأمرس الحاجة إلى المساعدة، ولم يجرم أحد من امتياز خدمة الخرومين ومن بركة جمع كنوز لنفسه في السماء. فكل واحد يساهم "بما تيسر" بحسب طاقته. (١٧) ألسنا نعتبر من الفلاسين الذين ألقتهما الأرملة الفقيرة حيث قال عنها يسوع: "الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألفت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة. لأن الجميع من فضلهم ألقوا. أما هذه فمن إعوازاها ألفت كل ما عندها كل معيشتها." (١٨) كان هناك الكثير من الأرامل في كنائس شمال أفريقيا اللواتي حذون حذو هذه الأرملة الفقيرة. لقد كان كترهن قليلاً في هذه الدنيا، ولكنه كان كبيراً في الجنة.

على أن مثاليات المسيحيين تحطت حدود المادة إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. فوصلت إلى حد تكريس شخصية متفانية للغاية. لقد كرس الأفراد أوقاتهم وقواهم الجسدية وقدراتهم الأخرى للعمل الإلهي. فهناك أساليب عديدة يستطيع المؤمن عن طريقها أن يخدم الآخرين في الكنيسة.

أوضح العهد الجديد ذلك بالقول: "لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى وانتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضهم بعضاً." (١٩) وليس مرة واحدة فقط في الأسبوع "بل عظوا أنفسكم كل يوم" (٢٠) كان هناك كثيرون في حاجة إلى هذا الوعظ والتشجيع، وكان من بينهم أناس حديثو الإيمان مازالوا يتخبطون في شكوك وأسئلة تحتاج إلى حل. كما كان بعض المؤمنين القدامى يعانون آلاماً مبرحة: سيد قاس غليظ، زوجة وثنية تتدمر وتشكو باستمرار، زوج وثني مستبد متعطر، وربما مرض مزمن أو عمى أو شيخوخة. لقد كان على المسيحيين "افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم." (٢١) ومهما واجهوا من مشاكل وعقبات في البيت الذي يزورون أصحابه، فهناك دائماً مصدر لا ينضب ولا يكلّ يقف في وجه هذه الحاجات البشرية: إنه محبة الله نفسه. فالله قريب دائماً ممن يحتاج إليه، وقد أوصى الكتاب المقدس المؤمنين قائلًا: "مصلين بكل وطلبية كل وقت في الروح وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة وطلبية لأجل جميع القديسين" (٢٢) وكانوا يحصلون على استجابات كثيرة لصلاتهم.

كان بإمكان المرأة، بشكل خاص، أن تعمل أموراً كثيرة، عندما يكون زوجها مشغولاً في العمل، وفي متطلبات الحياة الأخرى. كانت صديقات النسوة وجاراتهن يرحبن بهم في دورهن. وكنّ دائماً، يتركن خلفهن انطباعاً طيباً للغاية. فالمرأة المسيحية المؤمنة كان لها تقدير كبير بسبب ما أعطاهها الله من زينة روحية عميقة في "زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدام الله كثير الثمن." (٢٣) هي لطيفة عطوف، تصغي جيداً وبكل أدب، وهي إلى ذلك صديقة مخلصه. ومثل تينك النساء يكن بركة حيثما ذهبن. كانت "مشهوداً لها في أعمال صالحة.... ربّت الأولاد، أضافت الغرباء، غسلت أرجل

القديسين، ساعدت المتضايقين، اتبعت كل عمل صالح." (٢٤) إن هذه الخدمة التي قدمتها النساء لأولاد الله، قُبلت وكأنها خدمة للرب يسوع المسيح نفسه. "يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشاً فأسقيناك. ومتى رأيناك غريباً فأوبناك. أو عرياناً فكسوناك. ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك." فيجيب الرب يسوع ويقول لهم: "الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الصغار ففي فعلتم." (٢٥)

كان المسيحي قبل أن يسافر إلى بلدة أو مدينة أخرى، يسأل أصدقائه إن كانوا يعرفون أحداً من تلاميذ المسيح أو أتباعه في تلك الديار التي سيزورها. وبعد أن يزوده المؤمنون باسم أحد القادة أو النظار في الكنيسة هناك، أو بموقع أو مكان عمله، كان المسافر يقصده حالما يصل إلى المكان. فإذا لم يتمكن الناظر شخصياً من الاعتناء بالزائر، فإنه كان يجد له مأوى مع عائلة مسيحية أخرى. فالتزل أو الفندق الصغير في تلك الأيام، كان مأوى معروفاً للرديلة والدعارة، يكثر التردد إليه. لذا لم يكن المؤمنون يرسلون إليه. لقد كانت إضافة الغرباء واجباً ضرورياً وعاملاً مطلوباً من المسؤولين في الكنيسة. "لأنه يجب أن يكون الأسقف (الناظر) بلا لوم.... بل مضيئاً للغرباء." (٢٦)

ولكن بنمو الكنيسة، اعتاد بعض اختالين، أن يستغلوا أحياناً، المسيحيين ولطفهم. ولنع ذلك، فقد أصبح من الضروري على المسافرين الغرباء أن يتزودوا بكتاب تعريف موقع من احد شيوخ الكنيسة. وحتى بالنسبة إلى النظار الذين يسافرون لحضور المؤتمرات في قرطاجة أو غيرها من المدن، كان لزاماً أن يعرف بهم ناظر آخر واحد على الأقل قبل أن يؤذن لهم بالدخول. فقط كبار القادة المشهورين، لا يحتاجون إلى شهادة أو تعريف، لأن مثل هؤلاء تشهد ثمار حياتهم وسيرتهم عن الإيمان. والرسول بولس يسأل في هذا

الجال مباحاً: "أبتديئ فمدح أنفسنا، أم لعلنا نحتاج كقوم رسائل توصية إليكم أو رسائل توصية منكم. أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس." (٢٧)

كان مسيحيو شمال أفريقيا الأولون يعمدون من يهتدي إلى الإيمان، كما فعل يوحنا المعمدان، وذلك بتغطيس المهتدي في الماء. وترمز هذه المعمودية قبل كل شيء، إلى بداية نقية منتعشة حية، أي أنها رمز موت الإنسان القديم وقيامه الإنسان الجديد، زوال الخاطئ وظهور الإنسان المبرر. لأنه كما يغسل الماء الجسم، كذلك يعمل غفران الله على تنقية الضمير. وغالباً ما كان المسيحيون يعمدون في الجداول والأنهار وفي بعض الأحيان يعمدون في البحر. لم تكن الأحواض الخاصة بالمعمودية قد استتبطت بعد، لأنها لم تعرف إلا في بداية القرن الرابع للميلاد، وقد شيدت خصيصاً لهذا الغرض، وزودت بدرجات تقود المرشح إلى داخل الماء. هذا، وإن بعض تلك البرك شيد بشكل يمكن إضرام نار تحت أرضيتها لتسخينها.

كانت المعمودية مناسبة عظيمة توقع الرهبة في النفوس، وكان المقبلون على المعمودية يستعدون لها بالصوم والصلاة. كما كان المؤمنون يعترفون بخطاياهم علانية أمام الجميع، ويتبع ذلك، الابتعاد عن توافه إبليس وإغرائه. بعد كل ذلك يقاد المرشحون للمعمودية إلى الماء. وعندما يقف المرشح للمعمودية أمام الماء، يُسأل عن مدى إيمانه. فيؤكد ثقته بيسوع المسيح ويعلن عن رغبته في أن يتبعه بإخلاص وإصرار. ثم يُغطس في الماء، باسم الآب، والابن، والروح القدس. وفي بعض الأحوال، إذا كان المرشح طاعناً في السن أو عاجزاً واهن القوى، أو إذا لم يكن هناك مكان ملائم

للغطس، يمكن إجراء المعمودية بسكب الماء فوق رأس المؤمن باسم الآب وباسم الابن
ثانياً، وأخيراً باسم الروح القدس. (٢٨)

ففي زمن كتابة العهد الجديد، كان أولئك الذين آمنوا يعمدون فور إعلان
إيمانهم ومجاهرتهم به. ومثال على أولئك المؤمنين الوزير الأثيوبي وكرنيليوس قائد المائة،
وليديا والسجان الفيلبي. فجميع هؤلاء اعتمدوا في اليوم ذاته الذي سمعوا فيه البشارة،
وآمنا بالرب يسوع المسيح. لقد قبل هؤلاء الرسالة بصدق وإخلاص واعتمدوا فور
قبولهم لها. كانت البشارة في عهد الرسل مثيرة، وعملها سريع وفوري، وزخم هذا
التبشير لا يطيق التأخير أبداً. لم ترفض الكنيسة أن تحقق أمنية هؤلاء الذين رغبوا في
إعلان إيمانهم أمام الملائكة وبشكل مفتوح. (٢٩) ولكن مع الوقت بات واضحاً، وللأسف،
أنه يمكن للإنسان أن يطلب العماد من دون أن يكون لديه مثل هذه الحوافز النقية
الخلوصة. وحتى في العهد الجديد نفسه، نجد أن الساحر المشعوذ سيمون، الذي كان
إيمانه بكلمة الله ظاهرياً فقط، قد اعتمد كبقية المؤمنين. ولكن سرعان ما اتضح أن
أغراضه كانت غير نقية، وفهمه للإيمان كان مضطرباً وباطلاً. ونفهم من كلام بطرس
لسيمون انه إذا كان قد طلب المعمودية من دون أن يكون جديراً بها، فهو وحده
يتحمل الذنب ويستحق أن يعاقب على تصرفه. (٣٠)

كان من المفضل تجنب مثل هذه الحالات الشاذة، لذلك وجدت كنائس القرن
الثاني للميلاد أنه من الحكمة أن توجل المعمودية، على الأقل، حتى يناقش كل من
يرغب في المعمودية مبادئ الإنجيل مع قادة الكنيسة، ويفهمها بعمق. فبدأت الكنيسة
تعطي دروساً نموذجية لأولئك الذين يطلبون المعمودية، متأكدة في الوقت عينه من أنهم

قد بدأوا يدركون أهمية الخطوة التي يريدون أن بخطوها. وكان لهذا الأمر أهمية كبرى في تلك الأيام، حيث كان الإيمان بالمسيح والاعتراف به جهراً، يكلف صاحبه أحياناً حريته أو حياته، كما أن قبوله في جماعة المسيحيين قد يكلف الآخرين حريتهم أو حياتهم في حال برهن هذا الشخص أنه خائن أو صانع شغب. قال ترتوليانوس: "يجب أن يعلم المسؤولون عن المعمودية أنه لا يجوز أن يجروا هذه المعموديات من دون تبصر أو روية، لذا فإنه من المفيد تأخير المعمودية، لدرس حالة وشخصية كل مرشح للمعمودية يتمهل." (٣١) وقد نصح ترتوليانوس بعدم تعميم أولئك الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد، خشية أن يتعرض إيمانهم للتجربة إذا ما واجهوا تجارب المراهقة وإغراءاتها، فيجلبوا العار على اسم المسيح. وأضاف ترتوليانوس يقول: "إن أولئك الذين يستمعون إلى كلمة الله، عليهم أن يكونوا مشتاقين للحصول على المعمودية، لا أن يطلبوا المعمودية بسرعة، وكأنها حق لهم، فالمشتاقون للمعمودية يشرفونها، أما أولئك الذين يطالبون بها بسرعة فسيزدرون بها سريعاً.... إذاً، فالأول يشناق أن يكون مستحقاً لها، بينما الثاني يظن أنه مستحق لها ويعتبرها من حقه." (٣٢)

وبحلول القرن الثالث للميلاد، أصبحت فترة تحضير الأشخاص وتعليمهم واختبارهم تمتد إلى ستة أشهر ثم إلى سنة، وفي بعض الأحيان وصلت مدة الاختبار إلى ثلاث سنوات، إنَّ الوقت المقترض للمرشح يختلف من مكان إلى آخر. فالكنائس الكبرى كانت تعين معلمين مخصصين لتعليم مرشحي المعمودية على أساس عقيدة الإيمان. وكل من كان يقدم طلباً ليتعمد كان يسأل أولاً لماذا يريد أن يتعمد. وبعدها يتم الاستفسار عن تجارته أو مهنته، فإذا كان عمله يظهر تعارضاً مع الإيمان المسيحي،

كان عليه أولاً أن يتخلى عن ذلك العمل قبل أن تجرى مراسيم معموديته. وبعد أن يعتمد، يمكنه أن يشارك في العشاء الرباني، أو أن يشارك مشاركة كاملة في حياة الكنيسة.

منذ البدايات الأولى، كان قادة الكنائس يواجهون ذلك السؤال الصعب عمّا يجب عمله بأولئك الذين يقعون في خطيئة خطيرة بعد معموديتهم. وهذا الأمر لم يكن بهم قادة الكنائس وحدهم، بل أيضاً جميع المهتمين بسعادة إخوتهم وأخواتهم في المسيح. وقد كان هدف التهذيب الروحي هو أن يذلل الآثمون إلى طريق التوبة والرجوع إلى الرب. كتب الرسول قائلاً: "إن انسحق إنسان فاخذ في زلة ما فأصلحوها انتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ناظراً إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً." (٣٣) فإذا ما وجد المسؤولين أية علامة من علامات التوبة الحقيقية والعزم على أن لا تتكرر المعصية، عندها يرحب بعودة الآثم إلى جماعة المؤمنين والكنيسة. ويجب عندها أن يسامح ويقبل في الكنيسة من جديد. قال بولس الرسول: (تسامحونه بالبحري وتعزونه لئلا يبتلع مثل هذا من الحزن المفرط." (٣٤) ولكن من ناحية أخرى، إذا لم تظهر علامات تدل على الندم الحقيقي، أو رغبة حقيقية في إطاعة كلمة الله، يجب استثناءه من عضوية الكنيسة واجتماعاتها. "أما الآن فكنتبت إليكم إن كان أحد مدعواً أخاً زانياً أو طماعاً أو عابداً وثناً أو شتّاماً أو سكيراً أو خاطفاً، أن لا تحالطوا ولا تتواكلوا مثل هذا." (٣٥)

والواضح من كل ذلك، أن المؤمن المعمد، الذي وجد متورطاً بخطيئة الزنا، أو عبادة الأوثان، كانت الكنيسة تعامله بأكثر قسوة من المؤمن الجديد الذي أفلت حديثاً من هذه الأمور التي ما تزال تمارس تأثيرها فيه. أما الوثني الذي كان على حافة الجماعة

المسيحية، كهؤلاء الذين كانوا مرتبطين ببعض أعضاء الكنيسة قبل إيمانهم، فقد كانت الكنيسة تعاملهم بلطف وصبر إذا ما وقعوا في الخطيئة والرذيلة. فلم يكن أمراً مفاجئاً أن يرتكب هؤلاء الوثنيون الزنا أو أن يعبدوا الأصنام، لأنهم لم يعرفوا بعد طريق الله ولا اختبروا قوة روحه في قلوبهم.

وقد كتب ترتوليانوس في أواخر القرن الثاني للميلاد، كيف أن المسيحيين كانوا جديين في التشديد على مسألة التهذيب والانضباط، وكذلك في دعوة بعضهم بعضاً إلى المحافظة على نقاوتهم وقداستهم: "نحن جسد متحد بمعتقداتنا الدينية، وبتهديبنا المقدس، وبرباط الرجاء. إننا نقوم بالوعظ والتنبيه والتوبيخ الروحي لأننا نضطلع بمسؤوليات الحكم مجدية ورزانة كبيرة، عالين في المطلق إننا تحت نظر الله. وحينما يخطئ شخص بشكل كبير يجعلنا نقصيه عن المشاركة في صلاتنا واجتماعاتنا، ومن كل شركتنا المقدسة، فإننا نكون بذلك قد أعطينا صورة عن يوم الحساب العظيم الآتي." (٣٦)

فإذا ما استثنى مسيحي ما من العبادة في الكنيسة ومن العشاء الرباني، فإن مثل هذا العقاب يبدو مرعباً، وفي ذلك الوقت نقرأ عن أناس استمر حرمانهم مدة عشر سنوات أو عشرين، مع ما يشمل ذلك من الذل الهوان من أجل إعلان توبة حقيقية صادقة، والاستعادة قبوله في شركة شعب الله. كتب لنا ترتوليانوس أنه يجب على المؤمن الذي أخطأ إلى الله عمداً أن يُظهر توبته باعتراف شامل بخطاياها، وأن يمتنع عن كل المذات، وأن يصلي بشكل دائم ويصوم، وأن يناشد الإخوة أن يصلوا من أجله وعندئذ فقط يتأكد أنه لن يسقط في الخطيئة من جديد. (٣٧) أما أوريجانوس الذي كتب في الفترة نفسها، فقد قال إن المسيحيين الذين سقطوا في خطيئة شنيعة، لا يمكن

إعادة قبولهم في جماعة المؤمنين إلا بعد فترة طويلة من الاختبار الذي يمكن من خلاله معرفة ما إذا كانت توبتهم توبة حقيقية، على أنه لا يمكنهم في ما بعد أن يأخذوا مركزاً أو رتبة قيادية في الكنيسة على الإطلاق. وقد أضاف ترتوليانوس إلى ذلك قائلاً إن القائد الروحي مجرد من وظيفته ومسؤولياته نتيجة زلة أو هفوة واحدة، ولا يمكن أن يعاد إلى رتبته مرة ثانية بعد ارتكاب مثل هذه الزلة أو الهفوة، وقال مضيفاً إنه لأمر حيوي جداً، أن يمارس كل المسيحيين ما يعظون به. ويجب بكل وضوح، أن يظهرُوا للناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم، أنه لا يجوز النفاق والرياء في الكنيسة ولا يسمح بهما. ولهذا السبب لا تُقبل داخل الجماعة المسيحية إلا المستويات العالية من الفضيلة.

أما في المدن الصغيرة والقرى، فقد استمرت اجتماعات المؤمنين في البيوت أو الحقول والغابات. على أنه في أواخر القرن الثاني للميلاد، وبالرغم من الاضطهادات والمضايقات التي ابتليت بها جماعات المؤمنين أُفرزت أبنية خاصة للعبادة في المدن الكبرى. إن أبنية الكنائس في أفريقيا الشمالية تشابه بيوت السكن العادية التي يعيش فيها عامة الناس، في ما عدا وجود غرفة مركزية كبيرة. وغالباً ما تكون هذه القاعة مقبية، وفيها مقاعد أمامية مرتفعة، وهي مخصصة لأولئك الذين يقودون الاجتماعات. ويجهز جزء من هذه الغرفة "لمائدة الرب" التي يوضع عليها الخبز والشراب في أوقات العبادة. أما زينة القاعة، فبسيطة كبيوت المؤمنين العادية، وليس هناك أكثر من رسم بسيط يبين مشهداً خاصاً بالكتاب المقدس أو رمزاً للطريق المسيحية، مثل لوحة جميلة من المرمر تمثل الراعي الصالح، وقد وجدت هذه اللوحة في مقبرة تحت الأرض في مدينة سوسة بتونس.

ولكن يظهر أن الرمز المفضل عند المسيحيين الأوائل كان "رمز السمكة". فإن العبارة اليونانية "إخثوس" (Ichthus)، تشتمل على حروف استهلاكية باللغة اليونانية للكلمات الخمس: يسوع المسيح ابن الله المخلص. ويتحدث ترتوليانوس عن هذا الرمز بشغف، حيث أن الرمز بحد ذاته هو اعتراف ضمني بأن يسوع المسيح هو المخلص المنتظر وابن الله المتجسد. ولذلك فالمؤمنون يحملون هذا الرمز بافتخار. كان مسيحيو إفريقيا الشمالية يحبون أن يزينوا آلياتهم وأدواتهم وكذلك بيوتهم ومدافنهم بهذا الرمز، أو يرسمون عليها مرساة أو يمامة. ولم يظهر الصليب في الفن المسيحي لشمال أفريقيا إلا في أواخر القرن الرابع للميلاد. (٣٨) والواقع، إن في ذلك عجباً، لأن الصليب كان شيئاً معروفاً وشعبياً في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية. ففي هرقلانيوم في جنوب إيطاليا (Herculaneum)، وجدت آثار نموذج للصليب مدفونة في الحمم اللابية لثورة البراكين التي وقعت في سنة ٧٩ ميلادية. ولربما لم يستعمل رمز الصليب في شمال أفريقيا إلا قليلاً، لأنه يشابه كثيراً المثلث، الذي يرمز إلى الآلهة الفييقية تانيت.

لم يتبن الوثنيون المهتدون إلى المسيحية استعمال الأسماء المسيحية قبل حلول القرن الثالث أو الرابع الميلادي. وقد استخدموا أحياناً الأسماء المذكورة في الكتاب المقدس أو غيرها من أسماء وثنية كان يحملها أناس استشهدوا ببطولة في سبيل الدين المسيحي في الماضي أو أسماء بعض مشاهير المؤمنين المسيحيين. ومن الواضح أنهم كانوا يختارون أسماءهم بعناية. وبعض هذه الأسماء تعبر عن صفات شخصية كالاتضاع أو الصبر، وأخرى تتحدث عن السرور والنصر والحياة الأبدية. (٣٩) ولكن قبل هذا

التاريخ، وإبان القرنين الأول والثاني، أبقى المهتدون أسمائهم الوثنية بشكل عام، حتى وإن كانت هذه الأسماء تشير إلى آلهتهم الوثنية التي سبق وأن عبدوها. فإذا غير المهتدي اسمه، فإن ذلك سيكون برهاناً عملياً عن تحوله إلى المسيحية ورفض الآلهة التي كانت تدعم المجتمع. وعلى إثر ذلك قد يغضب الأهل الوثنيون، كما أنه قد تتاح بذلك الفرصة للعديد من لإحياء الضغائن ضد المسيحيين، كل ذلك لا لأجل مبادئ روحية، بل بسبب أسماء ليس إلا. كان من الأفضل إظهار حقيقة حب الله العملية، وذلك بحياة شريفة غير أنانية، واجتذاب الأصدقاء والجيران إلى الإيمان بالرب بهدوء وبملاء إرادتهم. لقد تبنى المسيحيون الأوائل نصيحة بطرس الحكيمة بمجدية: "قدسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة وخوف." (٤٠) لكن، وبمرور السنوات وبينما كانت جماعة المؤمنين تنمو وتزدهر باطراد، رفض أعضاؤها أن يخفوا ضوء الإيمان تحت المكيال، وبشجاعة كانوا يشهدون، بالأسماء التي كانوا يحملونها، للرجاء الذي نذروا أنفسهم لأجله.

حواشي الفصل:

١. ١ (تيموثاوس ٤ : ١٣)
٢. *Apologia I:٦٧(ANF Vol.I)*
٣. *Apologeticus ٣٩*
٤. إن عيد الميلاد، أي يوم ذكرى ميلاد المسيح، أضيف ابتداءً من القرن الرابع، إلى الأعياد التي كان يحتفل بها المسيحيون.
٥. *Apologeticus ١٦; Ad Nationes ١٣*
٦. (أعمال ٢٠ : ٧)
٧. ١ (كورنثوس ١١ : ٢٣)
٨. (لوقا ٢٢ : ١٩)
٩. (لوقا ٢٢ : ٢٠)
١٠. (يوحنا ١٣ : ٣٤ و٣٥)
١١. **Hamman p.٢٣٩; Foakes-Jackson p.٢٣٠.**
- ٢٣٦-٢٢٩ pp.
١٢. *Apologeticus ٣٩.*
١٣. *Apologeticus ٣٩.*
١٤. *Apologeticus ٣٩.*
١٥. (أعمال ٢٠ : ٣٥)
١٦. ٢ (كورنثوس ٩ : ٧)

١٧. ١ (كورنثوس ١٦ : ٢)؛ ٢ (كورنثوس ٨ : ٢)
 ١٨. (مرقس ١٢ : ٤٣ و ٤٤)
 ١٩. (كولوسي ٣ : ١٦)
 ٢٠. (عبرانيين ٣ : ١٣)
 ٢١. (يعقوب ١ : ٢٧)
 ٢٢. (افسس ٦ : ١٨)
 ٢٣. ١ (بطرس ٣ : ٤)
 ٢٤. ١ (تيموثاوس ٥ : ١٠)
 ٢٥. (متى ٢٥ : ٣٧-٤٠)
 ٢٦. (تيطس ١ : ٨ و ٧)
 ٢٧. ٢ (كورنثوس ٣ : ١ و ٢)

Foakes –Jackson p.٢٣٠-٢٣١.٢٨

٢٩. (أعمال ٢ : ٣٨ و ٤١)؛ (٨ : ١٢ و ٣٨)؛ (١٠ : ٤٨)؛ (١٦ : ٣٣)
 ٣٠. (أعمال ٨ : ٩-٢٤)

De Baptismo ١٨.٣١

De Poenitentia ٦.٣٢

٣٣. (غلاطية ٦ : ١)
 ٣٤. ٢ (كورنثوس ٢ : ٧)
 ٣٥. ١ (كورنثوس ٥ : ١١)

***Apologeticus* ٣٩.٣٦**

***De Poenitentia* ٩.٣٧**

٣٨. كان المسؤولون الايطاليون الذين كتب إليهم ترتوليانوس في نحو العام

١٩٨م، على علم بأن رمز الصليب هو مستخدم في العبادة المسيحية. إلا أن

ترتوليانوس كان يشير إلى عادة أوروبية، وليس بالضرورة إفريقية.

(Ad nations ١:١٢; Apologeticus ١٦)

٢٨٣-٣٩، Latourette Vol. I pp.٢٦١.٣٩

١.٤٠ (بطرس ٣: ١٥)

الفصل السابع انتصار الحق

وفي حوالي ١٦٠ للميلاد، وفي مدينة قرطاجة، ولد طفل لقائد مئة كان يعمل في خدمة الحاكم الروماني. وقد دعي هذا الطفل كونتوس سبتيميوس فلورنس ترتوليانوس (Quintus Septimius Floens Tertullianus). ولم يكن أبواه يدركان أن ولدهما هذا سيصبح شخصية رفيعة المقام والنفوذ في أبناء جيله بشمال أفريقيا. لقد حظي ترتوليانوس بتعليم ممتاز، وتخصص بعلم الفلسفة والقانون. انغمس في شبابه انغماساً متهوراً بالرديلة المفرطة التي كان يمارسها المجتمع الوثني. كذلك كانت تمارس الطقوس الدينية الوثنية، ولكنه لم يفكر كثيراً في معاني هذه الطقوس أو في مغزاها.

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، قاده الأحداث إلى أزمة شخصية. كانت السلطات الرومانية، ولفترة من الوقت، تراقب عن كثب، نمو الجماعة المسيحية في قرطاجة وتطوره، بريية وشك متزايدين. فلم يكن المسيحيون يشاركون في التقدّمات العامة، ولا كانوا يخلفون بالعظمة السامية للإمبراطور. فجأة، ألقى القبض على عدد من هؤلاء المسيحيين، وأمروا بأن يخضعوا. وقد تأثر ترتوليانوس جداً من الشجاعة الخارقة التي أبدتها المسيحيون في مواجهة الآلام القاسية التي كانت تصدرها السلطات الوثنية بحقهم. كان يعرف هؤلاء الرجال والنساء المسيحيين جيداً، ويدرك تماماً أنهم أبرياء من أي فعل سيء. كان المسيحيون قوماً شرفاء أفضل كثيراً في الواقع من الوثنيين الذين كانوا يسيئون إليهم. وها هو الآن، يشاهد بأم عينيه كيف يرفض هؤلاء المسيحيون أن

يتنكروا لمعتقداتهم وإيمانهم، بينما يواجهون الموت الجسدي بثقة وشجاعة باسلة، مؤمنين بأنهم سيقومون من الموت ثانية. هذا الإيمان الواثق لم يجده ترتوليانوس في وثيقته السطحية المبادئ. كان عند المسيحيين، وبكل وضوح فرح من نوع آخر وأعمق من ذلك الذي كان ينشده الناس في التسلية اللا أخلاقية في قرطاجة. كانت وجوه المسيحيين تشرق إشراقاً نبيلةً هادئةً، وتسمو بهم فوق مستوى الرعاع، وفوق مستوى معذبيهم الرومان. وعندما كان ترتوليانوس يتأمل هذه الأمور ومضامينها، كان يزداد اقتناعاً، بأن هذه الحفنة من الرجال والنساء، كان لا بد من أنهم يملكون شيئاً جديداً لا يقدر بثمن. فإذا كان درب المسيح هو الحق، فليس أمامه إذاً، سوى طريق واحد يمكنه السلوك فيه.

لم يكن ترتوليانوس ليقبل بأنصاف الحلول، وقد تكشفته هذه الصفة فيه بعدما اعتنق المسيحية، حيث كان اندفاعه حماسياً متقدماً، وإيمانه حاداً، كما كانت مواصفاته عادة. لقد غيره إيمانه الجديد بشكل جذري.

فحياته التي كانت بلا أهداف تُذكر، أخذت اتجاهاً ثابتاً وراسخاً، وشخصيته التي كانت متقلقلة صارت ثابتة، وأفكاره التي كانت متقلبة أصبحت مستقرة على المبدأ الذي عرفه أنه مبدأ قويم وحق. وشعر كأنه إنسان جديد، ورجل كامل، وكان شعوره صادقاً. وفي ما بعد، كتب يقول: "يُصنع المسيحيون ولا يولدون هكذا." (١) وحقاً كان هذا اختباراً الشخصي. هذا، وإن مخيلته الخصبية كانت تشده باستمرار إلى طريق المسيح. أخيراً وجد السبب الذي من أجله كانت نفسه الحيوية والحساسة تصرخ

باستمرار: إنه الهدف الذي يستحق أن تُكرّس له الحياة والطاقت كلها. لقد وضع يده على الحراث، ومنذ الآن فصاعداً، لن ينظر ترتوليانوس إلى الوراء أبداً.

إن كانت الرسالة المسيحية هي التي صنعت الرجل، يبقى أن الرجل كان أيضاً نافعاً للقضية التي تبناها. ولم تمض إلا فترة وجيزة على انتهاء ترتوليانوس إلى طريق الحق، حتى باشر التبشير بالإيمان وتعليمه في قرطاجة، وكانت دعوته هذه ناجحة، بحيث أنه لم يعد لديه الوقت لممارسة البلاغة والفصاحة في مهنة المحاماة. فقد خصص وقته الكامل لخدمة الإنجيل، متكللاً على الله بكل بساطة لسد كل احتياجاته. بدأ ترتوليانوس يكتب عن الحياة الجديدة التي كان الله يكشفها له، ومن هذه البداية أظهر ترتوليانوس حبه لوطنه أفريقيا الشمالية، وبالخص لقرطاجة وطنه الأم.

وككاتب مسيحي مؤمن، يقف ترتوليانوس وحيداً تقريباً بين بني جيله. لقد ضاعت بعض كتاباته، وخصوصاً كتاباته الأولى، وبعض الكتابات باللغة اليونانية. أما ما تبقى له من كتابات، فهو كثير نسبياً، على الرغم من أن معظمها قصير وموجز. كانت هذه الكتابات عملية موضوعية، تعالج التساؤلات الملحة التي كانت تواجه المسيحيين في تلك الحقبة من الزمن، وكانت تشمل عدداً كبيراً من المواضيع. وهذه الكتابات تعطي كمية وافرة من المعلومات القيمة عن المجتمع الوثني والمسيحي في أفريقيا الشمالية إبان الفترة الأخيرة من القرن الثاني للميلاد.

كانت باكورة أعماله الرئيسية بل أعظمها، كتاب علم الدفاع عن المسيحية أبولوجتيكوس أو أبولوجي (Apologie). وقد كتب هذا الكتاب في نحو سنة ١٩٨ ميلادية، خلال الحكم الاستبدادي للإمبراطور المتوحش المدعو سبتيميوس سفيروس. إن

هذا الكتاب هو تقديم ممتاز للإيمان المسيحي، لم يكن معالجة أكاديمية موجهة إلى إمبراطور مثقف، ذي ذوق فلسفي أو أدبي رفيع، بل كان تنفيذاً عنيفاً، كتب إبان فترة الاضطهاد، لحكام رفضوا أن يصغوا، ولو إلى كلمة تقال في الدفاع عن المسيحية، وحكموا على المتهمين لمجرد اعترافهم بأنهم مارسوا ديناً غير مرخص به وهم يرفضون تركه. إن العنوان أبولوجيتيكوس لم يكن يعني "اعتذاراً" أو "أسفاً" أو تبرئة من إثم مرتكب، كما تفيد هذه الكلمة الفرنسية بمعناها الحديث، بل يمثل على نقيض ذلك، إثباتاً منطقياً لوجهة نظر معينة، مقروناً ببرهان منطقي لصحتها وشرعيتها، وبينات مقنعة لقبوليتها.

يبدأ ترتوليانوس دفاعه بإظهار بطلان عملية إلقاء القبض على المسيحيين وكأنهم مجرمون، وقد كان القضاة يعدّبونهم، لا ليعترفوا بجرائم خفية غامضة ارتكبوها، بل لإجبارهم على التناكس لإيمان نزيه. قال ترتوليانوس: "أما الآثمون الآخرون، فإنهم يُعدّبون من أجل حملهم على الاعتراف. فلماذا يجري تعذيبنا نحن، فقط لننكر ما نعلنه بملء إرادتنا؟" (٢) ثم يتساءل عن السبب وراء عداة الناس المتحمس والموتور ضد المسيحية والمسيحيين. إن التحامل العالمي الشامل ضدنا هو في الواقع غير منطقي ولا أساس له. إن الأشخاص الذين نعيش بين ظهرانيهم يعلمون هم أنفسهم أن المسيحيين هم أفضل ما يمكن أن يقابلوا من رجال ونساء، ومع ذلك يحتقرونا. يقولون: "إن الإنسان كابوس سيوس هو رجل طيب لكنه مسيحي." ونسمع أيضاً: "أنا اندهش لأن هذا الرجل الفطن المدعو لوكيوس تيبوس قد اعتنق المسيحية." (٣) ثم تحدّاهم ترتوليانوس مستفسراً لماذا الأزواج والآباء والسادة يفضلون أن يبقى أبنائهم وزوجاتهم وخدمهم الوثيون

مخادعين ومتمردين بدل أن يصبحوا مسيحيين صادقين ومحترمين. هل من المعقول أنهم يفضلون العيش مع زوجة وثنية محتالة أو ابن أو خادم مخادع وثني، بدلاً من العيش مع شخص مسيحي شريف؟

لماذا يكون المسيحيون مكروهين هكذا؟ "إذا ارتفعت نسبة المياه في نهر النيل إلى مستوى ضفافه، وإذا فشلت مياه نهر النيل في الوصول إلى الحقول، وإذا لم تهطل الأمطار، وإذا حدثت هزة أرضية، وإذا حدثت مجاعة أو جفاف، فإن الصرخة الفورية تقول: "خذوا المسيحيين إلى ميدان الأسود." (٤) لماذا نلام نحن المسيحيين بسبب أمور عامة تحصل لجميع الناس؟ هذا بالطبع ليس عدلاً، وهو مناف لأبسط الأعراف والتقاليد الرومانية. كان تروتوليانوس يعرف ما يقول. "إنه يكتب كمحام مشدداً في مرافعته على لا شرعية الاضطهاد الممارس ضد المسيحيين، وعلى أن القوانين المنفذة ضدهم هي إنكار لحقوق الإنسان." (٥) فصرخ حقاً: "إن من الحقوق الأساسية لكل إنسان، ومن الامتيازات التي منحها له الطبيعة، حقه في العبادة بموجب قناعاته." (٦) فلا يجوز للمواطن الصالح أن يعاني الإجحاف والتحامل بسبب ما يدين له؛ فعلى القانون أن يكبح جماح السلوك السيء، لا أن يمنع المعتقدات التزيهة والصادقة.

وقد تعلم تروتوليانوس من خلفيته القانونية أن يتحقق من البيّنات والحجج، ومكنته من استعمالها على أحسن وجه، وقد أضفى تكوينه البلاغي وفصاحته المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمواهبه الفطرية الأصلية، قوة وطاقة نافذة على تعبيره. "كان أسلوبه الأدبي ينسجم مع أفكاره. وكان هذا الأسلوب حيويّاً توكيديّاً فصيحاً. قاده إيجازه وعدم ارتباط أفكاره إلى شيء من الغموض أحياناً. وكانت المفردات اللغوية التي يستعملها

مذهلة في غناها ومأخوذة من مصادر مختلفة. لا يهمنه إن كان المصطلح كثير التقنية أو قديماً مهجوراً، أو إن كان تعبيراً شائعاً كثير الابتذال إقليمياً الاستعمال، إذا كانت هذه المصطلحات أو التعابير تدل على المعنى الذي يقصده. فإذا وجد ترتوليانوس أنه ليس هناك كلمة لاتينية جاهزة أو قادرة على استيفاء المعنى المطلوب، فهو يحاول استعمال كلمة يونانية، وإن لم يجد ما يفي بالغرض، كان يبتكر كلمة مناسبة. يحتوي أسلوبه على عناصر السيل جميعها من مواد مخلوطة وسرعة وتوجيه. فالخشب، والحجارة، والأترية، وأوراق الشجر، والزهور، والنفائات تجرف جميعها معاً ثم تقذف لفتح سبيل مسدود أو لقهر خصم." (٧) وتُظهر كتاباته بوضوح مقدار حماسته، وهو ينجرف في عدّة أحيان وراء قوة اقتناعه، وشدة حجته. وبالأخص عند قراءة كتاباته الجدلية في تفنيد مبادئ الآخرين، "على المرء أن يتذكر دائماً أنه يصغي إلى مرافعة خاصة، أعدها محام شديد التمسك بدفاعه، وليس إلى شهادة يدي بها شاهد محلّف أو حُكْمٍ أصدره قاضي بعد أخذ جميع الآراء بعين الاعتبار." (٨)

ولكن، ففي كل هذه الأمور، سواء بوعي أم لا، كان يستنبط لغة جديدة، أو على الأقل يصوغ لغة قديمة في قالب جديد. لقد صنع من اللغة اللاتينية آلية قادرة على حمل عظمة وقوة أعمق رسالة قد يسمعها الإنسان. لقد بدأ الأدب اللاتيني المسيحي فعلاً مع ترتوليانوس. كان عنده أفكار لم تظهر في هذه اللغة من قبل، وكان مقصده الأوحده هو التعبير عنها بفعالية. فترتوليانوس هو أول من ابتكر عبارة "الثالوث الأقدس" ليصف من خلالها طبيعة الله، ويُقدّر ما ابتكر من كلمات جديدة ب ٩٨٢ كلمة تقريباً.

يرى المؤرخ الفرنسي العظيم جوليان (Julien) في ترتوليانوس أنه المزاج الأمازيغي النشط المتقد بشرارة الحق المسيحي والمشتعل بهمة راسخة لا تقاوم. كان ترتوليانوس من "المهتدين البرابرة، ولكنه استبقى تحت الغلاف المسيحي على كل حماسة البرابرة وعنادهم وحدة مزاجهم". (٩) "يندب" ترتوليانوس أحياناً اتقاد طباعه وحدته. ولكنه استمر، مع ذلك، مندفعاً إلى الأمام بنفاذ صبر، واثقاً في نفسه، مستخدماً كلماته كسلاح حربي، مناضلاً ضد مناوئيه بلا هوادة ولا لين، منطلقاً وراءهم يقذفهم بكل أنواع أسلحته الجدلية المتوافرة ليقهرهم ويخضعهم لطاعته. وليس من المستغرب أن تتمكن قلة قليلة منهم فقط، من مناقشته: هذا، وإن مواهبه الفذة، لم تبق في الميدان مكاناً لأحد سواه. إن ترتوليانوس كاتب يستحيل عليك أن توافقه دائماً، وهو يترك عندنا أحياناً آثاراً موجعة، ولكن مع كل نقاط ضعفه، فهو رجل يمتلك عبقرية فذة عظيمة، وتعتبر شخصيته أكثر الشخصيات فتنهً وسحراً في تاريخ الكنيسة المسيحية.

كان لرتوليانوس قلب مبشر، وقد خصص كتاباته قبل كل شيء، ليربح الوثنيين واليهود ويهديهم إلى الإيمان بالرب يسوع. إنه يُقدّم كل الأسباب الموجبة للإيمان، وكل الإجابات المطلوبة للمعترضين. وعندما يدير أفكاره نحو الجماعة المسيحية نفسها، تكون رغبته العظمى في أن يُمكن العالم الوثني من النظر إلى هناك لرؤية يسوع. يجب أن تنسجم حياة المسيحيين مع ما يعلنون من تعاليم الإنجيل. وهو يتساءل ما جدوى الكنيسة المسيحية إذا كانت لا تستحق احترام الذين هم خارجها؟ فماذا يمكنها أن تحقق إذا لم تُظهر قداسة المسيح؟ وكيف يمكن للوثنيين أن ينجذبوا إلى المخلص إذا رأوا أتباعه في حالة شر وخطية هي أسوأ من تلك التي ينتخبونهم فيها؟ لقد تمنى

ترتوليانوس على الكنيسة أن تكون الشاهد المخلص للعالم. فعندما كان يتحدث إلى شعب قرطاجة، كان هاجسه أن يتمكن من الإشارة إلى التحول الذي يستطيع الرب عمله في الرجل والمرأة. ولكن إن لم يكن هناك أية علامة من علامات التحول، لا بد عند ذاك من أن يسقط وعظ الإنجيل على آذان صماء. تحدّى ترتوليانوس منتقديه في أن يجدوا ولو مسيحياً واحداً متهماً بالتجديف، أو فساد، أو بقتل، أو بنشل، أو بسرقه ملابس المستحمين. أما إذا وجدوا مثل هذا الشخص، فسيجدون أيضاً أنه فصل من شركة الكنيسة. فمثل هذا التصريح كان يحتاج إلى أن تكون الجماعة المسيحية مستحقة للصورة النقية. ولو كانت هناك خطيئة في الكنيسة؛ تصدّعت الأرض من تحت قدمي ترتوليانوس، وتحت أقدام كل أولئك الذين ينشدون ربّ الآخرين للإيمان بالرب يسوع.

طالب ترتوليانوس زملاءه المسيحيين بأن يتجنبوا كل مظاهر التسوية مع الفئات السياسية والفعاليات العالمية. قال إن إمبراطوريات العالم تعلقو وهوي، أما الكنيسة فأبدية. إنها مملكة روحية وليست مملكة أرضية أو مادية، ويجب أن تبقى الكنيسة حرة لتخدم، ولتوفر الاحتياجات الروحية لجميع الناس أياً كانوا.

وقد تبتهج الكنيسة إذا نظرت إليها السلطات الرومانية نظرة استحسان. ولكن إذا احتقرتها تلك السلطات وكرهتها، فعلى الكنيسة أن تثبت وتحمل. ولكن لا يجوز للكنيسة أن تُسخر لخدمة قضايا السلطة مهما كانت الظروف والأسباب: عليها ألا تكون أداة بيد الحكام في الإمبراطورية. إن المسيحي مواطن صالح وشريف، ولكن آماله لا تتأسس على أية جمهورية أو مملكة بشرية. فهو تابع قبل كل شيء لأولئك الناس

المدعوين "كنيسة الله"، وعاهله هو ملك الملوك ورب الأرباب. فهناك يكمن ولاءه وإخلاصه. سأل ترتوليانوس: "أفهل هناك أمة، داخل حدود جغرافية معينة، تفوقنا عدداً؟ فنحن أمة بلا حدود، بل حدودنا العالم بأسره." (١٠)

إن إخلاص ترتوليانوس لإيمانه، كحماسته له، لم يكونا قط موضوع تساؤل. فهو واثق من موقفه، وكل وجهات النظر الأخرى، ليست سوى رمال متحركة. فماذا بإمكان الإنسان غير المخلص أن يعرف عن الحق؟ وماذا بمقدور رجل عالمي أن يعرف عن القداسة؟ وكيف يمكن لعابد الأصنام أن يفهم تعاليم الكتاب المقدس أو ينتقدها؟ إن هذه الأمور، كما قال الرسول بولس، هي مدركة على أساس إعلان من روح الله. "ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة..... وأما الروحي فيحكم في كل شيء." (١١)

رأى ترتوليانوس أن المسيحي الذي يتنكر لإيمانه هو جبان وخائن، ولا عذر له. فإن مثل هذا الشخص قد كذب وجدف على الله لكي ينجو بنفسه، وإذا ما عاد هذا الإنسان إلى الكنيسة، فعليها ألا تقبله وكأن شيئاً لم يكن: هذا هو السبيل لكي تملأ صفوفها بالضالين وبالمراتين. قال ترتوليانوس إنه لا يمكن لكنيسة المسيح أن تصفح من موقع ضعف عن أولئك الذين يخونون سيدها خيانة تامة أو يخطنون إليه عمداً. لذا يجب إبعاد المؤمن عن الكنيسة إذا ما عاد إلى عبادة الأصنام، أو إلى الأعمال الوثنية الفاجرة. ألا يستحق الرب يسوع أجل الخدمات؟ فعلى المسيحي أن ينكر ذاته ويحمل صليبه ويتبع المسيح، وأقل من التكريس الكامل يعتبر إهانة لله ولشعبه. يجب التعامل مع الخطيئة المرتكبة بمجدية وحزم، تماماً كما كان يفعل رسل المسيح (١٢).

كان سلطان إخراج الشياطين أمراً مألوفاً في الكنائس في عهد ترتوليانوس. وقد أشار هذا الأخير إلى طرد الأرواح الشريرة، ليس وكأنها ظاهرة نادرة يجب التأكد منها بجهد وبشهادة الآخرين لها، ولكن باعتبارها حقيقة لا تنكر، معروفة لدى الجميع، ويعتمد عليها بثقة للتحقق من أن رسالته كانت رسالة حق. إنه لا يسأل خصومه الوثنيين أن يؤمنوا بأن مثل هذه القوى لاتزال موجودة، ولكنه يطالبهم بقبول رسالة الإنجيل التي تأتي هذه القوى لتبرهن أصالتها.

كان ترتوليانوس يعرف الكتاب المقدس حق المعرفة، وكان يقتبس باستمرار من الأناجيل ومن الرسائل، كما من العهد القديم أيضاً. وكان يسير بكل وضوح على خط الإيمان الرسولي النقي. ولا نجد في كتاباته إلا القليل من الأفكار الدينية الدخيلة على المسيحية، والتي تسببت بعد وقت قصير بتعقيد حياة الكنائس. وقد احتج ضد الممارسة الجديدة الخاصة بمعمودية الأطفال. ولم يعط مريم أم المسيح في الجسد مقاماً أعلى من مقام الناس الآخرين ولم يصل لها. ورفض أيضاً المبدأ القائل بتبطل قادة الكنيسة، على الرغم من أنه وجد له قيمة فعلية بالنسبة إلى أي مسيحي يرغب في ذلك طوعاً. وآمن إيماناً راسخاً بكهنوت المسيحيين المؤمنين جميعهم، وغالباً ما كان يذكر سامعيه، بأنه حينما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسم المسيح، فهناك يكون المسيح في وسطهم. وقد شدد بحزم على أن الكنيسة الحق لا تقاد إلا بالروح القدس، وليس من طريق المؤتمرات البشرية. كان ترتوليانوس يتوقع واثقاً أن يرى من خلال حياته على الأرض نهاية العالم وعودة المسيح وبداية الملك الألفي.

ثم بعد مدة، جرى على الأرجح تعيين ترتوليانوس كشيخ من شيوخ كنيسة قرطاجة، لكنه على غرار إقلمندوس الاسكندراني (Clément d'Alexandrie) وأوريجانوس (Origène)، لم يرق إلى درجة كنسية أعلى. ويبدو أنه كانت لديه تحفظات جدية بالنسبة إلى هذا النوع من البنى الهرمية. امرأة ترتوليانوس كانت مسيحية، وقد أهداها بختين كتبهما عن الزواج المسيحي، وأظهر من خلالهما تفانيه لزوجته، داعياً إياها برفقة وتجب "يا أحب رفاقي في خدمة الرب" (١٣). وكمعظم الرجال في عصره، كان من المفترض أن تكون ملابس ترتوليانوس مشتملة على الرداء الأبيض بأكامه القصيرة، وهو عبارة عن قميص طويل يصل إلى الركبتين، مصنوع من الكتان، ومشدود حول الخصر بحزام. إلا أن ترتوليانوس أظهر استقلالته عن عادات الإمبراطورية الرومانية بالاستغناء عن التوجا، اللباس الروماني الفصفاض والمتدلي، مفضلاً عليه الشملة الإغريقية، (وهي نوع من اللباس الذي يطرحونه على الكتف الأيسر) أو "بليوم" الفيلسوف (وهو رداء رجالي مستطيل). وقد ظهر تفضيله لهذا اللباس في كتاب يبحث في موضوع الملابس. وحذا حذوه في هذا الزي كثيرون. وعليه، فقد أصبح لباس التوجا يختفي من الكنائس. أما حذاؤه، فكان الصندل الذي كان يربط برباط يلتف حول الكاحل. وكان يقص شعره قصيراً، ولربما كانت له لحية قصيرة، وهي التي كانت وقتئذ تطابق الزي السائد منذ نهاية القرن الثاني. فقد أشار أحد الرجال المعاصرين لترتوليانوس، وهو أكبر منه سناً، ويدعى إقلمندوس الاسكندراني إلى اللحية داعياً إياها "زهرة الرجولة". ويقول إقلمندوس أيضاً "إن اللحية هي الصفة

الميزة التي منحها الله للرجال وللأسود" (١٤). وكان حلق الذقن آنذاك يعتبر تخشياً، وتحدياً لله الخالق.

كان ترتوليانوس في قرطاجة وقتما حكم على بريبتوا وزملائها بالإعدام عام ٢٠٣ ميلادية. ويعتقد بعض الكتاب أنه هو الذي ألف قصة استشهادهم أو أعدها. وفي كل حال، كان ترتوليانوس نحو هذا الوقت قد انضم إلى فرقة من المسيحيين، كانت تعرف بالمونتانيين (Montanistes)، والتي يبدو أن بريبتوا ورفاقها كانوا ينتمون إليها. وفي مطلع القرن الثالث، كانت هذه الفرقة قد اكتسبت لنفسها بعض الشعبية في أوساط إفريقيا الشمالية. وكان أعضاؤها يتبعون تعاليم ومثال أحدهم ويدعى مونتانوس (Montanus)، الذي كان قد شرع بالكراسة نحو العام ١٧٠ م، وذلك في منطقة فريجية (تركيا الحديثة).

كان مونتانوس يعتقد أن جيله كان يقف على عتبة عصر جديد، عصر الروح القدس، الذي خلاله سيكون من نصيب أولاد الله جميعهم أن يحصلوا على رؤى وعلى إعلانات بحسب ما هو مكتوب: "يقول الله ويكون في الأيام الأخيرة إني أسكب من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ويحلم شبوحكم أحلاماً. وعلى عبيدي أيضاً وإمائي أسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبأون" (١٥). فالمسيحيون الذين التصقوا بمونتانوس شرعوا يرون ويسمعون مثل هذه الأمور. وقد صرح قائلاً: "إن الروح يحرك الذهن، كما أن الموسيقى يحرك أوتار الفيثارة"، وبهذه الطريقة يستطيع المؤمن أن يحصل على كلمات الله عنها، وأن ينقلها إلى الآخرين.

وقد أخذ المونتانيون مبادئ العهد الجديد على محمل الجد، وحاولوا أن يعيشوها مهما كلف الأمر. لم يتمكنوا، كما هي الحال بالنسبة إلى الكثيرين سواهم، من التوفيق بين الخدمة العسكرية وتعاليم يسوع: على المسيحيين ألا ينخرطوا في الجيش. كما اعتبروا أن دراسة الأدب الوثني لا يليق بالمسيحي: إنما ستضله عن الطريق الصحيح، وتعثر الناس الذين يرون هذا القارئ ويقتدون به. كانوا قد بدأوا يجتمعون في بيوتهم للصلاة والصوم وقراءة الكتاب المقدس معاً؛ وكانوا يشجعون بعضهم بعضاً على الارتقاء في حياتهم إلى أعلى المبادئ الأخلاقية الروحية. كانوا يتطلعون قدماً إلى مكافأة في السماء وإلى حياة أفضل. فكان إيمانهم الراسخ بأن المسيح سوف يعود سريعاً، وستراه كل عين ويعترف كل لسان بأنه رب (١٦). ومن ثم سوف يجمع شعبه ويأخذهم إليه ليسكنوا معه في مجده إلى الأبد. ولا يجوز للمسيحي أن تشده أمور هذه الحياة الفانية؛ وإذا ما دعي ليتألم، أو حتى يستشهد من أجل المسيح، عليه عند ذاك أن يفرح ويتهيج لكون الله قد ميزه بهذا الشرف العظيم. انجذب ترتوليانوس إلى هذه الفرقة، وبخاصة على أساس ما لمسه فيهم من رغبة صادقة في إطاعة كلمة الله. كان إخلاصهم القلبي يتلاءم ويتجانس مع إخلاصه هو.

لم يكن المونتانيون راضين عن بعض التوجهات والتراعات التي ظهرت في كنائس إفريقيا الشمالية، وكذلك في آسيا الصغرى، ولقد تمنوا أن يروا قداسة أكثر وضوحاً في الجماعة المسيحية. وقالوا إن هناك العديد من المسيحيين الذين لا يعيشون طائعين إطاعة صادقة للمسيح. فبعضهم، كما يبدو، كان يميل إلى التساهل في الانغماس في نشاطات سيئة السمعة أو إلى المشاركة بالأفعال القذرة الحقيرة التي يمارسها الوثنيون؛ فكان

يجدّف على اسم المسيح من جراء ما يمارسه هؤلاء المدعون مسيحيين. واعتبروا أنه يجب طرد مثل هؤلاء من الكنائس. كان من الضروري في نظرهم أن يعطى الذين من خارج - يهوداً كانوا أم وثنيين - فرصة لسماع بشارة الإنجيل. لكن يجب عدم تسميتهم مسيحيين حتى يصبحوا هكذا فعلاً، أي حتى يتنكروا لذواتهم، ويحملوا صليهم ويتبعوا المسيح.

اغتاظ المونتانيون عند تنامي البنية السلطوية للكنيسة، والتي قيدت الكنائس بعضها ببعضها الآخر، وأعاقت حريتهم في الاجتماعات. إلى هذا، ظهرت نزعة متنامية لدى القادة في المدن الكبيرة للتسلط على القطيع حتى أنهم أصدروا قرارات توقعوا من سائر الكنائس الأخرى أن تدعن لها. يجب احترام القادة، قال المونتانيون، ولكن هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أنهم معصومون عن الخطأ. كذلك عليهم هم أيضاً أن يخضعوا لكلمة الله. إن الوحدة في الكنائس، كما يصرح المونتانيون، يجب ألا تفرض بالقوة الجائرة. فالوحدة الحقيقية هي ثمرة التسامح والمحبة، ولا يمكن أن تتحقق إلا عندما يمتلئ الجميع بروح المسيح. يجب أن تكون وحدة الكنيسة وحدة روحية أكثر منها مؤسساتية، ويجب أن يكون هناك مكان في أروقتها للأفكار والآراء والاهتمامات المختلفة. إن المخلص نفسه هو رأس الكنيسة ويجب أن يكون روحه هو القائد؛ فليس هناك إنسان قادر على أن يأخذ مكان يسوع المسيح.

كذلك الاجتماعات في كنائس كثيرة، بدأت هي الأخرى تزداد شكلية، وقد حدث بالتالي من حرية الروح القدس في تحدّثه المباشر إلى أعضاء الكنيسة. وأشار المونتانيون أيضاً، إلى أن النظار المعتمدين ليسوا وحدهم من يحصلون على التوجيه

الإلهي. لأنه بإمكان كل مؤمن أن يصلي إلى الله ليعلم مشيئته، وبذلك يساهم في الحياة الكنسية للخير العام.

إذا كانت طهارة هذه المجموعة من الناس المؤمنين، في أيام المسيحية الأولى، قد استحققت احترامنا وإعجابنا، فإن استعدادهم للاستشهاد يثير فينا إعجاباً تاماً. فهم لم يترددوا قط في بذل حياتهم، عندما البدل لاستشهادهم كان يعني إنكار مخلصهم. قد نعذرهم على تطرفهم في وضع مستويات الصواب والخطأ، وكذلك على قلة صبرهم على أولئك الذين كانوا يرغبون في سلوك سبيل أدنى من المستوى المطلوب، لأن المبادئ التي كانوا يؤيدونها لم تكن في غالبيتها سوى تعاليم يسوع ورسله. إن ما قدموه كان في معظمه نصائح وحض بغيرة على حب أعمق وتكريس أعظم.

إلا أن العديد من الكنائس في القرن الثاني، كانت تسير في اتجاه مختلف تماماً. فبعضها كان يميل إلى الفكرة القائلة أن التنبؤ قد توقف منذ عصر الرسل. وقيل أيضاً أنه لم يعد بإمكان المسيحيين الحصول على إعلانات شخصية، وإن أي إنسان يدعي النبوة من الله لا يمكن أن يكون إلا من الدجالين. كان المونتانيون قلقين، ولكنهم، لم يرغبوا في الانفصال عن إخوتهم في المسيح. فعوضاً عن فتح باب الشقاق، تحملوا بصبر سوء الفهم والإجحاف، وعملوا ما بوسعهم للتأثير في الجماعة المسيحية من الداخل.

مع ذلك، فقد كان أناس ينتمون إلى الكنائس القديمة، الذين شعروا بالامتعاض من مواقف المونتانيين، وشكوا في روح الاستقلال عندهم، كما سخرروا من الوحي الذي ادعوا حلوله عليهم. فتم رفع الشكاوى ضدهم على أعلى المستويات. وفي مقاطعة فريجية نفسها، موطنهم، قامت بعض الكنائس بإدانتهن. كما سافر أحد مناوئتهم

المدعو براكسياس (Praxéas) إلى روما، ونجح في إقناع ناظر الكنيسة، بأن المونتانيين يعملون على إثارة الشقاق والخلاف، ويهددون وحدة الكنائس المسيحية في العالم بأسره. فكانت النتيجة حاسمة إذ أصدرت كنيسة روما الحرم الكنسي بحق المشققين المونتانيين، واعتبر هذا الحرم شاملاً لكل الكنائس، وفي كل الأصقاع، التي تأتمر بأولر كنيسة روما هذه المجموعة التي عرفت فيما بعد "بالكنيسة الكاثوليكية" أو الكنيسة العالمية. لم يكن هذا الرفض والإبعاد بسبب تعاليم زائفة صدرت عن المونتانيين، بل، وبكل بساطة، لكون هؤلاء عطلوا نظام الكنائس، ولرفضهم أيضاً القبول بالمقاييس التي حددها قادتهم المعتمدين.

لقد أثرت فيما بعد شكوك بالغة الخطورة حول صوابية تعاليم براكسياس نفسه. إن آراءه في لاهوت المسيح وناسوته شردت من دون شك عن الحق الكتابي، بينما ظل المونتانيون مستقيمين في هذا المجال. إلا أن التوفيق أضحى مستحيلاً. وربما، لم يعد أمراً عجيبياً أن يساء فهم المونتانيين جداً من مؤرخين كنسيين لاحقين من ذوي التزعة الكاثوليكية والأسقفية، الذين، خلال جيلهم الخاص، يتبنون الدعوة المسكونية لتوحيد الكنيسة عضويًا وظاهريًا بأي ثمن. وكثيراً ما كانوا يكتبون عن المونتانيين بكلمات من قبيل: "المتحمسون الصارمون" أو "أبطال في يوم الاضطهاد، متعصبون في زمن السلم" (١٧). ولكن هذا لم يكن كل ما في الأمر.

وبالتأكيد، فإن ما حدث لم يكن نهاية المونتانيين، إذ وجد هؤلاء في تروتوليانوس بطلم الأعم. فقد كتب هذا الأخير تفنيدياً مسهباً ضمنه حججاً دامغة ضد براكسياس. وقد وضع ثقله خلف حركة المونتانيين التي أشار إليها في تفنيده بالعبارة

"النبوة الجديدة". ولم يجعل ترتوليانوس المونتانية جدية بالاحترام وحسب، بل اعتبرها قوة يجب تقديرها والاعتماد عليها في شمال إفريقيا. واستمر المونتانيون بالتعليم ومد يد العون بعضهم لبعض بقيادة الروح القدس، وبمباركة الله المدركة الظاهر" (١٨).

قضى ترتوليانوس طوال حياته في قرطاجة، على الرغم من أنه زار روما مرة واحدة على الأقل. ولربما خدم أيضاً في كنيستها كشيخ من شيوخها لفترة ما. وفي روما، أصبح ترتوليانوس ضليعاً في ترجمة لاتينية للكتاب المقدس، تختلف أحياناً إلى حد بعيد عن تلك التي استعملها كبريانوس لاحقاً في قرطاجة. ولكن غطرسة قادة الكنيسة في روما وعداءهم المذهل للمونتانيين، تركا أثراً ثابتاً في ترتوليانوس مما ساعد، من دون شك، في جعله متعاطفاً معهم ومؤيداً لهم. كان متقد الذهن للغاية وحراراً في الروح جداً حتى إنه لم يكن من السهل عليه الخضوع لأوامر مصقولة صادرة عن أناس دونه شأنًا. لم يكن ترتوليانوس يرغب في أن يكون السبب، أو أن يشجع على إحداث شرخ، وكذلك لم تكن الكنائس الأقدم عهداً ترغب في إبعاده عن شركتها. آمن ترتوليانوس، من كل قلبه، بمبادئ الإيمان المسيحي، واختلف مع زملائه المؤمنين، فقط في الاعتقاد أن مستوهم القداسي لا يزال متديناً إلى حد ما. لقد بقي من أعظم مناصري المسيحية الحق. كما كتب بعض أعظم مقالاته ضد "الغنوسطية" (Gnosticisme) وغيرها من الهرطقات والبدع، بعد التحاقه بالمونتانيين. ومن اللازم القول، إن فصاحته اللاذعة كانت أكثر إقناعاً حينما تنصب ضد جعلة العدو المشترك، أكثر منها حينما تكون ضد قصور الكنيسة الكاثوليكية وعدم كفايتها، والتي كان قد تركه وقتذاك.

لقد اعتبر ترتوليانوس دائماً أن الوحدة المسيحية هي فضيلة عظيمة، ولكن لا يجوز أن نشترىها على حساب الحق. ويجب فحص الأفكار الجديدة، أضاف ترتوليانوس، بمقارنتها بكلمة الله؛ ويجب تشخيص الأخطاء في وقت مبكر، قبل أن تنتشر ويستفحل أمرها. قال إن الحق واحد بينما البدعة متشعبة متنوعة؛ والحق يعرف من موافقة الكنائس جميعها عليه، بينما البدعة هي محلية ومحصورة بفئة قليلة. الحق تبدى من أقوال الرسل بينما البدعة مظهر حديث. الحق يشته الكتاب المقدس، بينما البدعة تنصب نفسها ضد الكتاب المقدس وفوقه (١٩).

وأخيراً، يظهر أن ترتوليانوس بدأ بترعة من بعض أوهام التطرف التي ما إليها بعض من المونتانيين. أحياناً، يظهر أنصار مثل هذه الجماعات السائبة والمشحونة حيوية، رغبة مخيفة في قبول إعلانات "أنبيائهم" الذين ادعوا بأنهم ملهمون بالروح القدس، وذلك من دون أي تساؤل. وقد رأى ترتوليانوس بكل وضوح، أن الإيمان ممتاز ورائع، فقط إذا ما كان مبنياً على الحق. فالحرية الروحية يجب أن تمارس ببصيرة متأنية ومتعلقة. والحق الإلهي المعلن من الله والمنسجم مع الكتاب المقدس الموحى به، يجب قبوله، ولكن يجب عدم السماح للكنيسة بأن تساق وراء أفكار انفعالية و متحمسة صادرة عن خيال أشخاص قد يكونون سليمي النية والقصد ولكنهم يقودون الكنيسة بالتالي، إلى الضياع والنشئت. قال الرسول يوحنا قبل عدة سنوات: "أيها الأحباء، لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم" (٢٠). كما أن الرسول بولس قال، إن الروح القدس يعطي لبعض الناس القدرة على التنبؤ، أي أن يبلغوا رسالة الله، ولكنه أيضاً يعطي لآخرين القدرة على "تمييز الأرواح"، أي أن

يعرفوا ما إذا كان الإعلان من الله أم من مصدر آخر (٢١). وبعد بضع سنوات، انفصل ترتوليانوس على ما يبدو عن المونتانيين جاراً معه عدداً من أقرب أصدقائه. فبالنسبة إليه، يبقى الحق هو الأهم من كل الأشياء.

ولم يكن لرتوليانوس مثيل في عصره سوى واحد، وهو أوريجانوس العظيم. وقد ولد أوريجانوس في الإسكندرية ولكنه انتقل في ما بعد إلى قيصرية على ساحل فلسطين. وما يدعو إلى الحيرة والعجب حقاً أن يكون كل منهما متشابهين في بعض الوجوه، ولكنهما لم يكونا متشابهين في دروب ومسالك أخرى. فكل منهما له موهبة التخيل، وهو بارع في التصوير المجازي، وكل منهما يستخدم هذه الموهبة في كتاباته المتدفقة المثمرة، مدافعاً عن الإيمان ضد الوثنية، واليهود والمراطقة. وكلاهما كانا يعيشان حياة نكران الذات الشديدة الصارمة، وكلاهما، بتعاليمهما وقدمتهما، ألهما جيلهما كيف يجب أن يكون التكريس المسيحي الحقيقي الأصيل. وكلاهما كانا على استعداد أن يعانبا خسارة كل ما في هذه الدنيا من أشياء، عوضاً عن المساومة على حق الإنجيل. ولكن، مع ذلك، نجد كيف أن كل واحد منهما أمضى الفترة الأخيرة من حياته في خلاف مع القسم الأكبر من الكنيسة المسيحية، وفي صراع مع كبار قادتها المتنفذين في روما.

على أن هذا التشابه بينهما يبقى سطحياً، إذا ما علمنا أن هناك اختلافاً جذرياً بينهما في الجوهر. والحقيقة، أن واحداً منهما قد أمضى نصف عمره في حيلة وثنية، بينما عرف الثاني منذ ولادته بركات البيت المسيحي المسالم والثابت الإيمان. وهذا ما يفسر الكثير مما سنأتي على ذكره الآن. ولاشك أن حماسة ترتوليانوس الصارمة كانت في طبعه وخلقه، ولكنها ازدادت حدة بفضل تجديده ورفضه الكامل لماضيه، بينما

"عدوية ونور" أوريجانوس محبوب كانا ثمرة نموه المهادئ بصفاته المسيحية التي ترعرع عليها منذ نعومة أظفاره. وقد انعكست هذه الأشياء في أسلوب كتابة كل منهما: فالأول صارم في عقيدته من دون هواده، أما الثاني، فيحب الخوض في المعاني الغامضة ومعروف بلطفه التأملية الدقيق. يتعامل الأول مع الأشياء بتوكيد صريح مباشر، بينما يتعامل الثاني بمثل نظرية عالية المقام. ويخترتوليانوس اليأس الأدبي في هذا العالم توبيخاً صارماً وعنفة تعيناً شديداً، وسخر من قنوط الناس الفكري. بينما قدم أوريجانوس تعاطفاً شديداً مع كليهما، وشعر في العمق مع أولئك الذين كانوا يتلمسون طريقهم بحثاً عن إدراك سرائر هذا الكون الفسيح. تعلم ترتوليانوس الفلسفة كوثني وازدرى بما للغاية: بالفلسفة ظهرت كمصدر لأكاذيب وهرطقات لا حصر لها. وتركت الناس في ظلمة كاملة لا يمكن أن تتلاشى إلا بفعل نور الإنجيل المعلن. أما أوريجانوس، فقد تعلمها وهو في أحضان المسيحية، وتعمق في مكنوناتها أكثر كثيراً من ترتوليانوس، فكان لها كل التقدير عنده، واعتبرها استعلاماً جزئياً وتمهيداً قد لا يزال يعمل لخدمة الحق.

على الرغم من أن كلا من ترتوليانوس وأوريجانوس وجدا نفسيهما في نزاع مع المسيحيين الآخرين، إلا أن سبب هذا النزاع كان يختلف في كل حالة. فانفصال ترتوليانوس كان من عمله هو أما انفصال أوريجانوس فسيببه أعدائه وخصومه. ومع أن أحداً في قرطاجة لم يدن ترتوليانوس، فإنه تعمد ترك الكنيسة التي كان يخدم فيها، وعقد العزم على تنفيذ أخطائها. أما أوريجانوس الذي حرم كنسياً في الإسكندرية وروما، فتحرك متوجهاً إلى الشرق، واستمتع هناك بأعظم قدر من الشركة الحميمة مع كنائس تلك المنطقة، من دون أن ينتقد أحداً. ولربما نستطيع أن نرى هنا، ومما سيلحق،

كيف أن شخصية الإنسان تقرر إلى حد بعيد الخدمة التي يتولاها وآراءه ومبادئه الشخصية أيضاً.

يقول بعضهم أن ترتوليانوس بعد انجرافه بعيداً عن تيار المونتانيين، لم يلبث أن عاد إلى مجموعة الكنائس الكاثوليكية التي انتمت إليها غالبية مسيحيي شمال إفريقيا في ذلك الوقت. وهذا الرأي مشكوك فيه، ولكنه قد يبدو جذاباً لأولئك الذين يوقرون كلاً من الرجل ترتوليانوس والبنية الكاثوليكية. في الحقيقة، وبعد مرور قرنين من الزمن، بقي هناك مجموعة من المسيحيين يعرفون بالترتوليانيين، "أي أتباع ترتوليانوس" على الرغم من أن عددهم كان قليلاً. ولكن وجودهم، إن دل على شيء، فهو يدل على أن ترتوليانوس بقي بعيداً إلى حد ما من الكنيسة التي انتقدها بشدة (٢٢). ومن جهة ثانية، وبعد مرور قرن على وفاته، فحتى كبريانوس، وهو أقوى وأخلص المدافعين عن الوحدة الكاثوليكية، قوم كتابات ترتوليانوس، وقدمها على سائر الكتب الأخرى، حتى أنه كان يخاطب أمين سره قائلاً: "جئني بالأستاذ، ناولني المعلم"، كلما شاء أن يتصفح مجلداً أو كتاباً ألفه ترتوليانوس. ويبدو أن ترتوليانوس اعتبر أن لا ضرورة لإجراء أي مصلحة رسمية مع الكنيسة الكاثوليكية، لأنه لم يدن رسمياً، ولا القادة حرموه كنسياً في كل من قرطاجة وروما. ونعلم أن ترتوليانوس قد اجتذبه كل من كان يشاركه إيمانه، إذ كان مستعداً أن يجتمع للعبادة مع أي جماعة تحب المسيح وتحدمه بإخلاص، وذلك بمعزل عن الكنيسة التي تنتمي إليها.

يخبرنا المترجم العظيم جيروم (Jerôme)، أن ترتوليانوس عاش عمراً طويلاً. ولم يعرف كيف أو متى توفي. ولكن، لا بد من أن يكون تاريخ وفاته بين الأعوام ٢٢٠

- ٢٤٠ ميلادية. وهذا يظهر أنه كان في سن الستين على الأقل حين لبى نداء ربه وغادر هذا العالم.

تحدث تروتوليانوس إلى كل من الكنيسة النامية والعالم المراقب، معلناً المفارقة الشاسعة القائمة بينهما، تلك المفارقة التي كانت واضحة جلياً لكل من له عينان تريان: "حق العقيدة المسيحية، مقابل أكاذيب الوثنية؛ نقاوة الأخلاق المسيحية مقابل إباحية الوثنية؛ أخوية الشركة المسيحية مقابل أنانية الوثنية وقسوتها" (٢٣). لقد محور مواضيعه الأساسية حول ثلاثة: الحق، النقاوة، والأخوية. يجب إحياء ذكره بواسطة كلماته الخاصة هذه التي يعرض فيها إقراراً للحق، حق الله الذي لا يمكن ولا يجوز إخفاؤه (٢٤).

"لا يطلبُ الحقُّ معروفاً
أو استحساناً لقضيته
فهو يعلم أنه
غريبٌ في هذه الديار
وأنه بين الغرباء، من السهل أن
يجد لنفسه أعداء.
فولادته، وداره، ورجاؤه
هي في السموات.
ولكن شيئاً واحداً يتمناه
الحقُّ بشدة،
ألاّ تحصل إدانته
وهو غير معروف".

ترتوليانوس

حواشي الفصل

- Apologeticus* ١٨ - ١
Apologeticus ٢ - ٢
Apologeticus ٣ - ٣
Apologeticus ٤٠ - ٤
ECF p. ١٥، Bettenson - ٥
Ad Scapulam ٢ - ٦
Plummer pp. ١١٤ - ١١٥ - ٧
Plummer p. ١١٥ - ٨
Guernier p. ١٨٥ اقتبسها - ٩
Apologeticus ٣٧ - ١٠
- ١١ (١ كورنثوس ٢ : ١٤ و ١٥)
- ١٢ (١ كورنثوس ٥ : ٩ - ١١)
Ad Uxorem ١ : ١ - ١٣
Paedagogus ٣ : ٣ (ANF Vol. II) - ١٤
- ١٥ (أعمال ٢ : ١٧ و ١٨)
- ١٦ (فيلبي ٢ : ١١)
Foakes - Jackson p. ٢٥٤ - ١٧

١٨- لقد حافظ مونتانيو آسيا الصغرى على كنائسهم المستقلة حتى فترة

متقدمة من القرن السادس

(Schaff *HOTCC* Vol. II p. ٤٢١)

١٩- راجع ٣٢ *De Praescriptione Haereticorum*

٢٠- (١ يوحنا ٤: ١)

٢١- (١ كورنثوس ١٢: ١٠)

٢٢- يذكر أغسطينوس كيف أنه تمكن أخيراً بفضل جهوده، أن يصلح

الترتوليانين في قرطاجة مع الكنيسة الكاثوليكية، وذلك في القرن الرابع (*De*

Haerisibus ٦; Schaff *HOTCC* Vol. II p. ٤٢١)

٢٣- Lloyd p. ٢٨

٢٤- *Apologeticus* ١؛ راجع الترجمة في Lloyd p. ٢٣

المصادر الثانوية المختصة بحياة ترتوليانوس هي Barnes ؛ Lloyd pp.

٢١؛

٢٠٨ - ٢٠٦، Foakes - Jackson pp. ٢٦٥ - ٢٦٣ ؛

Latourette Vol. I pp. ١٢٥ - ١٣١

Plummer pp. ١١١ - ١١٩

كذلك يوجد شواهد متعددة في كل من Frennd و Schaff *HOTCC*

Vol. II

بالنسبة إلى المونتانيين، راجع *Eusebius V* ، ١٨ - ١٦ ، *NAPNF*

Series ٢ Vol. I

وفيه ملاحظات كثيرة أدرجها المترجم؛

Foakes - Barnes ؛ Schaff HOTCC Vol. II pp. ٤١٥ - ٤٢٧

Jackson pp. ٢٢٤ - ٢٢٥

الفصل الثامن الكتابات الروحية

إن كبار المفكرين المسيحيين في القرون الأربعة الأولى للميلاد اهتموا بتعريف عقائد الإيمان وانهمكوا في الدفاع عنها. فقد شغلهم الأسئلة التالية: هل كان المسيح إنساناً مثلنا؟ أو هل كان ملاكاً؟ أو أنه كان يختلف عنا في جملته – كأن يكون ليس بإنسان ولا بملاك؟ هل كان المسيح موجوداً منذ الأزل؟ أو هل وجد عندما حبلت به العذراء؟ هل جرب المسيح حقاً، كما نجرب نحن، حيث كان بإمكانه أن يخطئ؟ أو كان مستحيلاً عليه أن يخطئ، وبالتالي فإنه لم يتعرض للإغراءات الحقيقية؟

بحث المسيحيون الأوائل في إيجاد أجوبة عن هذه التساؤلات من خلال العهد القديم، ومن مضامين ما كتبه الرسل، واستناداً إلى ما قاله الرب يسوع نفسه. وقد استنتجوا أحياناً استنتاجات شخصية مستندة إلى ما بدا لهم أنه منطقي وعقلاني. ولكنهم في النهاية، كانوا يعودون دائماً إلى ما يشير إليه العهد القديم، وإلى ما كتبه المسيحيون الأولون باعتبار أن هذه الكتابات موحى بها من الله. وإذا ما ظهر أي التباس، فيمكنهم معالجته بالرجوع إلى أقوال الرب يسوع، أو إلى أقوال لبولس أو بطرس أو غيرهما من الرسل الآخرين.

بانتهاء القرن الأول للميلاد، كانت جميع كتب العهد الجديد قد أكملت، ولكن هذه الكتب، كان يتم تداولها بين الكنائس على شكل وثائق متفرقة. فيمكن مثلاً أن تملك إحدى الكنائس إنجيل متى، بينما يكون إنجيل يوحنا في حوزة كنيسة أخرى. أما كنيسة ثالثة فقد يكون عندها أربع رسائل لبولس أو خمس. ومن الممكن أن نجد في

مكان آخر رسالة بطرس الأولى أو سفر الرؤيا. إلى هذا، فقد وضعت كتابات مسيحية أخرى باتت مشهورة في الأوساط الشعبية، الأمر الذي حتم على قادة الكنيسة أن يقرروا أياً من هذه الكتابات هو صادر عن الرسل أنفسهم. أو أي منها يمكن اعتباره له سلطة، وملهماً بوحي من الله إلى خدامه المختارين، أو أي الكتب يعتبر من عمل إنسان أصدره، ربما، عن حسن نية؟ وفي بداية العام ١٨٠ ميلادي، ظهر بين المسيحيين شبه إجماع في الرأي حول الكتب التي يمكن اعتبارها قانونية ومعترفاً بها. وفي مدينة بونتوس (Pontus) التي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الدولة التركية الحالية، صاغ ماركيون (Marcion) في عام ١٤٠ ميلادي قائمة قصيرة بالكتب المقبولة لديه، ولكن نظرية ماركيون هذه جنحت نحو الأفكار الصوفية الخاصة بالغنوسطية، ومال إلى رفض تلك الكتب التي لا تدعم آراءه. على أن كتاباً آخرين، من الرعييل الأول، وافقوا على الكتب المقبولة ماركيون، مضيفين إليها كتباً أخرى، واعتادوا أن يستعملوها في كنائسهم. وفي الغرب، كان إنجيل يوحنا أقل شعبية من الأناجيل الأخرى التي أصدرها باقي البشيرين: متى ومرقس ولوقا، والتي تدعى الأناجيل السينوبتية. وهناك أيضاً، لم تقبل الرسالة إلى العبرانيين إلا ببطء. أما في الشرق، من الناحية الأخرى، فلم يعترف بسفر الرؤيا بادئ ذي بدء.

في مستهل القرن الثالث للميلاد، ألمح ترتوليانوس إلى كل واحد من الأناجيل الأربعة عندما كان يصف حياة المسيح. أما في أواسط القرن الثالث، فقد أصبحت جميع الأسفار التي تؤلف العهد الجديد الذي عندنا اليوم، معترفاً بأصالتها وسلطتها. على أن رسالة أثناسيوس (Athanasius)، ناظر كنيسة الإسكندرية، والتي كتبت في سنة

٣٦٧ م، تعتبر عموماً، أنها الأولى التي تعرف بلائحة أسفار العهد الجديد القانونية، والتي تحتوي على سبعة وعشرين سفراً نستعملها حتى يومنا هذا. وبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ، حدد المؤتمر الذي انعقد في قرطاجنة، جميع الأسفار القانونية في العهد الجديد، وهي التي أصبحت منذ ذلك الحين الكتب المعتمدة في جميع أنحاء العالم.

ومن الطبيعي، أن قبول هذه الكتب، يعني رفض غيرها من الكتب، تلك الكتب التي ندعوها اليوم "الأسفار الأبوكريفية" (Apocryphe). فإن كتابات الأبوكريفية تتحدث عن خوارق شاذة وغريبة، وواضح أنه تختلف عن الروايات المنضبطة والرزيطة التي جاءت في الأناجيل وأعمال الرسل. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان لهذه الكتب شعبية واسعة بين أولئك الذين يستمتعون بالأوهام والتخيلات، ولم يعطوا اعتباراً وتحفظاً للتعليم الذي رافق هذه الكتب والأسفار. وتزعم بعض هذه الكتب أن كاتبها كانوا الرسل عينهم، ولكن بعد التقصي الدقيق تبين أن هذه الكتب تحتوي على تعليم يتعارض مع المستندات والوثائق التي كان، ولا شك، قد خلفها ورائهم هؤلاء الرسل. فهناك مثلاً إنجيل بطرس المزور، الذي يحتوي على تعاليم وعقائد لا يمكن أن يكون بطرس قد علمها. وهناك ما يدعى "رسالة برنابا"، التي من الممكن أن تكون قد ألفت وجمعت في القرن الثاني للميلاد (١). أما الكتاب الأكثر شهرة، فهو ذلك المدعو "ديداكي" (Didache)، أي "تعليم الرسل الشني عشر"، ولربما كتب نحو عام ١٠٠ للميلاد. وقد أشار أثناسيوس في القرن الرابع إلى كتابات الأبوكريفية هذه بالقول إنها "الكتب التي لا تحمل أية سلطة، ولكنها عينت من المسيحيين الأولين لتقرأ على أولئك الذين آمنوا حديثاً" (٢). إن القصة المجازية المسماة "راعي هرماس" (Le Berger)

d'Hermas) انتشرت بشكل واسع في إفريقيا الشمالية، وهناك رسالة أخرى بعنوان رسالة إقلمندوس (**L'Épître de Clément**)، وعدد من النصوص الأخرى كتلك الروايات التي تدّعي التحدث عن طفولة المسيح والرحلات التي قام بها بطرس وبولس والرسل الآخرون. لقد ادعى بعض الأشخاص أو الكنائس خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد، يجب أن يعترف بقانونية هذه الأسفار والرسائل الآنفة الذكر، وحاولوا إنزالها إلى جانب الأناجيل والرسائل التي تكون كتاب العهد الجديد اليوم، ولكن أغلب الكنائس أجمعت على رفضها. هذا لأن قراءة دقيقة فاحصة للأبوكريفا، تظهر، في كل حال، عيوباً في تعاليمها ومبادئها، وهي تفتقر إلى الضبط والتوازن الذين يميزان الكتب المعترف بها من الكنيسة، والمعتمدة منذ ذلك الحين على أنها تشكل كلمة الله الموحى بها وذات السلطة.

لقد صانت الكنائس الأولى كتب العهد الجديد باحترام وإجلال شديدين. وكان قادتها يرجعون مراراً إلى هذه الكتب عند الوعظ والتعليم، كما أن علماء اللاهوت عندهم كانوا يستشهدون بها بشكل ثابت عند تقديم الحقائق العظمى للإيمان وتوضيحها. فثرتوليانوس مثلاً، بنى فهمه للثالوث الأقدس، بشكل كامل، على شهادة كتابات هؤلاء الرسل. وقال: "كل الكتاب المقدس يبرهن بوضوح وجود الثالوث الأقدس" (٣). آمن المسيحيون الأوائل بأن هذه الوثائق هي من وحي الله تعالى، كأسفار موسى وكتب الأنبياء والأعمال الشعرية التي في العهد القديم: "تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس" (٤). وشعروا بالحاجة إلى تفتيش الكتاب المقدس، للوثوق بوعود الله المعلنة على صفحاته ولتطبيق مبادئه في حياتهم اليومية. وعن

هذا أيضاً، أجاب ترتوليانوس مرة أخرى بالقول: "نحن ملزمون في إنعاش ذاكرتنا بكتاباتنا المقدسة، وذلك لنستطيع أن نرى ما إذا كان أي من أمورنا الحاضرة يحتاج إلى تحذير أو إعادة نظر. وفي كل الحالات، نحن نغذي إيماننا بهذه الأقوال المقدسة؛ إننا نبعث رجاءنا، ونؤسس ثققتنا، وفي الوقت نفسه نحن نقوي تهدينا وانضباطنا بالانتباه الثابت إلى الوصايا" (٥).

كان المسيحيون الأوائل ملمين إماماً تاماً، ليس فقط بالعهد الجديد، بل بالعهد القديم أيضاً. فمعظمهم لا يعرفون القراءة باللغة العبرانية الأصلية. والنسخة الواسعة الانتشار والاستعمال خلال القرون الأربعة الأولى، كانت الترجمة إلى اليونانية، والتي عرفت بالترجمة السبعينية (Septante)، ويرمز إليها أحياناً بالأحرف اللاتينية المختصرة LXX. لقد تولى سبعون أو اثنان وسبعون من جهاز العلماء اليهود في مدينة الإسكندرية العمل الترجمي من العبرانية إلى اليونانية، وذلك في حدود السنة ٢٠٠ قبل الميلاد. فانفرد كل من هؤلاء المترجمين في حجرة مغلقة، كما تذكر القصة، فجاءت تراجمهم متطابقة بشكل أعجوبي رائع. والجدير ذكره أن ترتوليانوس وأغسطينوس لم يعبرا هذه الأسطورة الشعبية اهتماماً كبيراً، ولكنهما مع ذلك كانا يقدران هذه الترجمة. أبدى المسيحيون الأوائل احتراماً كبيراً للترجمة السبعينية، خصوصاً في ضوء الادعاءات عن أصلها المعجزي. وكانوا يعتمدون على هذه الترجمة في مباحثاتهم ومناظراتهم مع اليهود. إلا أن بعض المسائل العقائدية المستمدة من السبعينية، كانت مع الأسف تستند إلى ترجمة مغلوبة للآيات موضوع الجدل. ولم يتم التخلي عن هذه

العقائد إلا بعد أن اكتملت التراجم التي أجريت فيما بعد، مثل ترجمة جيروم اللاتينية المعروفة بـ"الفلغاتة" (Vulgate).

لم يوضع علم اللاهوت للكنيسة الأولى بشكل نظامي في البداية. فمثله مثل لائحة الأسفار القانونية في العهد الجديد، وأنجز قطعة قطعة، تجاوباً مع الاحتياجات الجارية، أو استجابة لما يطرأ من تساؤلات خاصة. لقد وضعت معظم الكتابات اللاهوتية ككتب يوستينوس (Justin) وإيريناوس (Irenée) وترتوليانوس وأوريجانوس جواباً عن تحديات أوردتها النقاد، أو بعض المسيحيين الذين كانت آراؤهم وتعاليمهم غير نقية. ففي الواقع، إن أولئك المقاومين يستحقون شكرنا، لأنه لولا تمجهم ذاك، لما حمل أصحاب تلك العقول الملهمة المعاصرة على الغوص في تفسير أدق المسائل المرتبطة بالنصوص الكتابية الموحى بها. إن هذه التساؤلات الأساسية نفسها تثار من جيل إلى جيل، والأجوبة التي قدمها لها ترتوليانوس وغيره منذ أكثر من ١٦٠٠ سنة، لاتزال في أحيان كثيرة بالأهمية عينها التي كانت لها وقتئذ.

ففي إحدى المناسبات، سأل بعض الذين دأبهم الحط من قدر الإيمان: لماذا سمح الله أن يقع الإنسان في الخطيئة؟ لماذا لم يحم الله الإنسان من الإغراء، أو يعطه، على الأقل، القوة لتخطي الإغراء؟ لقد احتجوا قائلين إنه عندما سمح الله لآدم بأن يقع في الخطيئة، لا بد من أن الخالق كان يفتقر إما إلى الصلاح وإما إلى المعرفة المسبقة وإما إلى القدرة. وكان قصدهم في الواقع، أنه لو أن الله موجود حقاً، لوقعت الملامة عليه بالنسبة إلى الشر الموجود في العالم، أو ربما أخوا بشكل مبطن إلى أن الله غير موجود على الإطلاق.

حمل ترتوليانوس بعنف على هؤلاء النفاذ وذلك بأسلوبه المؤثر المعتاد. قال: "والآن، جواباً عن تساؤلاتكم أيها الكلاب الذين طردهم بولس الرسول وأخرجهم خارج الأبواب (٦)، أنتم يا من تبهجون على الله، إله الحق. هذه هي الأسئلة التي ما فتئتم تقضمونها باستمرار كما تقضم الكلاب العظام: "إذا كان الله صالحاً ويعلم الأشياء مسبقاً، وله القدرة على ردع الشر، فلماذا يسمح للناس إذاً، بأن يخدعهم إبليس، ويسقطوا من الطاعة لقوانينه تعالى لكي يموتوا ... ؟ فإذا كان الله صالحاً، فهو لن يرغب في حدوث شيء كهذا، وإذا كان يعلم الأمور مسبقاً، فإنه لن يكون غافلاً عما سيحدث؛ وإذا كان قوياً، فإن باستطاعته الحؤول دون حصوله. وفي كل حالة أو وضع يتوجب أن يتطابق مع هذه الصفات الثلاث للجلال الإلهي". (٧).

وبعد أن أثار هذه التساؤلات، شرع ترتوليانوس في الإعداد للإجابة عنها. وقد اتبع في ذلك مثال المسيح، مشيراً إلى أن صلاح الله، ومعرفته الكلية، وقدرته المطلقة، ظاهرة بوضوح، من خلال أعماله في الخلق، وكذلك في إرساله الأنبياء الذين تبتسروا بدقة عما سيحدث في المستقبل. وأخيراً اقترح ترتوليانوس ألا يصار إلى البحث عن الشر في طبيعة الله، بل في طبيعة الإنسان؛ وأضاف قائلاً: "أجد أن الله خلق الإنسان مخلوقاً حراً وأعطاه إمكانية الاختيار. وهذا بالذات، يظهر لي شبه الله وصورته التي أوجدها في الإنسان إذ قد ميزه تعالى بالحرية وإمكانية الاختيار. ثم يأتي الناموس نفسه الذي أسسه الله ليثبت واقع حال الإنسان هذا. فالناموس لا يعطى إلا لذلك الذي يمتلك القوة لاختيار الطاعة التي يطلبها الناموس ... إذاً، منح الإنسان الحرية الكاملة ليختار بين الصالح والظالم، ليكون بذلك سيد نفسه باستمرار، ملتصقاً بالخير طوعاً، ونابذاً

كذلك للشر. لأن حكم الله على الإنسان (وهو على كل حال تحت هذا الحكم باستمرار)، من الضروري أن يكون عادلاً، ونتجاً من اختيار الإنسان الحر. وإلا، فإذا كان الله يدفع الناس عنوة ليكونوا صالحين أو طالحين، فلن تكون هناك عدالة في إدانتهم للشر أو الخير الذي يفعلونه بالاضطرار لا بالاختيار" (٨).

قال ترتوليانوس إنه كان بإمكان الله أن يلزم الإنسان بطاعته طاعة دائمة، لكن مثل هذه الطاعة تمثل العبودية أكثر من تمثيلها حب الإنسان لربه. إن الصلاح الحقيقي هو سجية علينا أن نقبلها طوعاً، وبشكل حر. فالإنسان غير مرغم أبداً على العيش حياة القداسة أو الشر. فبإمكانه، باختياره الشخصي، أن يلتصق بالخير ويقاوم الشر، وبهذا يصبح على شبه الله نفسه. ولكن إذا كان الإنسان حراً في اختياره الخير، فهو حر أيضاً في اختيار الشر: وهذا ما يفعله أحياناً. إن سقوط الإنسان، والشر الذي في العالم، هما النتيجة الحتمية للإرادة الحرة التي منحها له الله. وحتى في هذه الحال، يبقى الأمر أفضل من إلزام الإنسان بطاعة قسرية لله، تظهر قوته تعالى، ولكنها في الوقت عينه، تجعل الإنسان عبداً. إن الله، بمنحه هذه الحرية للبشر، أظهر بذلك بصيرته وحكمته وصلاحه، ولم يتنكر لها.

لم يكن ترتوليانوس صبوراً على أولئك الذين وجدوا لذة في السخرية من حكمة الله. لقد أعلن الله عن ذاته كما هو في الحقيقة: ديان وفاد. قال ترتوليانوس: "أنت تدعوه قاضياً، ومع ذلك فإنك تسخر من فسوة القاضي الذي يتعامل مع كل قضية كما تستوجب أو تستحق تماماً. أنت تطلب لهاً مطلق الصلاح، وبعد ذلك، عندما يظهر الله وداعته ولطفه من خلال تنازله، ليتلاءم مع قدرات الإنسان الفقيرة المحدودة،

تنتقص من قدره تعالى متهماً إياه بالضعف. فلا الإله العظيم يسرك ولا الإله الوديع، لا الإله القاضي ولا الصديق" (٩). ولكن الكثير الانتقاد لا يبدي في الواقع أي رغبة في قبول شيء، فهو يفرح بالسؤال أكثر من فرحه بالحصول على الجواب الشافي، ونادراً ما يابه لاكتشاف الحقيقة.

لم تكن وقائع حياة المسيح وموته وقيامته موضع نقاش أو جدل خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، لأنها كانت من المسلمات بالنسبة إلى اليهود والأمم على السواء. فلاهتمام كان بالحري منصباً على طبيعة المسيح نفسه. هل كان المسيح إنساناً عادياً مسحاً الله بقوة خاصة؟ أو هل كان ملاكاً وذا جسد شبه بشري؟ هل كان المسيح كائناً خاصاً، خلقه الله ولكنه ميزه عن كل الملائكة والناس؟ لقد تشعبت نظريات عديدة من تلك الأفكار التي تعرف اليوم بالبدعة الغنوسية. كانت المذاهب الغنوسية متأثرة جداً بالفكر اليوناني، وكان أنصارها يدعون أن لهم إدراكاً أعمق للحقائق مما لغيرهم من أبناء جيلهم، وذلك بسبب اطلاعهم، ومعرفتهم الواسعة بأسرار الفلسفة، وعلم الأساطير أو علم التنجيم. وقد فسروا الكتاب المقدس، وكل الأشياء الأخرى، في ضوء معرفتهم الخاصة هذه. كانوا يعتبرون المادة بجمليتها شراً، ولم يستطيعوا أن يتصوروا ابن الله القدوس آخذاً جسداً بشرياً. فقالوا فيه أنه ينبغي أن يكون إما ملاكاً وإما روحاً.

يقبل تروتوليانوس التحدي: "لم يهبط ملاك من السماء قط ليصلب ويختبر الموت، ثم القيامة من الأموات... لم يأت الملائكة ليموتوا، لذا لم يأتوا ليولدوا أيضاً. ولكن

المسيح أرسل ليموت، لذا كان من الضروري أن يولد حتى يتمكن من أن يموت" (١٠). لقد أصبح إنساناً حقيقياً من لحم ودم كما نحن.

وفي منا سبة أخرى، يرد ترتوليانوس على أولئك المعترضين، مبدداً الأفكار التي تقول إن الجسد البشري الفاسد، وبالتالي غير لائق بابن الله. "دعوني الآن أكمل قصدي إذ أبذل قصارى جهدي لإظهار كل ما منح الله الجسد عند خلقه". فعندما خلق الله آدم من طين الأرض، كان بإمكان آدم "أن يفتخر بأن هذا الطين الحقيق قد وجد في يديه تعالى ... وقد سرته هذه اللمسة بما فيه الكفاية" (١١). ولكن الله لم يفكر في آدم وحده عندما خلقه بجسمه هذا، وإنما فكر أيضاً في ابن الله الذي سيحصل أخيراً على الشكل نفسه والهيئة نفسها. "فلنفكر في الله وهو منشغل ومنهمك تماماً في عمل الإنسان، فيده تعمل مع مشاعره، ونشاطه، وتدبره وعلمه المسبق، وحكمته وعنايته، وفوق هذا كله تلك المحبة التي كانت ترسم الخطوط والمعالج في الكائن البشري. لأنه بينما كان الله يقول كل جزء من الإنسان من الطين، كان المسيح في فكره تعالى، باعتباره ذلك الإنسان الذي سيكون في الزمان الآتي. لأن كلمة الله سيصير طيناً وجسداً ... بعض الأشياء لها الامتياز بأن تكون أشرف وأنبل من أصلها ... فالذهب لم يكن سوى تراب قبل أن نستخرجه من الأرض، ولكن بعد تصفيته يتحول إلى ذهب صلب جامد، ويصبح مادة مختلفة تماماً عما كانت عليه قبلاً، إذ يكون أكثر إشراقاً وروعة، ويكون أكثر قيمة مما كان عليه في مصدره الوضيع الذي انبثق منه" (١٢). إن المسيح هو من طينة آدم وجبلته، بيد أن مجده هو أعظم بما لا يقاس.

إذاً، ليس من السخافة في شيء أن يكون المسيح إلهاً وإنساناً في آن، فهو يمتلك روحاً إلهياً وجسداً بشرياً. يضيف ترتوليانوس قائلاً: "فتعلم إذاً مع نيقوديموس كيف أن المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح" (١٣). فالجسد لا يصبح روحاً ولا الروح جسداً، ولكن يمكن لكليهما أن يوجد في شخص واحد. كان يسوع يتكون من جسد وروح - من جسد كإنسان، ومن روح بصفته الله. لقد دعاه الملاك "ابن الله"، وذلك بما أنه روح، مستقبياً للجسد اللقب "ابن الإنسان". وعليه فقد أيد الرسول بولس أن للمسيح طبيعتين عندما قال عنه: إنه "الوسيط بين الله والإنسان". (١٤).

حار الغنوستيون بفكرة الثالث الأقدس، ووجدوا صعوبة في إدراك كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله نفسه، مع أنه يختلف عن الله. لقد علموا أن المسيح هو كائن خاص، ولكن لا يجوز في نظرهم اعتباره مساوياً لله. أعطى ترتوليانوس قدراً كبيراً من التفكير في هذا الأمر. ويبدأ باستعراض ما نعرفه بوضوح عن الله نفسه بالقول: "قبل أن توجد الأشياء كلها، كان الله وحده. كان هو نفسه الكون الخاص به، والمكان الخاص به؛ كان الله كل شيء. كان وحيداً، بمعنى أنه لم يكن هناك شيء خارجاً عنه. ومع ذلك، لم يكن الله وحده، حيث كان معه ما هو جزء منه؛ لقد كان معه ذهنه. فالله هو عاقل والذهن موجود معه منذ الأزل، ومنه انتشر إلى كل الأشياء. وهذا الذهن هو وعيه الشخصي لذاته. واليونانيون يدعونه اللوغوس (Logos)، والذي هو المصطلح الذي نستعمله للخطاب. وهذا ما يترجمه شعبنا حرفياً بالقول: "في البدء كان الخطاب عند الله". (١٥). وهنا بالطبع، يشير ترتوليانوس إلى افتتاحية إنجيل يوحنا حيث أن

"الكلمة" (بمعنى الذهن والعقل والخطاب) يمثل المسيح. "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (١٦).

وأردف ترتوليانوس يقول إن هذا الكلام لا يصعب فهمه كما قد يعتقد أحدنا. "ولكي تفهم ذلك بسهولة أكبر، لاحظ أولاً نفسك (حيث أنت "صورة الله وشبهه" (١٧)) بأنه عندك أنت أيضاً ذهن، وذلك لكونك مخلوقاً عاقلاً ... لاحظ كيف أنه عندما تأخذ في مناقشة نفسك بصمت، وفي تشغيل ذهنك، فإن هذا الأمر نفسه يحصل فيك، حيث أن الكلام يعبر عندك عن الذهن، وذلك في كل لحظة من لحظات التفكير، وفي كل نشاط للوعي والشعور. فكل فكر تفكره يعبر عنه بمحدث وكلام، وكل لحظة من لحظات الوعي تعبر عن نفسها من خلال التفكير ... وعليه، فالحديث الذي يدور في داخلك مميز، بمعنى من المعاني، عن ذاتك" (١٨).

يفكر الله بالطريقة نفسها التي يفكر فيها الإنسان، حيث أن الإنسان صنع على صورة الله ولكن مع الفارق التالي: أفكار الله لها القدرة اللامتناهية لتصبح حقيقة. بإمكان الإنسان أن يفكر في أمور عظيمة ولكن ليس له القدرة على أن يحقق كل ما يتصوره. الله بالمقابل، لا يحتاج إلا إلى أن يفكر في شيء، فيقدر على أن يخلق هذا الشيء كاملاً وذلك فوراً ومن العدم. والكلمة الذي كان دائماً في فكر الله ولد أو أنجب في اللحظة التي فيها أنجز الله مضمون فكره. "هذا إذاً هو الوقت الذي يظهر الكلمة بمظهره ولباسه الخارجيين ... كانت هذه الولادة الحقيقية للكلمة عندما انبثق من الله" (١٩). فقد لاحظ تلاميذ المسيح أن سيدهم كان الكلمة الذي خرج من الله.

"والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً"
(٢٠).

قال ترتوليانوس إن "الكلمة (المسيح) جعل الله أباً له حيث أصبح انبثاقه منه، الابن الأول، وهو كذلك لأنه منبثق قبل كل الأشياء؛ كذلك هو الابن الوحيد للآب بصفته منبثقاً بشكل فريد من أحشاء قلبه تعالى" (٢١). والكتاب المقدس يبرهن لنا هذه الحقيقة حيث أن المسيح نفسه قال إنه جاء من عند الله، من عقله الداخلي. وقد تحدث المسيح عن المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم (٢٢). كذلك تحدث عن محبة الآب له قبل تأسيس العالم (٢٣)، وعن الآب الذي أرسله إلى العالم المخلوق (٢٤). ولكن حتى عندما كان المسيح على هذه الأرض، كان "في الآب". وهو الذي صرح بالقول: "أنا والآب واحد". وأيضاً: "لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني" (٢٥). لقد جاء المسيح من الآب، وكان لا يزال واحداً مع الآب. وبعد قيامته عاد إلى الآب. كان دائماً وبشكل ثابت، كلمة الله، والإعلان الإلهي الظاهر للخالق الإلهي ذاته.

بهذا الأسلوب حاول ترتوليانوس أن يجيب عن أسئلة الغنوسيين. ولكن، كانت هناك جماعات أخرى على نقيض الغنوسيين، تثبت أن المسيح والآب كانا متطابقين على نحو مطلق. وقد وجد ترتوليانوس جواباً لهؤلاء أيضاً. فيسوع نفسه قال: "أبي أعظم مني" (٢٦). وذلك، كما لاحظ ترتوليانوس، لأن الآب هو الجوهر الكامل (لألوهية) بينما الابن انبثق منه وهو جزء من كل ... جاء الابن من الآب، ولكنه لم يكن منفصلاً عنه. لأن الله ينتج الكلمة ... كما الجذر ينتج النبتة، والنبع النهر، والشمس الشعاع، حيث أن هذه المظاهر كانت "امتداداً" للجوهر الذي انبثقت منه.

أنا لا أتردد في أن أدعو النبتة "بنت الجذر"، وكذلك النهر "ابن الينبوع"، والشعاع "ابن الشمس". حيث أن كل مصدر أصلي هو والد أو والدة، وما ينتجه هو ابنه أو ابنته، وهذه الحقيقة تصح أكثر بكثير على كلمة الله الذي حصل على اسم "ابن" كلقبه المناسب. ولكن النبتة ليست منفصلة عن الجذر، والنهر ليس منفصلاً عن الينبوع، والشعاع غير منفصل عن الشمس، وهكذا كلمة الله ليس منفصلاً عن الله. وعليه، واستناداً إلى هذه التناظرات، أعترف بأنني أحدث عن اثنين: الله وكلمته، الآب وابنه. إن الجذر ونبتته هما اثنان، ولكنهما متحدان. النبع والنهر اثنان، ولكنهما موحدان؛ الشمس وشعاعها اثنان، ولكنهما متحدان. فإن أي شيء ينبثق من أي شيء آخر يحتاج إلى أن يكون شيئاً ثانياً، ولكنه ليس بالضروري منفصلاً عنه. وعندما يكون هناك واحد ثانٍ، فإنهما اثنان، وعندما يكون هناك ثالث يكونون ثلاثة. الروح القدس هو الثالث من الله والابن، كما الثمرة من النبتة فوق الأرض هي الثالثة من النبتة، والقناة من النهر هي الثالثة من النبع، والنقطة المضاءة بالشعاع هي الثالثة من الشمس. ولكن أحداً من هذه غير منفصل عن الأصل الذي تستمد منه صفاتها الخاصة. وعليه، فإن الثالث ينبثق من الآب بخطوات مستمرة ومتصلة بعضها ببعضها الآخر. وهذا لا يطعن، بأي حال من الأحوال، في وحدته تعالى، ولكنه يحافظ على حقيقة كونه يعلن ذاته بطرق مختلفة" (٢٧).

وبهذا، ختم ترتوليانوس حديثه قائلاً إن الابن والروح القدس انبثقا من الله نفسه. كانا موجودين مع الآب منذ الأزل، ولكن، في الوقت المعين أرسلنا كإعلان عن الله نفسه. الكلمة هو الله، ولكن الله هو أكثر من مجرد كلمته. الروح القدس هو الله،

ولكن الله أكثر من مجرد روحه. فالله يشتمل على كل هؤلاء: هو نفسه، كلمته وروحه. إن كلمة هو إعلانه عن نفسه تعالى. وروح الله هو إعلانه عن نفسه أيضاً، ولكنه يبقى هو الله نفسه، الله الواحد كما كان دائماً وكما سيبقى إلى الأبد.

ولكن ترتوليانوس اعترض على بعض الناس الذين يدعون أنه لم يكن هناك فرق أو تمييز بين الآب والابن، ويذهبون في ذلك إلى حد الجرم أن الله الآب مات على الصليب وحمل خطية الإنسان. أجابهم ترتوليانوس: "إن هذا القول هو تحديف على الله، فلنتوقف عنه، ولنكتف بالقول إن المسيح ابن الله هو الذي مات. لقد مات، لأن هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس ... وعليه، وبما أن للمسيح طبيعتين، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، وبما أنه متفق عليه أن الله لا يموت، إذاً الطبيعة البشرية هي وحدها الماتة. فمن الواضح أنه حين قال الرسول، إن "المسيح مات" فهو يتحدث عن الجسد والإنسان وابن الإنسان، وليس عن الروح والكلمة وابن الله" (٢٨).

للمسيح طبيعتان، أضاف ترتوليانوس، "متحدان في شخص واحد، يسوع، الذي هو الله والإنسان ... لقد ظل كل جوهر محتفظاً بخصائصه، بحيث تم الروح في المسيح نشاطاته الخاصة - القوى والمعجزات والأمارات - بينما جسده اختبر ما يختص بالجسد - الجوع عندما التقى المسيح يابليس، والعطش في مقابله المرأة السامرية، والبكاء عند موت اليعازر، والاكثاب حتى الموت، وأخيراً موت الجسد" (٢٩). لقد جرب المسيح بجسده وفكره، الإغراءات نفسها التي تصيينا (٣٠)، فلم يكن محصناً ضد الإغراءات، كما لم يكن متأكداً من النصر الفوري عليها. ولكنه كان يستمد القوة من الروح الإلهي الموجود فيه، فلم يستسلم قط. تألم ومات بجسده البشري كابن الإنسان، ومع ذلك فقد

بقي روحه الإلهي حياً. ترك روحه الجسد في لحظة الوفاة (٣١). ولكنه عاد إليه مرة ثانية عند قيامته من الأموات.

وهنا نرى الفرق بين الابن والآب. الآب لا يتغير وليس له جسد مادي. فهو لا يموت ولا يقوم من الأموات. الابن هو الذي عانى وتألم ومات بالجسد، كما يحدث للإنسان فقط. لقد صرخ يسوع: "إلهي إلهي لماذا تركتني" (٣٢). قال ترتوليانوس: "لقد كانت هذه الصرخة صرخة الجسد والنفس؛ كانت صرخة الإنسان، لا صرخة الله. وهذا ما عناه الرسول بقوله إن الآب لم يشفق على ابنه (٣٣)، وقبل هذا، صرح أشعيا النبي قائلاً: "والرب وضع عليه إثم جميعنا" (٣٤). كان الله الآب هو الذي بذل الله الابن من أجلنا. وكان الله الابن وحده من انبثق من الآب، وتجسد، وحمل أوزار الخطية. "الآب يختلف ويتميز عن (إنسانية) الابن، مع أنه لا يختلف عنه بألوهيته". وقد قدم ترتوليانوس الإيضاح هنا بالقول: "إذا كان هناك جدول مياه ملوث ... فهذا لا يؤثر في مصدره أو منبعه، مع أنه ليس هناك انفصال بين المصدر والجدول" (٣٥). لقد أميت الابن، ولكن ليس للآب جسد بشري، لذا لا يمكن أن يموت. وهنا يكمن الفرق بين أقانيم اللاهوت.

لقد كانت مثل هذه المناظرات اللاهوتية ضرورية لحفظ الإيمان ونقله إلى الأجيال الصاعدة من دون فساد أو خطأ. ولكن لا يفترض بالجميع أن يتبعوا مثل هذه التعقيدات من الإنباتات المنطقية والتفنيد. وحسن الحظ نقول إن التعاليم الأساسية للمسيحية كانت واضحة وعملية بشكل ممتاز. وكان أبسط المؤمنين يتمكن من قبول كلمات يسوع بمعناها الظاهري - لإطاعتها والإيمان بها، حتى وإن لم يفهمها بالكامل.

فالإنسان يستطيع أن يخدم المسيح من دون أن يقرأ حجج ترتوليانوس المعقدة، أو يفهمها تماماً.

منذ البدء راح المبشرون والوعاظ ينادون بالإنجيل في مناطق نائية لم تصلها بعد هذه الرسالة، وكانوا من ثم يعلمون المهتمين، كيفية الحياة كمسيحيين. عرف معظم أولئك الرحالة رسالة المسيح بشكل جيد، وفسروها بوضوح ودقة، ولكن بعضهم، مثل أبلوس في أفسس، وغيره، كانوا هم أنفسهم في حاجة إلى تعلم طريق الرب بأكثر تدقيق (٣٦). لقد خلفوا وراءهم مجموعات صغيرة من المؤمنين هنا وهناك ليناصلوا بأنفسهم، من دون أن يكون لديهم ولو جزء يسير من أسفار الكتاب المقدس. أنتجت بعض تلك المجموعات الجديدة أفكاراً وتعاليم غير صحيحة تماماً؛ وبعضهم الآخر أظهروا على نحو واضح، أن تعليمهم يختلف عن التعليم الأصيل. والمشكلة التي جابهت قادة الكنائس الموجودة هناك، هي كيف يمكنهم أن يميزوا بين المجموعات التي يجوز اعتبارها ككنائس حقيقية للمسيح، والمجموعات الأخرى المرفوضة. فاقترح ترتوليانوس مقياسين يمكن الحكم من خلالهما. أولاً، يسأل في الكنيسة إن كانت قد تأسست على يدي واحد من الرسل الإثني عشر، أو أحد الخدام الموافقين عليهم، والذين تم تعيينهم من أحد الرسل. ثانياً، هل الكنيسة تعلم المبادئ نفسها التي علمها المسيح ورساله؟ فإذا ما طابقت المجموعة هذين المقياسين يمكن اعتبارها رسولية، ويجري قبول أعضائها كإخوة في المسيح.

وبعد ذلك يضع ترتوليانوس المبدأ العظيم: اتحاد الكنائس الناتج من أصلها الواحد. فيعيدنا إلى التلاميذ الأحد عشر الذين اختارهم يسوع: "لقد شهدوا أولاً

بالإيمان بيسوع المسيح في كل أنحاء اليهودية وأسسوا كنائس هناك، ومن ثم ذهبوا إلى العالم وهم ينادون الأمم بالعقيدة نفسها المختصة بالإيمان نفسه. وبالطريقة نفسها أسسوا كنائس في كل مدينة، ومنها اقتبست كنائس أخرى برعم الإيمان وبدور العقيدة ... ولا تزال تقتبسها في كل يوم ... وهكذا فالكنائس، مهما كثرت وعظمت، هي شبيهة بتلك الكنيسة القديمة الواحدة التي أسسها الرسل، والتي انبثقت منها ... فكل الكنائس واحدة. وهي تبرهن وحدتها بسلامها المشترك. وباللقب "إخوة"، وبرباط الضيافة المتبادلة" (٣٧).

تحدى ترتوليانوس كنائس جديدة، كانت قد عرضت مبادئ وتعاليم غريبة، لتثبت نسبها وأصلاتها. فقال: "فليعرضوا أصول كنائسهم، وليكشفوا قوائم بأسماء نظارهم المتعاقبين بشكل متواصل منذ البداية، بحيث يستطيع أول نظارهم أن يؤكد أن أحد الرسل أو أحد تابعي هؤلاء الرسل هو سلف له في الخدمة، ومصدر لسلطته" (٣٨).

إلا أن ترتوليانوس أصر كذلك على فحص التعليم في الكنائس الجديدة، ليرى ما إذا كان يتناسب مع تعليم الكنائس التي أسسها الرسل أنفسهم. "والآن يجب الموافقة على مادة الوعظ في هذه الكنائس، أي إعلان المسيح لها، على أن يتم ذلك في نظري في ضوء شهادة الكنائس الأولى التي أسسها الرسل إذ كرزوا لها شخصياً، وبواسطة رسائلهم فيما بعد ... نحن في شركة مع الكنائس الرسولية إذ لا اختلاف في العقيدة. وهذا ما يضمن أننا نعلم الحق" (٣٩).

وقد زادت الحال تعقيداً بسبب وجود بعض المعلمين المبتدعين الذين قدموا مستندات تدعم نظرتهم الخاصة التي ادعوا أنها من مخطوطات الرسل. فرد ترتوليانوس على هذا بالقول: "حتى وإن استنبطت هذه البدع أنساباً كهذه، فلن يفيدهم ذلك في شيء، حيث عند مقارنة تعاليمهم مع تعاليم الرسل، تظهر باختلافها وعدم تشابهها أنها لم تصدر لا عن الرسل، ولا عن أي شخص كان له علاقة برسول... يجب أن تخضع لهذا الفحص جميع الكنائس اللاحقة التي تؤسس يومياً. ومع أنهم قد لا يستطيعون أن يذكروا رسولاً أو شخصاً له علاقة برسول، كمؤسس لهم، إلا أنهم يستطيعون، إن تحدوا حول الإيمان الواحد، أن يحسبوا أيضاً رسولين، وذلك بسبب التجانس في التعليم" (٤٠).

وحين واجه ترتوليانوس التكاثر المستمر للكنائس الجديدة، شعر بأنه من المرغوب فيه عند كل كنيسة أن تسجل أصلتها ونسبها خطوة خطوة، حتى تعود بهذه الأصالة أو النسب إلى أحد الرسل، ولكن الخك الأهم للتعليم الصحيح كان بوضوح، إمكانية إثبات أن عقيدتها تتناسب مع عقيدة الرسل، كما هي مدونة في الكتاب المقدس، وكما كانت تعلم الكنائس القديمة. مع ذلك، لم يعش ترتوليانوس ليرى حشد القوى المتناحرة، للمعركة الكبيرة بين "العقيدة" و"النسب والأصالة" التي وقعت بعد قرن واحد من وفاته.

حواشي الفصل:

١ - لا ينبغي لنا أن نخلط بين رسالة برنابا وما يسمى "بإنجيل برنابا"؛ إذ لا توجد أي إشارة إلى هذا الأخير في أي وثيقة قبل نهاية القرن الخامس، حين ذكر كعمل هرطقي متأخر وغير مقبول. وهناك كتاب يرجع إلى القرن الثامن عشر يدعي أنه هو ذاك الإنجيل المفقود. لكنه مكتوب بالإيطالية، ويحتوي على اقتباسات من قرآن القرن السابع ومن "الكوميديا المقدسة" لدانتى في القرن الثالث عشر للميلاد. لذا، فلا شك في أن هذه الوثيقة الإيطالية لا ترجع إلى زمن الرسل. وأخيراً نلاحظ أنه لم يتم العثور على أي وثيقة أخرى عن هذا "الإنجيل" المزيف.

٢ - *Epistolae Festales* ٣٩; Bainton p. ٩٨

٣ - *Adversus Praxean* ١١

٤ - (٢ بطرس ١: ٢١)

٥ - *Apologeticus* ٣٩

٦ - بالإشارة إلى (فيلبي ٣: ٢)

٧ - *Adversus Marcionem* ٢:٥ . راجع ترجمة: Bettenson

١١٢ - *ECF* pp. ١١١

٨ - *Adversus Marcionem* ٢:٦

٩ - *Adversus Marcionem* ٢:٢٧

١٠ - *De Carne Christi* ٦

إن المعجزات التي مجدت ولادة المسيح وخدمته الشفائية وقيامته وصعوده تبين بوضوح أنه أعظم من أي واحد من الأنبياء. لذلك، ومنذ الأزمنة الأولى، نال اللقب الفريد والسامي: "ابن الله"، بوصفه الشخص الذي مثل الألوهية وأظهرها في الأرض. هذا، وإن المسيحيين في الماضي، كما في الحاضر، يعرفون أن لهذا التعبير مفهوماً رمزياً وروحياً، وليس جسدياً أو مادياً.

***De Resurrectione Carnis* ٦ - ١١**

***De Resurrectione Carnis* ٦ - ١٢**

١٣ - بالإشارة إلى (يوحنا ٣ : ٦)

١٤ - ***Adversus Praxean* ٢٧** ؛ بالإشارة إلى (١ تيموثاوس ٢ : ٥)

***Adversus Praxean* ٥ - ١٥**

١٦ - (يوحنا ١ : ١ - ٣)

١٧ - بالإشارة إلى (١ كورنثوس ١١ : ٧)

***Adversus Praxean* ٥ - ١٨**

***Adversus Praxean* ٧ - ١٩**

***Adversus Praxean* ٧ - ٢٠**

٢١ - (يوحنا ١ : ١٤)

٢٢ - (يوحنا ١٧ : ٥)

٢٣ - (يوحنا ١٧ : ٢٤)

٢٤ - (يوحنا ١٧ : ١٨)

٢٥ - (يوحنا ١٠ : ٣٠ و ٣٨ ؛ ٨ : ١٦)

٢٦ - (يوحنا ١٤ : ٢٨)

Adversus Praxean ٧ - ٢٧

Adversus Praxean ٢٩ - ٢٨

Adversus Praxean ٢٧ - ٢٩

٣٠ - (عبرانيين ٤ : ١٥)

٣١ - (متى ٢٧ : ٥٠)

٣٢ - (متى ٢٧ : ٤٦)

٣٣ - بالإشارة إلى (رومية ٨ : ٣٢)

٣٤ - *Adversus Praxean* ٣٠ ؛ بالإشارة إلى (أشعيا ٥٣ : ٦)

Adversus Praxean ٢٩ - ٣٥

٣٦ - (أعمال ١٨ : ٢٤ - ٢٦)

De Praesceptione Haereticorum ٢٠ - ٣٧

De Praesceptione Haereticorum ٣٢ - ٣٨

De Praesceptione Haereticorum ٣٢ - ٣٩

De Praesceptione Haereticorum ٣٢ - ٤٠

راجع بشأن أمر تثبيت قانونية أسفار العهد الجديد:

Schaff *HOTCC* Vol. II pp. ؛ Bainton pp. ٩٧ - ٩٩

٥١٦ . بالنسبة إلى كتابات ترتوليانوس التي تشكل موضوع جدل، راجع *ANF*

Bettenson ECF Vols. III & IV . تعرض ترجمة حديثة أكثر بالإنجليزية
لمقاطع مختارة من عمل ترتوليانوس.

الفصل التاسع معاناة الأبرياء

منذ الأيام الأولى للمسيحية، عرف اللاهوتيين الإنجيل وفسروه بكل تأثير، ودافعوا عنه بالمنطق والذكاء. لكن، في واقع الحال، كان لعمل هؤلاء الدارسين المشهورين مساهمة في انتشار المسيحية فعلياً، أقل على الأرجح من البرهان المنطوق لقوتها كما برز بين معتنقيها الأكثر تواضعاً. لقد ظهر الإيمان الجديد بأنه معقول ومقبول منطقياً. كما أنه لم يكن أقل فعالية في برهان صدقه وصحته، وذلك من خلال قدرته على تغيير حياة الناس العاديين من كل فئات المجتمع ومرتبته. وقد ظهرت جدارة هذا الإيمان في ما تحلى به المسيحيون الأولون من خلق مستقيم ومحبة رائعة في مجال تعاملهم مع جيرانهم. كما أن هذا الإيمان بان جذاباً في عطفهم على المحتقرين والضعفاء من الناس. أما قدرته، فقد برزت قبل كل شيء في مواجهتهم الاضطهاد بثبات لا يتزعزع. وبالتأكيد، كان أولئك المسيحيون على اتصال بالكائن الإلهي ذي القوة والسلطان العظيمين. لقد دقر لهذا الإيمان الجديد بشكل واضح أن يبطل تلك الفلسفات المعيبة، والديانات التي أثبتت أنها خيبة أمل محزنة للأجيال الماضية، لكي يحل محلها.

وعلى العكس ما يمكن أن نتصور، كان نمو الكنائس يزداد بسرعة على قدر ما يعنف الاضطهاد ضدها. وقد اعتبرت السلطات في شمال إفريقيا أن المسيحية تشكل تهديداً للاستقرار وأنها تعمل في جميع أشكالها ضد القانون، وذلك على مدى السنوات الثلاث مئة الأول من وجودها. وكان أتباع المسيح، في الواقع، يعتبرون من الخارجين على القانون، وهم معرضون في أية لحظة للمطاردة، وذلك من حكام وولاة القناصل

الرومان. كانت تمر سنين طويلة لم يكن يحصل فيها أي شيء يعكر نمو الكنيسة الهادئ. ثم فجأة، حين تجمع نزوة إمبراطور أو حاكم ما، كان يصيهم اضطهاد عنيف. وكان كل مسيحي مؤمن يعلم، أنه عاجلاً أم آجلاً، قد يأتي ذلك الوقت الذي فيه يشهد للمسيح وذلك على حساب حياته.

كانت كنائس شمال إفريقيا قد ألفت كتابات العهد الجديد وما دونه من أعمال الشهادة، كاستشهاد استفانوس ويعقوب. كما وصلتهم فيما بعد أخبار عن الإمبراطور انجنون نيرون (Néron)، الذي حرصه غيظه المتوحش ضد المسيحيين في روما، وعن ادعائه الكاذب بأنهم أضرموا النار في روما ما أدى إلى هدم جزء كبير من المدينة. لقد علموا بموت البشيرين بطرس وبولس اللذين من المحتمل أنهما قتلا في هذا الوقت. وكانوا يسمعون بحوادث الاستشهاد التي كانت تحدث دورياً وبين الحين والآخر، في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الرومانية، كاستشهاد إغناطيوس (Ignace)، ناظر الكنيسة في أنطاكية، والذي سيق إلى روما وقُتل هناك سنة ١١٠م، واستشهاد يوستينوس الشهيد (Justin Martyre) في العام ١٦٥ للميلاد في روما أيضاً. ولكن لم يكن هناك شيء تجاوز أو حتى وصل إلى المشهد المأساوي لاستشهاد بوليكاربوس (Polycarpe) في أيامه الأخيرة، وهو ناظر كنيسة سميرنا (تركيا). وهذه الحادثة الأليمة المذكورة في رسالة طويلة كتبها المؤمنون في تلك المدينة.

كان بوليكاربوس في أيام شبابه من تلاميذ الرسول يوحنا، وصديقاً لإغناطيوس. وعندما أصبح شيخاً مسناً كانت كنائس المنطقة تنشد في كثير من الأحيان استشارات الحكيمة والحجة. وغالباً ما كان يُدعى لحل الخلافات التي قد تنجم من جرّاء اختلاف

وجهات النظر و الآراء. عاش شيخوخة سعيدة وحافلة بالإنجازات في وسط الجماعة المسيحية التي أحبته وكرّمته.

اهتزت الكنيسة في سِمينرنا بعنفٍ عندما أَلقت السلطات الوثنية، وبشكلٍ مفاجئ، القبض على عددٍ من أعضائها، وجرى إعدامهم بسبب الإيمان. وقد اجتمع كل من اليهود و الوثنيين ليستمتعوا بالمشهد. وفي خصم هذه العاصفة الهوجاء، راح بعض المتفرّجين يطالبون بقائد الكنيسة هاتفين: "فتشوا عن بوليكاربوس."

وهكذا تابع مؤمنو سِمينرنا بكل أمانة، شرح ما حدث بعد ذلك، فكتبوا: "عندما سمع بوليكاربوس، الرائع للغاية، بهذا الأمر لأول مرة، لم يرتعب أو يفرغ، بل رغب في أن يبقى في المدينة إلا أنّ غالبية المؤمنين حاولوا يلاحق أن يقنعوه بأن يترك المكان، فانسحب إلى مزرعة صغيرة لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي كان فيها. وكان يقضي وقته هناك مع نفرٍ من رفاقه، مشغولين ليل نهار بالصلاة لأجل الجميع و للكنائس في كل أنحاء العالم، كما كانت عادته دائماً." وبعد بضعة أيام، انتقل إلى مزرعة أخرى قريبة، رافضاً بثبات الفرار من الجوار. كان يتوقع بالكلية أن تقبض عليه السلطات الرومانية في أية لحظة، وكان ينتظرهم بهدوء تام.

وفي وقتٍ متأخر من إحدى الليالي المظلمة، وصل جنود إمبراطوريون إلى المزرعة. وكان بوليكاربوس يرتاح في الغرفة العلوية. وإذ سمع أصواتاً وصخباً في الطابق السفلي، قال باطمئنان: "لتكن إرادة الله." ثم نهض و طلب أن يُحضّر الطعام والشراب المنعش للجنود، وسألهم أن يمهلوه ساعةً واحدة فقط ليصلي. فعندما رآه الجنود، تأثروا من شيخوخته وثباته، كما دهشوا من افتعال مثل هذه الجلبة والضجة بسبب هذا

الرجل الطاعن في السن. "وقف وصلّى،" أردف الصحابة المسيحيون في سِمرنا قائلين: "كان ممتلئاً من نعمة الله تعالى، بحيث لم يكفّ عن الكلام خلال ساعتَي الصلاة، بينما كان الذين حولَه مشدوهين متعجبين. لقد أسف الرجال الجنود، على أنهم جاءوا يطلبون هذا الرجل الجليل والعجوز المهيب." لقد صلّى للجميع، ولإخوته ولأخواته في المسيح، ولكل من خطر بباله من الصحاب والأصدقاء، ذاكراً إياهم بأسمائهم. ومن ثمّ أجلسوه على حمار، وساروا به يقصدون الحكمة في سِمرنا.

وعندما اقتربوا من المدينة، لاقاه رئيس الشرطة هيرودس و والده صدفةً في الطريق. فأخذوا بوليكاربوس في عربتهما وحاولا ثنيه عن عناده ورفضه القول: "مولاي القيصر"، ورفضه إنقاذ حياته بتقديم القرابين و التقدّمات للآلهة الوثنية. ومع ذلك، فقد أصرّ الشيخ الجليل على الرفض بأدب جم. وأخيراً، حين يتسوا من ثباته، وقد نفد صبرهم، دفعوه بغضبٍ إلى خارج عربتهم. وقع بوليكاربوس بقوةٍ إلى الأرض فجرحت رجله. وقد استخفّ بجرحه، وبقي سائراً في الطريق مع حرسه، حتى وصلوا أخيراً إلى الملعب، وهو الميدان الذي تجري فيه المباريات وتُعرض فيه المشاهد. ثم تابع كاتب الرسالة يقول: "الآن، وبينما كان يدخل المدرج، جاءه صوتٌ من السماء يقول له: "تقوّ يا بوليكاربوس، وكن رجلاً." لم يرَ أحدٌ المتكلم، ولكنّ ذلك الصوت سمعه الإخوة المؤمنون الذين كانوا حاضرين هناك." وعلا صوت الاحتشدين حتى أصبح من الصعب سماع ماذا كان يجري. سأل القاضي بوليكاربوس أن يقسم بقوة قيصر الإلهية، وأن يعلن المسيح. فأجاب بوليكاربوس، وكان جوابه واحداً من كنوز التاريخ المسيحي: "لقد

خدمت المسيح ستةً وثمانين سنة، ولم يخذلني المسيح أبداً. فكيف تريدني الآن أن أجدف على اسم مليكي ومخلصي؟"

أذره القاضي ثانيةً، فازداد بوليكاربوس صلابةً وشدةً، وقال: "إن كنت تتوهم، أنني سأقسم بقدرة قيصر الإلهية كما تقول، متظاهراً أنك لا تعرف من أنا، فاسمع جيداً: أنا مسيحي. و إذا كنت مستعداً وراضياً على أن تتلقن التعليم المسيحي، فامنحني يوماً واحداً وأصغ إليّ." حينئذ قال الوالي: "إذا أقنع الناس الذين هنا." فأجاب بوليكاربوس: "لقد حسبتك مستحقاً أن أتكلم معك، فإن عقائدنا تعلمنا أن نخضع للسلطين وللذين هم في منصب، لأنهم مقاومون من الله. أما هؤلاء الرعاغ، فلست أجدهم يستحقون أن أقدم دفاعي أمامهم." هنا، أذره القاضي ثانيةً طالباً منه أن يقرب التقدّمات للوثن، مهدداً إياه بالوحوش الكاسرة في حال استمرّ رفضه. فقال بوليكاربوس: "أرسل في طلبها، إن الارتداد من الأحسن إلى الأسوأ هو أمر مرفوض عندنا، ولكن التغيير من الباطل إلى الحق هو العمل النبيل." عند ذلك هدده القاضي بأن يضرم به النيران وهو حي. "أنت تهددني بنار تشتعل لفترة قصيرة،" أجاب بوليكاربوس، "ولكنك لا تعلم شيئاً عن النار الأبدية التي أعدت للأشرار. والآن تتوانى، جئ بما تشاء."

عندها نطق القاضي بالحكم على بوليكاربوس، فأعلن المنادي الذي يذيع الأحكام من منتصف المدرج قائلاً ثلاث مرات: "لقد اعترف بوليكاربوس أنه مسيحي!" فجهّز العمود الذي يُشد إليه المحكوم بالموت حرقاً، و كُذبت حوله كومة من الخشب. مشى بوليكاربوس مهدوء وتوّد إلى المكان، و وقف قبالة العمود. وبينما اقترب منقذو الحكم ليسمروه على العمود حتى لا يسقط، طلب بوليكاربوس ألاّ

يكلّفوا أنفسهم كل هذه المشقة بالقول: "ذاك الذي يعطيني القوة لتحملّ اللهب، هو نفسه سيمكّنني من الوقوف بثبات." لذا فقد رُبط بجبلٍ فقط، وإذا اندلعت النيران بقوةٍ حوله، سُمع صوته وهو يقدم الشكر لله الذي سمح له بأن يعاني الآلام، كما عانى مخلصه، من أجل الحق، ورفع عينه إلى السماء قائلاً: "أيها الرب القادر على كل شيء، أشكرك لأنك اعتبرتي مستحقاً في هذا اليوم، وفي هذه الساعة، أن أشارك مع الشهداء في القيامة للحياة الأبدية." وبعد هذا رأوا اللهب يعلو ويتصاعد حوله، من دون أن يظهر على بوليكاربوس أنه يتأذى. عندئذٍ غمد أحد العساكر سيفاً في جنبه. وللوقت، اندفع الدم يتدفق من جنبه وكأنه جدول من الجداول، سبب في إطفاء النار. إلا أن الوالي كان قد قرر أنه لا يحق للمسيحيين أن يكون لهم الكلمة الفصل، ولا أن يتسلّموا جثة قائدهم الموقر. لذلك، أمر بإضرام النار ثانيةً. وهكذا دخل بوليكاربوس إلى فرح سيده. (١)

لقد اتّحد كل من اليهود الوثنيين والجماهير والسلطات، بقلب واحد وفكرٍ واحد، لإبادة الجماعة المسيحية. إلا أن مثل هذا العمل كان بعيداً كل البعد عن تناول أيديهم. "لم يعلم هؤلاء"، تقول الرسالة من سَميرنا، "أننا لا نستطيع أبداً أن نتخلّى عن المسيح، الذي تألم لتأمين الخلاص لأولئك الذين ينالون الخلاص من العالم بأسره، وأنا لا نتمكن أبداً من عبادة أي شيء آخر." وبموت بوليكاربوس في العام ١٥٦ بعد الميلاد، توقّف اضطهاد المسيحيين في سَميرنا. لقد فشلت هذه الأساليب القمعية تماماً في إرهاب الكنيسة أو ترعيها. والآن جاء دور بلاد الغال (Gaule) وشمال إفريقيا.

ظهرت أولى بوادر عملية اضطهاد المسيحيين في مناطق الشواطئ الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، في أثناء حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس (Marc Aurele) وابنه كومودوس (Commode) في الفترة بين العامين ١٧٧ و١٩٢ ميلادية. وفي هذا الوقت أيضاً، وصلت الأخبار إلى كنائس إفريقيا الشمالية عن الحوادث التي تقع في بلاد الغال (فرنسا)، تلك الحوادث التي سلّطت الضوء على الشعور الذي كان سائداً في الإمبراطورية الوثنية في ذلك الوقت. ففي مدينة ليون (Lyon) وفيان (Vienne) انتشرت شائعات تدّعي حصول أشياء بغيضة في الأوساط المسيحية: زنا المحارم، قتل وحتى أكل لحوم البشر. ونتيجة لهذه الشائعات الكاذبة، أبعاد المسيحيون عن الأماكن العامة، والحمامات والأسواق، ومنعوا من الظهور علناً. وفي العام ١٧٧ ميلادية، عُدّب عدد من الخدام والعييد العاملين في بيوت المسيحيين، وذلك بأسلوبٍ بشع في محاولة من المعدّين لتثيت هذه التهم الكاذبة. وهكذا تمكّنوا بحمد السيف من انتزاع شهادات واعترافات رهيبه، من هؤلاء القوم الضعفاء والحائرين في ساحة المدينة. وقد أثار الرعاع من جراء ذلك مشاعر بعضهم بعضاً إلى درجة الجنون والهوس. كان المسيحيون يُجروّن إلى الساحات العامة، حيث كانت الحشود تزداد غضباً لدى سماعها التهم الملققة على المسيحيين. ولكن، بالرغم من شتى ضروب التعذيب الرهيبة، لم يجد الحكّام دعماً لاتهمهم المسيحيين بالخيانة العظمى ضد الإمبراطور.

أُجبرت إحدى الجوارى المدعوة ببيلياس (Bibilias)، على الإدلاء بتصاريح كاذبة ضد العائلة المسيحية التي كانت تعمل لديها، ثم سيقّت الجارية ثانيةً لتدلي

بتصريحات إضافية ضد هذه العائلة. ولكنها في هذه المرة وقفت ضد معذبيها وعارضتهم قائلةً إنها هي أيضاً مسيحية، وإن ما أدلت به في السابق ضد هذه العائلة كان ادّعاءً لا أساس له من الصحة، وقالت، إن هذه العائلة بريئة من أية جريمة. فماتت هذه الجارية شُجاعةً ثابتة الإيمان. كذلك، فإن أحد المعاونين في مدينة ليون، وكان يدعى سانكتوس (Sanctus)، ألقى القبض عليه، وصُبَّ النحاس الساخن على جسده، لكنه لم يقل إلا عبارة واحدة ردّها باستمرار، وهي: "أنا مسيحي."

وفي مدينة مجاورة، رفض أحد الشباب الأغنياء، ويُدعى سيمفورينوس (Symphorinus) أن ينحني أمام صنم الإلهة سيلي (Cybele)، فحُكِمَ عليه بقطع رأسه. وكانت أمه، هي الأخرى، مسيحية، ولم تُظهر أية علامة من علامات الخوف أو الفرع. وعندما كان في طريقه إلى منصّة الإعدام، صرخت إليه قائلةً: "اثبت يا بني، ولا تخف من الموت الجسدي الذي سيؤدي بك بكل تأكيد إلى الحياة. انظر إلى الرب الذي مُلكه في السماء. إن حياتك الأرضية لا تؤخذ منك اليوم، وإنما يحوّلها الرب إلى الحياة الأبدية المباركة في السماء."

توفّي عدد كبير من المؤمنين في سجون ليون خلال تلك الحقبة من الزمن، وذلك من دون إجراءات قضائية أو محاكمة. أما أولئك الذين سلّموا وعاشوا، فقد وضعوا تقريراً لما حصل فتحدّثوا بكلمات مؤثرة عن قائد مسنّ في الكنيسة. "والآن، جاء دور بوثينوس (Pothinus) المبارك الذي كان مؤتمناً على خدمة النظارة في ليون، وكان قد تجاوز التسعين من عمره، وبات ضعيف الجسم و واهناً جداً... لقد استُدعي إلى كرسي الحكم يحرسه قضاة المدينة وكل أسافل الناس الذين كانوا يصرخون ويصفرون

مستهزئين بجلبة كبيرة. وإذ سأله الحاكم من هو إله المسيحيين؟ أجابه: "إذا كنت أهلاً وجديراً فأنت ستعرف بنفسك." وعندها تمّ جرّه بلا شفقة، وبدأ المتجمعون يركلونه ويلطمونه، وأما الذين كانوا بعيدين عنه، ولم يتمكنوا من أن تطاله أيديهم أو أقدامهم، فقد كانوا يقذفونه بما عندهم من حاجات أو أشياء، وكان يتنفس بصعوبة حين ألقى في السجن، ولم يمرّ يومين حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

لقد عُذِّبَت جارية أخرى تُدعى بلاندينا (Blandine)، خلال فُهار كامل، وبوحشية رهيبة أذهلت الجنود: كيف يمكن لهذه الجارية أن تبقى حيّة بعد كل هذا التعذيب الوحشي المروع؟! من ثم جرى ربطها إلى عمود، وعُرضت للوحوش الكاسرة، وكان يُوتى بها يوماً لترى العذاب الذي يكابده أصدقاؤها. وكانت ترفع صوتها باستمرار مصليّة من أجلهم جميعاً. ثم رُبطت أخيراً بشبكة وألقيت أمام ثور هائج استمر ينطحها حتى استشهدت في المدرج، رافضةً أن تقول كلمةً ضد المسيحيين. لم يكن مسموحاً بأن تُدفن جثث الشهداء، وإنما كانت تُحرق حتى تصبح رماداً، وأخيراً تُلقى في نهر الرون (Rhone).

إنّ ما لدينا من قصص مكتوبة عن هؤلاء الشهداء في ليون و في فيان، تكشف الستار عن الروح المسيحية الرائعة التي كان المسيحيون يتحلّون بها. فلم يُظهر هؤلاء أية علامة من علامات المرارة أو الحقد على أولئك الذين كانوا يضطهدونهم، ولا ضدّ أي من أولئك الذين ادّعوا عليهم زوراً وبهتاناً، بجرائم لم يرتكبوها. لقد كتبوا: "ليس هناك شيء يخيفنا حيث يكون حب الآب السماوي، ولا شيء يؤلم، ما دام المسيح

يشرق علينا بمجده. " كذلك، لم يدينوا إخوتهم وأخواتهم الضعفاء الذين لم يستطيعوا تحمّل معاناتهم، بل استسلموا إلى رغبات معذبيهم. بل أظهروا لهم على نقيض ذلك حناناً رائعاً، مصحوباً باتضاع فريد من نوعه. وماذا بعد، فإن هذه الحوادث كلها تؤكد لشعب بلاد الغال أن المسيحيين لم يكونوا مجرمين. فلم يثبت أنهم أذنبوا بأي من الأفعال الشائنة، ولم يتمكن أحد من إخافتهم بالشكل الذي يجعلهم يتكفرون لإيمانهم الذي يثقون بأنه حق. (٢)

من ثم انتقل مركز الأحداث عبر البحار، قاصداً الولاية الرومانية في إفريقيا البروقنصلية. حدث ذلك في وقت دُعي فيه مسيحيو مدينة سكيليوم (Scillium) ليعطوا حساباً عن أنفسهم. ولقد كان هناك سبعة رجال وخمس نساء، تشهد أسماءهم أنهم من خلفية أمازيغية وفينيقية، ومن خلفية بونية. يبرز أحدهم، ويدعى سبيراتوس (Speratus) في الوثيقة المكتوبة. ولا نعلم بالتأكيد إن كان هو السبب الذي من طريقه جاء الآخرون إلى الإيمان أم لا. إلا أنه يتبين بوضوح أنه كان قائد هذه المجموعة الصغيرة الشجاعة. كان في حوزتهم رسائل الرسول بولس، ويظهر جلياً أنهم قرأوها وقرأوا نصوصاً أخرى من الكتاب المقدس بشغف وحرص بالغين. وقد ألقى القبض عليهم في العام ١٨٠ ميلادية في مدينتهم (بالقرب من سيبتلة في تونس)، وسيقوا للاستجواب أمام حكام قرطاجنة.

تبدأ تفاصيل هذه الدراما الحية بوجود جمهور السكيليومين الإثنا عشر القائمين من قبل في قاعة المحكمة، وبحضور الوالي ساترنيوس (Saturninus). ثم يبدأ الاستجواب الذي سُجّل بتفاصيل صحيحة كاملة. كان الوالي إنساناً لطيفاً وعازماً على

أن يقوم بواجبه بالرغم من الاشمزاز الذي يشعر به من جراء هذه الوظيفة الكريهة كمستنطق. ثم راح يدير محضر الجلسة بتحفظ متّرن، وهو رابط الجأش هادئ. ومن كلماته الأولى أظهر استعداده لأن يكون متساهلاً وليناً باسم الإمبراطور، إذا ما أظهر المسيحيون عقلانية واعتدالاً. ومن جهته، أكد سبيراتوس براءتهم من أية جريمة. عندئذٍ حاول الوالي أن يعيده إلى موضوع الإخلاص والولاء للإمبراطور، فأجاب سبيراتوس: "لم نقم بأي عمل شرير، ولا اشترطنا في أي عمل سيء. لكن، عندما عوملنا بقسوة قدّمنا تشكراتنا، وذلك لأننا نحترم الإمبراطور الذي نحن له ونجّله." فحاول الوالي سيلاً آخر، وقال: "نحن أيضاً متدينون، وإن ديننا مستقيم، ونحن نأخذ أقسامنا من القدرة الإلهية لسيدنا الإمبراطور، ونصلّي من أجل سلامته. وعليكم أن تفعلوا الشيء عينه." تمسك سبيراتوس بكلمة نطق بها الموظف الرسمي، وهكذا خاطبه بالقول: "إذا ما أصغيت إليّ بصبر، فإنني سأشرح لك أسرار الاستقامة الحقّة." عند ذلك انتصب الوالي من مقعده وقال: "إن كل ما تريده هو مهاجمة ديننا، وأنا لن أصغي إليك. كل ما أريده منك هو أن تقسم بالقوة الإلهية لربنا الإمبراطور." أجاب سبيراتوس: "أنا لا أعجّد إمبراطورية هذا العالم، ولكن عوضاً عن ذلك فأنا أخدم الإله الذي لم يره أحد، ولا يمكن أن يراه بالعين المجردة. أنا لم أرتكب أية سرقة. وإذا ما اشتريت أيّ شيء، فإنني أدفع ما عليّ من ضريبة، لأنني أعجّد ربّي ملك الملوك وإمبراطور كل الأمم."

عاد الوالي إلى هدوئه من جديد. واستدار بوجهه عن هذا الإنسان العنيد المستعصي إلى أصدقائه، وحاول الدخول بينهم وبين قائدهم آملاً أن يكون انقيادهم بالأمر الأسهل. فاستحثهم قاتلاً: "اتركوا هذا الإيمان، ولا تشوشوا أنفسكم بهذه

الحماقات. " إلا أنه وجد الآخرين مملوئين عزمًا وإصراراً كسيدهم. وأخيراً، اضطرَّ أن ينطق بالحكم القانوني، ولكنه منحهم فرصة، بإيقاف التنفيذ لمدة ثلاثين يوماً عساهم يرغبون في إعادة النظر. رفضوا قبول التأجيل، مؤكدين أنهم عازمون على أن يبقوا مسيحيين: "نحن لا نخاف أحداً"، قال كتيнос (Cittinus) "ما دام ربنا وإلهنا موجوداً في السماء." وأضافت دوناتا (Donata): "نحن نجلّ قيصر كقيصر، ولكننا نخاف الله وحده." وقالت فستيا (Vestia): "أنا مسيحية." فأضافت سيكوندا (Secunda): "وأنا كذلك، وهذا ما أريد أن أكونه دائماً."

لم يُقل الشيء الكثير في ما بعد، وهكذا حُكم عليهم بالموت. وفي المستندات الحكومية الرسمية، تمَّ شرح الجريمة التي اتَّهموا بها، من دون إدانتهم إدانة متوحشة عنيفة. وقد سُجِّلت وقائع الحكم بهدوء وعلى الشكل التالي: "لقد اعترف كل من سيراتوس و نارتزالوس (Nartzalus) وكتينوس ودوناتا وفستيا وسيكوندا والآخرين بأنهم يعيشون بموجب الممارسة المسيحية. وقد مُنحوا فرصة ليعودوا إلى الديانة الرومانية، ولكنهم رفضوا هذه الفرصة بعناد. لقد حكمنا عليهم بالإعدام بحد السيف." فعلق سيراتوس بالقول: "نشكر الله." وأجاب نارتزالوس: "في هذا اليوم نكون شهداء في الجنة. الشكر لله." عندها أعلن المنادي الحكم. فهتف المتهمون جميعاً: "المجد لله." وهذا كل ما كان في الأمر. ووصلت القصة إلى نهايتها بهذا البيان البسيط: "وبهذا تُوجَّ الجميع بتاج الشهادة، وهم الآن يملكون مع الآب والابن والروح القدس من الآن إلى أبد الأبدين آمين." (٣)

اتّسمت هذه الرواية في كل سياقها، ببساطتها الصارخة، وبدقة التفاصيل التي قدّمت وصفاً حنوناً رقيقاً. لقد قال كل من المشاركين ما كان عليه أن يقول. والقصة تأخذ مساراً حتمياً، والنهاية لا مفرّ منها. ولدى ملاحظتنا لأشخاص هذه الدراما، يمكننا أن نرى بعض القوى التحتية في العمل: نزاع لا يقبل بأي حلّ أو تسوية بين نظرتين متعارضتين إلى العالم، عدم تفاهم أساسي بين مجموعتين من أصحاب الضمير المخلصين والتزهاء الذين يحكم الواجب أو الضمير، وجدوا أنفسهم يقفون أحدهما ضدّ الآخر. فقد وجد كل من خدّام المسيح وخدّام الإمبراطور أنفسهم في حالة خلاف، ومع ذلك لم يشعر أحدهم بأي شعور عدائي تجاه الآخر.

لقد أقيم مبنى كنيسة في ما بعد، في موقع مدافن الشهداء، ومن الممكن أن تكون بقاياها هي التي وُجدت في غرب قرطاجة قرب القرية الصغيرة دوار الشط. ومعروف أن كثيرين غيرهم قد استشهدوا، خلال هذه المدة عينها، في بقاع أخرى من إفريقيا الشمالية.

بعد ثلاثين سنة أطلّ الاضطهاد برأسه البشع من جديد. وفي هذه المرة كان يهاجم إنسان أمازيغي صرف. إنه الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس وهو الإفريقي الوحيد الذي لبس اللباس الأرجواني الإمبراطوري. كان سيفيروس مواطناً من مدينة لبتيس ماغنا (**Leptis magna**)، وهي بالقرب مما ندعوه الآن طرابلس الغرب. وقد حكم هذا الرجل الغريب روما لثماني عشرة سنة، من العام ١٩٣ ميلادية وحتى وفاته سنة ٢١١ ميلادية، بعيداً عن بلده في مدينة يورك (**York**) الانكليزية. ويصفه الكتاب الرومانيون "بالبربر" الذي تعلّم اللاتينية جيداً، ولكنه لم يفقد قط لهجته الإفريقية. وفي

سنوات حكم سفيروس الأولى، كان يعطف على المسيحيين ويفرق بهم، لأنه كان يعتقد أن شفاؤه من مرض خطر، كان بسبب مسحة من الزيت والصلوات التي قدمها له عبد مسيحي اسمه بروكولوس (Proculus). وقد سلّم تعليم أولاده وتثقيفهم إلى مربية مسيحية، ومعلم مسيحي أيضاً. على أي حال، تزوج سفيروس من ابنة كاهن إله الشمس، الذي كان يعبد في مدينة إيميسا (Emese) في سوريا. وقد مزج بين العبادتين، العبادة المسيحية وطقوس الديانات الأخرى السرية. لم يكتفِ هو وزوجته، أن يكونا حاكمين مطلّقين لإمبراطورية واسعة الأرجاء، بل اختارا أن يقدّما نفسيهما كجوبيتر (Jupiter)، كبير الآلهة على كل الأرض، وكجونو (Junon)، ملكته. فبعد أن تخلّص من منافسيه على السلطة، جلس سفيروس على العرش الإمبراطوري وحكم كل العالم المعروف آنذاك، ثم انكبّ بصرامة ومن دون رحمة على إطفاء كل شرارة من شرارات الحرية التي كانت لا تزال موجودة في أراضي سلطانه. إن تأليهه لنفسه، وسلطانه المطلق، جعلاه يركب متن الغرور. فبدأ يطلب من الناس خضوعاً مطلقاً لتزواته المفرطة التي لا تطاق، وقد تملكه شكٌّ عارم في أن المسيحيين لا يمكن الركون إليهم في تحقيق أوامره.

وقد غضب سفيروس، بصورة خاصة، بسبب حادث وقع في الشرق، ولكن أخباره انتشرت في كل أنحاء العالم، وترك أثراً عميقاً في كل مكان. فبمناسبة رفع لقب ولديه الاثنين كاراكلا (Caracalla) وغيتا (Geta) إلى اللقبين الإمبراطورين أوغسطس وقيصر، ورّع سفيروس عطايا سخية على جنود جيشه الذين قدموا لتسلمها

لابسين أكاليل من الغار. ولكنّ واحداً من هؤلاء الجنود بدا مختلفاً عن رفاقه، إذ كان رأسه عارياً وإكليله في يده. وعندما سُئل عن السبب أجاب قائلاً: "أنا مسيحي." (٤)
عُتبرت مثل هذه الواقعة تحدياً صاعقاً لكبرياء سفروس. فأصدر مرسوماً في العام ٢٠٢ يمنع فيه الناس من اعتناق أي من الديانتين اليهودية والمسيحية، وذلك تحت طائلة الموت. وقد جاوز الرسميون تعليمات الإمبراطور هذه، ساعين، كما يفعل أمثالهم، لإعطاء رؤسائهم انطباعاً يبيّن مقدار كفاءتهم. فبدأوا باقتلاع هذا الدين الجديد من الجذور. وكانت بريبتوا وزملاؤها في قرطاجة من بين الذين عانوا. كما كان هناك آخرون كثيرون غيرهم في شمال إفريقيا.

ظهرت ضراوة هذا المرسوم على أشدها بعيداً بمحاذاة الشاطئ المتوسطي لمدينة الإسكندرية، حيث جُرد ليونيدس (Leonides)، والد العالم اللاهوتي المعروف أوريجانوس، من جميع ممتلكاته ومقتنياته، وسيق للموت مع أعضاء آخرين من الكنيسة هناك. كان ليونيدس قد نشأ أولاده السبعة، والذين كان أوريجانوس أكبرهم سنّاً، بكثير من الاهتمام العميق بهم والصلاة كما علمهم التمييز بين الصالح والطالح، حتى يتمسكوا بالأول ويتجنبوا الثاني. وكان قد علمهم أن يستظهروا جزءاً يسيراً من الكتاب المقدس يومياً. وعندما سمع أوريجانوس أن أباه اعتقل، قرر، وكان حينئذ يبلغ من العمر السابعة عشر، أن يذهب إلى المدرج، وإلى الموت مع والده إذا اقتضت الضرورة. ولكنّ أمه، وقد ألمها جداً أن تفقد كلاً من زوجها وابنها في يوم واحد، خبأت ثياب أوريجانوس، الأمر الذي ألزمه البقاء معها في البيت. وكل ما استطاع

أوريجانوس أن يفعل إذ ذاك، هو الكتابة لأبيه في السجن متوسلاً إليه ألا يخاف على أرملة وأيتامه، وليثق بأن الله قادر على أن يعيّلهم ويرعاهم.

وعندما مات ليونيدس، تركت العائلة بحالة فقر مدقع، ومع هذا لم يحبّ إيمان أوريجانوس. فقد أخذته إلى بيتها أرملة مسيحية طيبة، تملك مالاً وأرزاقاً خاصة. وكان حبه لكلمة الله شديداً، وحماسه على طريق الله قوية، بحيث أنه عُيّن معلماً وعميداً لكلية يحضرها الشباب المسيحي في الإسكندرية ولما يتجاوز عمره الثامنة عشر بعد. وقد عمل بإخلاص كرئيس لهذه المدرسة لمدة تقرب من الثلاثين عاماً. وكانت محاضراته شعبية، كما كان يتمتع بموهبة خاصة لرفع حماسة تلاميذه. ولم يكن أوريجانوس، بأي حال من الأحوال شخصاً نظرياً جامداً، فهو كان يسعى لإطاعة كلمة الله، والسير بمبادئها يوماً فيوماً. وفي قراءته للعهد الجديد، تأثر بصورة خاصة بكلمات المسيح القائلة: "مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا." (٥) ف شعر بأنه إن أراد أن يطبع هذه الكلمات، يتوجب عليه ألا يتقاضى أجوراً عن تعليمه للمبادئ المسيحية. وفي سبيل تأمين معيشته، باع كمية من رقوقه المنقولة بخط يده. لكنّه عيّن لنفسه حصة صغيرة يومية من محصول هذا البيع، والتي كانت بالجهد تسدّ احتياجاته لأجل قصير، بالرغم من أن طعامه كان بسيطاً جداً، وكان لا يمتلك إلا معطفاً واحداً. فكان يعاني قسوة الشتاء وزمهريره، وينام على الأرض الجردة. وقد فعل ذلك لا لشيء، إلا ليتشبه بسيد المسيح الذي قال عن نفسه أن ليس له أين يسند رأسه. (٦)

بعد ذلك بوقت قصير، ألقى القبض على عدد من تلاميذ أوريجانوس، وأعدموا بسبب إيمانهم. وكان أوريجانوس حاضراً معهم خلال المحاكمة، وقد عامله الجماهير

الإسكندرانيون المضطربون بقسوة وخشونة، إلا أن حياته لم تتعرض لسوء في تلك المناسبة. وبمرور السنين أصبح معلماً مشهوراً في كنائس الإسكندرية، وبعدها في كنائس قيصرية في فلسطين. وقد سافر مراراً بعد ذلك في رحلات لخدمة المسيح. كما كتب عدداً من الكتب اللاهوتية، وقاد عدداً من اليهود والوثنيين إلى الإيمان المسيحي. ومع ذلك، فقد اعتُبرت بعض أفكاره الفلسفية وتفسيره الرمزية للكتاب المقدس، مثاراً للجدل إلى يومنا هذا.

لم ينسَ أوريجانوس قط تعليم الكتاب المقدس والمثل الصالح الذي أخذه عن والده. لقد بقي ليونيدس غير معروف تقريباً، ولكن تأثيره أعطى الخلاص للكثيرين من خلال عمل ابنه الذي اقتفى آثار أبيه. الأول دُعي للموت من أجل المسيح، والآخر دُعي ليحيا له. (٧)

استمر الاضطهاد في أجزاء عديدة من الإمبراطورية الرومانية، وكان قاسياً جداً لدرجة اعتقد معها الكثيرون أن سفيروس هو المقصود في الكتاب المقدس بـ "ضد المسيح" العظيم الذي سيقوم محاولاً أن يبني كنيسة المسيح قبل رجوع المسيح ونهاية العالم. (٨) ويبدو أن سفيروس قد ظن أنه بمرسومه الظالم ذاك، قد نجح في تحطيم معنويات المسيحيين، وأن يدمر كنيسة المسيح تماماً. وقد تم تجاهل المسيحيين بشكل كبير خلال بقية حكم سفيروس، وحتى خلال أيام خلفائه التاليين.

ثم عرفت الكنائس السلام والحرية من التزاغات، لما يقارب النصف قرن. وهكذا ازدهرت بجدوى. ولكن، هنا، كان يكمن الخطر المهلك. فقد بدأ العديد من المسيحيين بالتراخي والاشتراك أكثر فأكثر وبمزيد من التساهل في ملذات حياة المدينة

وفي تسلياتها الموهنة. وشيئاً فشيئاً بدأ المسيحيون يفقدون ضبط النفس، وخسروا ذلك الشعور بكونهم شعباً خاصاً، كما ذهب عنهم ذلك الثبات، والإيمان السماوي الراسخ الذي قوّاهم ودعمهم خلال تلك الأزمنة الرهيبة التي عاشوا خلالها بنجاح منقطع النظير لخمسين عاماً خلت.

ومع مرور القرن الثالث، بدأ المسيحيون ينشدون صداقة جيرانهم الوثنيين ورضاهم، وتركوا أنفسهم، وللأسف، غير مستعدين للصمود في وجه الضغوطات الكبرى التي كانت بانتظارهم.

حواشي الفصل

١- ورد النص المعاصر (Martyrium Polycarpi ANF Vol. I

pp. ٣٧ ff.

للحصول على مقاطع من ترجمة أحدث راجع: Bettenson DOTCC

pp. ٩-١٢

Eusebius Eccles. Historia V: chap. ١ (NAPNF ٢-

Series ٢ Vol. I)

Bettenson DOTCC pp. ١٢ - ١٣

Schaff HOTCC Vol. II. pp. ٥٥ - ٥٦

أظهر مسيحيو ليون وفيان تعاطفاً واضحاً مع المونتانيين. لقد حشوا كنائس فرجيّة

وروما على عدم إطفاء

الروح القدس باتخاذهم إجراء قاس ضدّ المونتانيين الذين كانوا حاضرين في
كنائس الشرق.

Monceaux Tome I pp. ٦١ -٧٠ -٣

Tertullien De Corona Militis ١، Lloyd p. ٣٨ -٤

٥- (متى ١٠ : ٨)

٦- (لوقا ٩ : ٥٨)

٧- للإطلاع على حياة أوريجانوس وعمله راجع:

Schaff HOTCC Vol. pp. ٧٨٥ -٧٩٦

Foakes- Jackson pp. ٢٧٣ -٢٧٧

٨- ٢ (تسالونيكي ٢ : ٤ و٣)، (يوحنا ٢ : ١٨)، (رؤيا ١٣ : ٥-٨)

الفصل العاشر المحن الحارقة

في العام ٢٤٩م بدأت غيوم العاصفة تتجمع من جديد. فقد ضاق صدر الإمبراطور الجديد دكيوس (Decius) وازداد قلقه باطّراد، بسبب تفسّخ الإمبراطورية الرومانية، فضلاً عن تخلفها العسكري. وقد عزا الإمبراطور ضعف الإمبراطورية و وهنها إلى استياء الآلهة. كان يأمل إعادة الازدهار إلى الأراضي الخاضعة لسلطانه وسيطرته عندما أصدر مرسوماً دعا فيه جميع المواطنين، رجالاً ونساءً، إلى تقرب الذبائح للآلهة بشكل علني، وتسلم شهادة من المسؤولين الخليلين تثبت أنهم فعلوا ذلك.

وعلى هذا الأساس أُخرج المسيحيون من بيوتهم، ودُفعوا بحشونة إلى الساحات العامة، وأمروا بتقريب الذبائح. فبعضهم، ممّن رُوّع بالتهديد، أذعن لأوامر الإمبراطور، ولاسيما أولئك الذين كان ولاؤهم المسيحي قد ضعف خلال أيام السلام السابقة المضعفة. فأسرعوا إلى المعابد استجابةً للأمر الإمبراطوري، بينما قام آخرون، من طريق التآمر مع المسؤولين، بشراء شهادات من دون أن يكونوا قد قاموا فعلاً بتقديم القرابين المطلوبة. إلا أن عدداً كبيراً منهم رفضوا الإذعان لمثل هذا المرسوم فهلك الكثيرون منهم. وكان أوريغانوس من بين الذين ثبتوا، فسُجن وعُدّب في مدينة صور. وهكذا استُشهد متأثراً بجراحه من جراء التعذيب الوحشي، وكان عمره يناهز السبعين. ولكن يلاحظ أن المسيحيين لم يعودوا يُتهمون بعد بالقتل وزنى المحارم والفساد، ذلك لأن نقاوتهم وأخلاقياهم الشريفة، كانت معروفة لدى الجميع. منذ ذلك التاريخ،

أصبح جلياً أن السبب وراء معادتهم هو رفضهم للإذعان لمتطلبات العبادة الوثنية، لا التهم بارتكاب أعمال السوء الموجهة ضدهم.

كتب كبريانوس (Cyprien)، ناظر كنيسة قرطاجة، مطولاً عن الاضطهاد الذي تحمّله المسيحيون، وكان الكثيرون بينهم ممن عرفهم شخصياً. وقد سُجن عدد منهم في قرطاجة نفسها، بينهم النساء والأطفال، ومات بعضهم من جرّاء التعذيب. وحدث أن كان أحد هؤلاء في روما، ويدعى كلرينوس (Celerinus) حين صدر مرسوم ديسيوس. وقد تحمّل كلرينوس الأذى والتعذيب هناك، من دون أن يتراجع. وأخيراً، استُدعي للمثول أمام الإمبراطور نفسه، حيث اعترف بإيمانه المسيحي بكل ثبات. وقد كتب عنه كبريانوس قائلاً: "لقد كان أول هؤلاء الذين واجهوا المعركة في أيامنا... لقد مشى في مقدمة الصف ليوافقه الحاكم نفسه، ذلك الحاكم الذي اختلق التزاع." احتُجز كلرينوس تسعة عشر يوماً في زنزانة السجن مثقلاً بالسلاسل الحديدية. وقد كتب كبريانوس قائلاً: "كان جسمه مصقّداً مغلولاً، أما روحه فكانت متحررة من الأغلال. لقد ذبل جسده من جرّاء افتقاره الطويل إلى الطعام والماء، ولكن نفسه عاشت بالإيمان وباستقامته، والله كان يغذّيه بالطعام الروحي. ففي مواجهة البلوى، كان كلرينوس أقوى منها، وفي سجنه، كان أنبل من سجّانيه، وفي تمدهده على الأرض، كان مارداً يضارع معذبيه الواقفين فوقه، وفي الأصفاد، كان أقوى من أولئك الذين قيّدوه، وفي محاكمته، كانت له وقفة أشرف من تلك التي لقضاته، وعلى الرغم من أن قدميه كانتا مقيدتين، فقد استطاع أن يسحق رأس الأفعى."

لقد نجا كلرينوس من محتته، وعاد إلى إفريقيا الشمالية، حيث استمر يخدم كقارئ (إذ كان يتلو آيات الكتاب المقدس في الاجتماعات) في كنيسة قرطاجنة. هذا، وأن نُدباته وآثار جراحه الكثيرة كانت موضوع إعجاب المؤمنين هناك، إذ أدهشهم أن يصمد إنسان من أجل الإيمان، إزاء تعذيب وحشي بهذا المقدار، غير خاضع أو مستسلم، لا للموت ولا للأكاذيب. وأشار كبريانوس إلى أنه "إذا ما رفض شخص ما أن يؤمن بما يسمع كما رفض توما (أن يؤمن بما سمع عن المسيح)، فعندئذٍ لا بدّ من أن يصدّق شهادة ما يراه بأعينه، إذ يرى البرهان الحي على صحة ما نقول." (١)

شاب آخر يُدعى أوريليوس (Aurelius)، واجه المحاكمة ذاتها في قرطاجنة. وقد جيء به أمام قضاة المدينة للمرة الأولى، حيث عومل بحشونة، وقد صدر الحكم بإبعاده عن المقاطعة. ولم تمض إلاّ فترة وجيزة، حتى جيء بهذا الشاب مرة ثانية ليمثل أمام الوالي، وقد عومل ثانيةً معاملة أكثر وحشية وعنفاً وقسوةً. وكتب عنه كبريانوس قاتلاً: "إنّ هذا الشاب ناضل في معركتين، واعترف بالمسيح مرتين، وفي المرتين خرج بمجد الاعتراف المنتصر: بعد انتصاره الأول نُفي إلى خارج البلاد. ثم دخل المعركة مجدداً، لكي يواجه نزاعاً أعنف هذه المرة، وهكذا انتصر من جديد. لقد خرج من معركة الشهيد منتصراً. ففي كل مرة يحاول عدو الله تحريض عبيده على فعل الشر، إن جندي الله الذي هو أبداً مستعد وأبداً شجاع، يصمد في وجهه، وهكذا يحرز الانتصار. لم يكتفِ هذا الشاب المسيحي بأن يناضل مرة واحدة في حضور بعض الناس حينما حُكم عليه بالنفي، لقد استحق أن يقاتل في الساحة العامة، حيث رأى الجميع شجاعته وإقدامه، فبعد القضاة، كان عليه أن يقهر الوالي، وبعد النفي، كان يحتاج أن ينتصر

على التعذيب والتنكيل." وقد نجا أوريليوس بنفسه، كما نجا سلفه كلرينوس، وأصبح هو الآخر قارئاً في كنيسة قرطاجة.(٢)

وفي الوقت نفسه تقريباً، أصبح اسم نوميديكوس (Numidicus) مشهوراً في الأوساط المسيحية، كمن رأى أمتعة وقد حرقت، ولكنه نجا "كما بنار"(٣) كان نوميديكوس عضواً محبوباً جداً في كنيسة قرطاجة. وكان مصدراً عظيماً لتقوية زملائه هناك وذلك بفضل قدوته أمامهم وتشجيعه لهم. في تلك الأيام، سنخ رعاي قرطاجة على المسيحيين متهمينهم بجلب سوء الحظ. لذا، كانوا يقذفونهم بالحجارة، أو يحرقون كل من يقع في أيديهم. كان نوميديكوس وزوجته من بين أولئك الذين وقعوا في أيدي الحشود الهائجة، فأخذوهما بعيداً. رأى نوميديكوس بأم العين زوجته المسكينة وهي تحترق بجانبه بلهب النيران المستعرة. أما هو فكان متخناً بالجراح والحروق البالغة، فظنوه ميتاً وبالتالي تركوه. إلا أن ابنته التي حضرت إلى المكان تفتش عن جثة أبيها بين الأنقاض المحترقة، وجدته، وهو لا يزال حياً، فتمكنت من إعادة العافية إليه. وبعد شفائه التام، عاد إلى الكنيسة في قرطاجة، حيث أصبح مساعداً مسؤولاً في إدارة كنيسة قرطاجة.(٤)

لقد نجا كل من كلرينوس و أوريليوس و نوميديكوس من الاضطهاد الذي مارسه ضدهم ديسيوس، ولكن كثيرين خرّوا صرعى. لقد تسلّم كلرينوس كتاباً من أحد أصدقائه المدعو لوكيانوس (Lucianus)، مرسلأ له أخبار زملائه في الأسر والمعاناة. علم من الرسالة، أن اثني عشر من المؤمنين في السجن، قد لقوا حتفهم بسبب الجوع والعطش، وأن اثنين آخرين ماتا في قرطاجة بسبب التنكيل، وهما بولس

(Paulus) وماباليكوس (Mappalicus)، وقد أضيف اسمهما بكل حرص إلى هذه اللائحة المتنامية من الشهداء. (٥)

وفي ذلك الوقت، جُرد العديد من المسيحيين الأكثر قوة من أملاكهم، وأبعدوا من الأصقاع الرومانية. لقد وجدوا سبيلهم إلى القرى الداخلية، بعيداً عن المدينة، وعن متناول أيدي الرسميين الإمبراطوريين. فأسسوا هناك جذوراً، وبدأوا حياة جديدة. قد يتحسّرون على رفاهية الحضارة، ويشعرون بافتقارهم إلى المداخل المعيشية الثابتة، ولكن، لا بدّ من أنهم فرحوا كثيراً بحريّة العبادة بالشكل الذي يريدون. وواضح، فوق ذلك، أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بإيمانهم لأنفسهم، إذ سرعان ما سمع الأمازيغيون في المناطق الداخلية بالرواية التي سردها لهم أولئك اللاجئون، ما حدث لهم بالتفصيل، ولماذا أُجبروا على ترك ديارهم وأملاكهم ومقتنياتهم، والحافز الذي رسّخ فيهم مثل هذا الإيمان والفرح، الإيمان الذي كانوا على استعداد دائم لبيذلوا في سبيله كل شيء. (٦)

كان الإمبراطور ديسيوس، بغير قصد منه، سبباً لكثير من الناس، ليستمعوا إلى بشارة الإنجيل للمرة الأولى، ولاسيّما في المقاطعات النائية جداً عن المدن الساحلية. لكن ديسيوس نفسه لم يعرف هذا قط. وبخذلان آهته له، قُتل ديسيوس في معركة خاضها ضد القوطيين في العام ٢٥١ ميلادية ولم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات. بعد موته، تنفّست الكنائس المسيحية الصُعداء، وبجردة لحساباتها، وجدت نفسها تخرج من وطيس المعركة قوية وأكثر صلابة بفعل نيران المعاناة. لقد وجدت نفسها حرّة مرة جديدة من التأثيرات المضعفة لأولئك المسيحيين الاسمين الذين كانوا يعيشون في وسطها. كما ابتهجت بأبطائها الجدد، وبثباتهم المجيد. أمّا الناجون، فقد ازدادوا جميعهم عزماً على

إتباع المسيح في السراء والضراء، في الضيق والفرح، في الموت أو الحياة، وهم مصممون أن يبقوا مخلصين له، مهما حدث.

ولكن، لماذا ثار المجتمع الوثني ضد المسيحيين بهذا الشكل؟ وأي أذى لحق بمواطني قرطاجة وروما على أيدي هذا الشعب المسالم؟ وكيف أساءوا إليهم؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال، يكفي أن نواجه حقيقة أن المسيحيين يختلفون عن غيرهم. فهم لم يتصرفوا كأناس اعتياديين، وهكذا كان الغموض يلفهم في نظر بقية الناس. ولأن تصرفاتهم لم تكن عادية، لذا لم يكن سهلاً التنبؤ عنها. وعليه، فهم يدعون إلى الريسة والشك، سواء بالنسبة إلى الحكام والمسؤولين، أم إلى جيرانهم من المواطنين.

منذ الأيام الأولى للمسيحية، راح الناس يتناقلون شائعات غامضة عن المسيحيين: ثرى، ماذا يهيب المسيحيون في اجتماعاتهم السرية؟ لم لا يسمحون، إلا لأولئك العارفين أسرارهم، بحضور وجبات طعامهم الخاصة؟ ولأن اجتماعات المسيحيين كانت تُعقد خلف الأبواب المغلقة، ولا يُسمح بالدخول إلا لأولئك الأعضاء المعترف بهم، نتج من ذلك شتى أنواع الافتراءات والشكوك. فهل المسيحيون يدبرون للقيام بثورة أو عصيان ضد الإمبراطور؟ أم أنهم يتآمرون لتهديتهم معابد الآلهة؟ وماذا يفعلون في أثناء ما يسمونه "ولائم المحبة"؟

هنا تصدّى ترتوليانوس وزملاؤه لهذه التلميحات، مؤكدين براءة المسيحيين. إنه يصف الشركة المسيحية المقدسة والخالية من أية أذية. ويذكر كيف أنهم بعد تناولهم ولائم الطعام المشتركة، لم يكونوا يمارسون شعائر دينية فاسقة، وإنما على نقض ذلك إذ

يعبدون الله، الذي كانوا يجتمعون باسمه. "وكان هذا الاحتفال ينتهي كما ابتداءً، بالصلاة." ثم يسأل ترتوليانوس قائلاً: "مَن من الناس تضرر بسبب اجتماعاتنا؟ فنحن مجتمعين، لا نفرق في شيء عنا ونحن متفرقين أحدنا عن الآخر. إننا كمجموعة، تماماً كما نحن أفراد. نحن لا نؤذي أحداً، ولا نجلب الحزن والأسى لأحد. لأنه عندما يجتمع الفاضل مع الصالح والحنون يلتقي الطاهر فلا يجوز أن يُدعى ذلك جماعة متمردة، وإنما شركة جديرة بالاحترام والشرف." (٧)

على أن السبب الأهم للكراهية الشعبية الموجهة ضد المسيحيين، كان على الأرجح لكونهم لا يشاركون في التسلية العامة - في مهرجات الأيام المقدسة الوثنية - ولأنهم متخلفون عن حضور الحفلات التي تنظمها النقابات الوثنية العمالية. إن ما حير، بل أغضب معاصريهم من الناس لم يكن بسبب ما فعلوه على قدر ما كان بسبب ما رفضوا فعله. وقد انبرى ترتوليانوس مرة أخرى، يدافع عن المسيحيين، محاولاً شرح الأسباب فقال: "نحن لا شأن لنا بصحابة المباريات، ولا ببذاءة المسرح، ولا بوحشية الميدان." (٨) وقد أقر ترتوليانوس بأن المسيحيين لا يشترون أكاليل الورود المألوفة لتزيين المعابد الوثنية، ولكنهم لا يريدون أن يكون عند أحد انطباع بأن المسيحيين معادون للعالم الذي يحيط بهم. فإن المسيحيين يشاركون في نشاطات الحياة اليومية بشكل كامل - في الدكاكين وفي الأسواق، في الساحة العامة وفي كل مكان سواء أفي المدن أو في الريف. والمسيحيون كانوا يعملون في الحقول والورش نفسها، وهم يأكلون في المطاعم نفسها، وهم يلبسون الثياب نفسها، ويطبخون أنواع الأطعمة نفسها،

ويستعملون الأثاث نفسه، وهم محترمون وأصدقاء للجميع. ولم يُدرِ المسيحيون ظهورهم لجيرانهم قط، ولا أساءوا ولا أهانوا الأمور المثلثة عندهم. (٩)

إلا أنه كان في مدن الإمبراطورية الرومانية وقراها أناسٌ ذوو نفوذ استفادوا شخصياً من الواقع القائم. وقد بدأوا يشعرون بأنهم مهددون جداً بسبب النمو السريع للجماعات المسيحية في وسطها. ولم يستطع الكهنة الوثنيون أن يخفوا استياءهم إزاء ما يحدث من تقلص في نفوذ آلهتهم، وتراجع في عدد الذين يحضرون لعبادتها. فقد بدأت صناديق المال في الهياكل تفرغ ببطء. وراح صنّاع الصور وأكاليل الغار يتذمرون مهدين، كما حصل قبل عدة سنوات مع ديمتريوس الصائغ وصنّاعه في أفسس عندما بدأت عظمة الإلهة أرطاميس بالانخفاض من جراء كرازة الرسول بولس. (١٠) فجميع بائعي أدوات التزيين وأصحاب الحفلات الترفيهية التي كانت رائجة آنذاك، والمضيفين - من صانعي الجواهرات، والموسيقين والراقصين، وكل المحترفين في المسرح، واللاعبين الرياضيين والمجالدين - كل هؤلاء وغيرهم، صاروا ينظرون إلى المسيحيين نظرتهم إلى الأعداء، لأنهم لم يحضروا معارضهم ولم يشتروا بضائعهم، بل تسببوا في انسحاب زبائنهم. كما أنّ بعضاً من المونتانيين الأكثر تطرفاً، وبخوا أحياناً أيضاً بشكل ساخر عبدة الأوثان هؤلاء على تفاهة تجارتهم الدينية، فسببوا بذلك إساءة، وجرّوا على الأحكم منهم من إخوانهم المسيحيين عازراً لم يكن ضرورياً.

كان الولاء للإمبراطور من القيم التي تمسكت بها بحزم ودافعت عنها بحماسة، ليس طبقة النخبة الحاكمة فحسب، بل غالبية المواطنين أيضاً. لذا، فقد أسيء جداً فهم المسيحيين الذين لم يكونوا يتبعون مثل هذه العادات التي اكتسبت صفة الاحترام نظراً

لقدمها، وهكذا أصبحوا مكروهين كرهاً شديداً، وبتوا في نظر القوم وكأنهم يحاولون تفويض أسس الحضارة الرومانية نفسها. فالمسيحيون لا يشاركون في الديانة الوطنية، وهم لا يقربون التقدّمات ليضمنوا بذلك السلام والازدهار للأرض، ولا يترحون البخور في المبخرة كعلامة الولاء للإمبراطور وآلته التي جعلت الإمبراطورية تحت رعايتها. وهكذا بدأ المسيحيون وكأنهم اختاروا البقاء خارج المجتمع، يتمتعون بنعمه، ولكنهم في الوقت ذاته، يتملّصون من مسؤولياتهم. وقد وجد أعضاء الكنيسة الذين يمتلكون العقارات، صعوبة في تجنّب المشاركة في عبادة الأوثان: فمالكو الأراضي والمنازل، كان يُنتظر منهم أن يساهموا إلى حد كبير بكلفة التقدّمات العامة والمشاهد المسرحية. والعائلات المسيحية الموسرة، كانت بشكل خاص عرضة لخبث الحساد، إضافةً إلى الجواسيس الذين كان الأباطرة المشككون والمرتابون يستخدمونهم. ففي الواقع، إن أخطر التهم التي واجهت المسيحيين، باتت مجهولة هوية أصحابها. فإذا ما جاء شخص معروف بادّعاء تافه أو كاذب، قد يجد نفسه في ورطة بالغة الخطورة، ولكن متى كانت التهمة مجهولة هوية أصحابها، فإنه يتمكن بعدها من الإفلات من العقوبة بسهولة. وبهذا الأسلوب، تمكّن أعداء الإيمان من ارتكاب أشنع الافتراءات اللا مسؤولة. وأحياناً كان اليهود في غيرهم على مركزهم المميّز كمنتمين إلى ديانة مسموح لها، يقفون في طليعة المهاجمين: مثلاً، كان لهم دور رئيس في استشهاد بوليكاربوس.

إضافةً إلى ذلك، يخبرنا ترتوليانوس، أنه استناداً إلى خبرته، كان المسيحيون مكروهين غالباً فقط بسبب محبتهم بعضهم لبعض. لقد عارض الوثنيون الطريقة التي كان المسيحيون يعاملون فيها بعضهم بعضاً كإخوة وأخوات، مساعدين أحدهم الآخر،

وداعمين أراملهم وأيتامهم والذين كانوا في ضيق وعوز. "إن ممارستنا لهذا العطف المحب وتنفيذه عملياً هو الذي، بشكل رئيس، يسمننا بالعار في نظر بعض الناس." يقولون: "أنظروا كيف يجب المسيحيون بعضهم بعضاً." ذلك لأنهم هم أنفسهم يكرهون بعضهم بعضاً. ويقولون أيضاً: "أنظروا كيف أن المسيحيين مستعدون ليموتوا بعضهم لأجل بعض." ذلك لأنهم هم أنفسهم أكثر استعداداً لقتل أحدهم الآخر. إنهم يجدون خطأ فينا أيضاً لأننا نطلق على بعضنا التسمية "أخ". أشعر أنني متأكد أن السبب وراء انتقادنا هو التالي: كل تسمية صداقة عندهم ليست سوى مجرد ادعاء مزعوم ورخيص." (١١)

لقد حرصت الجماعة المسيحية كل الحرص على تكريم الإمبراطور، وعلى إطاعة القوانين، ودفع كل ما يترتب عليهم من ضرائب. فكلمة الله تقول: "لتخضع كل نفس للسلطين الفاتقة، لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله." (١٢)

وقد أسرع ترتوليانوس بالإشارة إلى أن المسيحيين لم يكن لديهم أية دوافع أو أطماع سياسية، وهم ليسوا بالتالي ثواراً ضد الحكومة والدولة. كانوا مسالين شرفاء، وذوي احترام ووقار. فإن أفضل الأباطرة وأحكم المسؤولين، أضاف ترتوليانوس، كانوا يعلمون ذلك جيداً: لقد رأوا في المسيحيين تلك المزايا الرفيعة الخالصة التي ودوا لو يجدون مثلها في جميع الخاضعين لهم.

الأباطرة الأشرار وحدهم اضطهدوا الكنيسة، تابع ترتوليانوس، وذلك إماماً لكونهم ضعفاء أو راغبين في تملق الوثنيين المتطرفين، وإماماً لكونهم أنانيين للغاية يدفعهم

مزاجهم بدل الحكم السليم. و ترتوليانوس نفسه خاطب الرسميين الرومان راجياً منهم التساهل مع المسيحيين وواعداً بتقديم الولاء بالقابل.

إلا أنه في بعض الأحيان كان يجد المسيحيون أنّ واجبهم يجعلهم في نزاع مع السلطات. فإذا أعطوا ما لقيصر لقيصر، كان عليهم أيضاً أن يعطوا ما لله لله. (١٣) وحتى سلطة الإمبراطور نفسها كانت خاضعة لذلك الكائن الإلهي الذي خلق كل شيء. وبعض الظروف لم تترك لهم سوى خيار أن "يطيعوا الله أكثر من الناس." (١٤) فهم لا يمكنهم أن يقربوا التقدّمات للأصنام، مثلاً، حتى ولو صدر مرسوم ملكي يطلب مثل هذا العمل، ولا كانوا يستطيعون أن يسفّهوا اسم المسيح أو يلعنوه وبعضهم رفض القسم القانوني، معتقدين أنه من الخطأ أن يُقسم المسيحي بمثل هذا القسم، فقد علّمهم الرب: "لا تحلفوا البتة، لا بالسماء... ولا بالأرض... لا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير." (١٥) ولم يستطع آخرون من المسيحيين أن يوقّفوا بين خدمة الجندية وضمائرهم المسيحية. إن مواقف رافضة كهذه، صبّت ولا شك الزيت على نيران الحقد.

كانت الطبقات العليا من الرومان، وعلى الأخص كبار الملاكين، ينظرون بمحذ إلى كل تعليم جديد قد يهدد وضعهم الراهن، ويعرض غناهم ومراكزهم للخطر. فإن التعليم المسيحي القائل بالمساواة، لم يكن محبباً لدى الأوساط الأرستقراطية الوثنية الغنية. وهكذا حصل توتر، خصوصاً في أيام الجفاف وندرة المون. شعر الوعاظ المسيحيون في أنفسهم بأنهم ملتزمون إلى حدّ قليل جداً بالمواقفة على تلك الهوة

السحيفة بين الفقراء والأغنياء. وبخاصة عندما كان أصحابهم وجيرانهم يعانون الجوع والتشرد. ثم راحوا، على غرار المسيح نفسه، يبحثون أصحاب الكنوز على كترها في السماء لا على الأرض، مستوحين لما يذكره العهد الجديد بشأن أشراك الغنى والبركات المعلقة للمحتاجين والمسحوقين. وقد لاقت هذه الأفكار آذاناً صاغية لدى الفقراء، ولكنها لم تلقَ شعبية عند المسؤولين الرومان. إن الرسميين المحليين، وكانوا في غالبيتهم من الطبقات الأرستقراطية، لم يترددوا قط في وضع موضع التنفيذ أي مرسوم إمبراطوري يعد باقتلاع هذه التعاليم من جذورها وتخريبها.

من الضروري أن نتذكر أيضاً أنه إلى جانب التشريع الصارم للمحاكم البلدية، وعداوة الرعايا التي لا يمكن التنبؤ عنها، كان المؤمنون معرّضين لحكمة عائلية يرأسها رب العائلة وصلاحياته تكاد تكون لا متناهية. لقد كان بإمكان الزوج الوثني مثلاً أن يدين زوجته المؤمنة ويحكم عليها بالموت. ومعروف عن آباء أنهم حرموا أولادهم من الميراث، وأنهم فرضوا كل أساليب التعذيب على عبيدهم إذا اعترفوا بالإيمان المسيحي. كانت القوات المتحددة ضد الكنائس متنوعة وثقيلة. ومعظم الصعوبة تكمن في أن السلطات الرومانية لم تكن تعترف بالدين المسيحي رسمياً، لذا لم يكن يحق للمسيحي أن يدافع عن نفسه قانوناً أو شرعاً. ويذكر ترتوليانوس في هذا الصدد كيف أن الوثنيين كانوا أحياناً يوبّخون المسيحيين وبشكل ساخر قائلين: "بموجب القانون، أنتم لستم حتى بموجودين." ولكنه، أي ترتوليانوس يردّ بالقول إن المسيحيين موجودون حقاً، سواء أشاء الوثنيون ذلك، أم أبوا. وإذا كان الأمر كذلك، فمن إذاً من الاثنين يكون بخلاف الحق: المسيحيون أم القانون؟ (١٦)

وقد يُسأل لماذا لم تسع الكنيسة المسيحية للحصول على اعتراف شرعي بها، خصوصاً وأن اليهود كانوا قد حصلوا على مثل هذا الاعتراف. العقدة تكمن في كون الرومان يعتبرون أنّ الديانة هي مسألة عرقية، لا مسألة اقتناع شخصي. فالليونانيون كان لهم أمتهم، وكذا بالنسبة إلى الرومان. وقال كلّسوس (Celse) في معرض انتقاده للمسيحيين: "أما اليهود، فلا يمكن أن يلاموا، لأنّ على كل إنسان أن يعيش بموجب عادات بلده، بينما المسيحيون قد تخلّوا عن شعائرهم الوطنية بسبب تعاليم المسيح." (١٧) على أن المشرعين الرومان اعتبروا أن ولاء الإنسان الأول ليس لضميره ولا لآلته، بل للدولة. والإمبراطورية ادّعت لنفسها الحق بأن تقرّر لرعاياها آية آلهة يجب أن يعبدوا. ولم تكلف الدولة نفسها عناء الاهتمام بالمعتقدات الخاصة التي يؤمن بها الإنسان، ولكنها فرضت عليه، بشدّة وحزم، أن يلتزم بشكل نهائي بحضور الطقوس العامة المختصة بديانة الدولة، وأن يُظهر بشكل واضح خضوعه وامتناله. هذا، وإن إيماناً جديداً يمنع أصحابه من عبادة الأوثان كان من الطبيعي له أن يصطدم بنظام كهذا. لا يمكن لحكومة كلياينة أن تتفهم بسهولة فكرة وجود مواطن مخلص ينتمي إلى دينٍ مستقل. إلا أن ترويليانوس ترفع أمام الحكّام الرومان ليعاملوا المسيحيين بالعدل إذ يمنحهم فرصة فقط للتعبير عن وجهة نظرهم. فإذا حاولت السلطات، ولو فقط أن تكتشف ما الذي يؤمن به المسيحيون، فإنها ستتوقف عن صبّ جام غضبها عليهم. وفي الواقع، أضاف يقول، لن يجد المسؤولون شيئاً يلام المسيحيون عليه. يُسمح للناس المتهمين بجرائم العنف أن يدافعوا عن أنفسهم وليس هذا فحسب، بل أن يعيّنوا محامين محترفين للدفاع عنهم. "عندهم فرصة كاملة للردّ كما أيضاً لاستجواب الشاهد أو

الخصم ابتغاء دحض شهادته، ذلك لأنه، من غير المسموح أن يدان الناس من دون سماع شهادتهم أو قبول دفاعهم. أما المسيحيون، فهم وحدهم غير المسموح لهم بأن يقولوا أي شيء لتبرئة ساحتهم، وللدفاع عن الحق، ولإنقاذ القاضي من الظلم. فالقاضي همّهُ الوحيد إرضاء الجمهور الحاقد - أي الاعتراف باسم المسيح، لا استقصاء تهمة أعمال السوء." (١٨)

واستطرد ترتوليانوس قائلاً إنّ كل هذا العداء، هو نتيجة التعصّب الأعمى عن جهل. فإذا ما توقّف الناس للحظة فقط، للتبصّر والنظر في حقائق هذه القضية، فإنهم سيرون الأشياء من منظار مختلف تماماً. "فكل الذين كرهوا، بسبب عدم معرفتهم حقيقة الأشياء التي كرهوها أو حقدوا عليها، سيتوقفون عن هذه الكراهية حالما يكفّون عن جهلهم هذا... الناس يصرخون قائلين إن الدولة قد امتلأت بالمسيحيين. فالمسيحيون في القرى والأرياف وفي الجزر أيضاً، والناس من الجنسين، ومن كل الأعمار، وفي كل الأوضاع، حتى من ذوي المراكز الاجتماعية العليا ينتقلون إلى المجتمع المسيحي. يولولون ويندبون بسبب هذه الأمور، كما لو أنّ هناك نكبة أو كارثة. لكنهم على الرغم من كل هذا ليسوا على استعداد أبداً للتفتيش عن بعض الحسنات فيها التي قد تكون قد فاتتهم." (١٩)

أشار ترتوليانوس باستمرار إلى استعداد المسيحيين للموت عوضاً عن أن ينكروا إيمانهم، كان ثبات الشهداء من الأسلحة الرئيسة في جعبته. لقد تأيدت حقائق التعليم المسيحي من خلال المواقف الثابتة لأولئك الذين تبوّأوا: "اسألوا أنفسكم إذاً،" قال ترتوليانوس "عمّاً إذا كانت إلهوية المسيح معتقداً حقاً أم لا. فإذا كان قبول مثل هذا

الإيمان يؤدي إلى تغيير الإنسان فعلاً إلى الأحسن، يعني ذلك أن كل ما هو مخالف له يجب أن يرفض." وقد أشار ترتوليانوس إلى الصمود وضبط النفس اللذين تميز بهما المسيحيون في أثناء المحاكمة. فإنهم لم يلجأوا إلى السلاح، ولا هربوا من السلطة الإمبراطورية. "كم مرة صببتم جام غضبكم على المسيحيين، أحياناً بسبب ميلكم إلى هذا وأيضاً بسبب امتثالكم للقانون. وكم مرة أيضاً لم يُعركم رعاع الشعب المتعصب انبهاً، بل هاجمونا بالحجارة وبالبنيران، وقد تجاوزوا القانون نفسه... ولكن، مع كوننا متماسكين ومتحمسين جداً لمواجهة الموت، هل لاحظتم أبداً عندنا أي انتقام على الإساءة؟" (٢٠)

شعر معظم الولاة الرومان، أمثال بليبي الأصغر (**Pline le Jeune**) بعدم تأكدهم من الطريقة التي يجب أن يتبعوها هؤلاء المسيحيين الذين يمثلون أمامهم للمحاكمة. كتب بليبي من منطقة بيثنية (**Bithynie**)، في شمال تركيا المعاصرة في العام ١١٢ ميلادي إلى الإمبراطور ترايان (**Trajan**) يسأله النصح والإرشاد. قال بليبي: "إنها قاعدة عندي يا سيدي، أن أرجع إلى مقامكم في القضايا التي أشك فيها. لم أحضر في السابق محاكمة من محاكمات المسيحيين قط، لذا، لا أعرف ما هي العقوبات العادية المترتبة، أو ما هي التحريات، وإلى أي مدى يجري التقيد بها. لقد ترددت كثيراً في ما إذا كان يجب أن آخذ أعمار المتهمين بعين الاعتبار أم لا، وما إذا كان الضعفاء يُعاملون بالطريقة نفسها التي يُعامل بها الأقوياء، أو إذا كان عليّ أن أسامح أولئك الذين يتخلون علناً عن معتقدتهم المسيحي، أو ما إذا كان عليّ أن أعاقب من كان مسيحياً، حتى ولو قرّر التخلي عن ذلك، وما إذا كان مجرد الاسم "مسيحي" كافياً

ليُتزل العقاب بصاحبه، حتى ولو كان بريئاً من أية جريمة أخرى، أم الجرائم المتعلقة بهذا الاسم فقط. " والتساؤل الأخير في هذه القائمة من التساؤلات الطويلة أعلاه، كان مستمداً من الاعتقاد العام السائد بين الوثنيين، على الأقل في الأيام الأولى، أن المسيحيين كانوا يتورطون في جرائم قتل الأطفال، وأكل لحوم بشرية، وزنى المحارم. وتساءل بليبي ما إذا كان اعتراف المتهم بمسيحيته يعني تلقائياً أنه مذنب بكل هذه الجرائم المذكورة آنفاً، أم لا؟

وأكثر ما يصدنا بعنف من الوثائق عن الموضوع الذي نحن بصدده، هو أن الولاة والقضاة، أمثال بليبي، والذين كانوا يحكمون على المسيحيين بشتى أنواع التعذيب والتنكيل والقتل الوحشي أمام الملاء، لم يكونوا سوى مجرد مأمورين مواطنين على القيام بواجبهم، وكانوا يحاولون على هذا الأساس تنفيذ مهمة إدارية إطاعة لتعليمات محدّدة. كان كل همهم تأمين خضوع الشعب بشكل مسالم للقوانين المرعية بشأن الديانة المسموح بها في الدولة. وصحيح أنه غالباً ما كانت تعوزهم الشفقة والرحمة، لكنّ عملهم كان يفرض عليهم كبت أية مشاعر شخصية قد تتولّد عندهم. كانوا بالتأكيد، يفتقرون في معظم الأحيان، إلى الرغبة الشخصية في البحث عن الحقيقة، إلا أنهم، عموماً، لم يكونوا يضمرون العداء لأولئك الذين يسيّبون لهم هذه الآلام المفزعة والرهيبية. كانوا مجرد ممثّلين غير جذابين عن نظام سياسي متوحّش ولا إنساني، في عالم رخصت فيه الحياة، وباتت البلوى الدموية التي يعانيتها الآخرون، الستار الخلفي للحياة اليومية، ولنقل أيضاً، الوجبة المستخدمة باستمرار على نطاق واسع للتلهيات العامة.

أوجز بليبي الإجراءات التي كان يتخذها في استجواب أولئك الذين يمثلون أمامه قائلاً: "أسألم إن كانوا مسيحيين. وفي حال أقرّوا بذلك، أكرّر سؤالاً مرة ثانية وثالثة مهدّداً إياهم بإنزال عقوبة الموت بهم. فإذا أصرّوا، أحكم عليهم بالموت، لأنني لا أشك مطلقاً في أنه مهما كانت جريمتهم التي اعترفوا بها، فإن مشاكستهم وعنادهم المتصلّب، وحدهما، كافيان للعقاب لا محالة." لقد كان بليبي نموذجاً لأولئك الذين يؤمنون بأن جريمة المسيحيين الكبرى تكمن في تحديهم للسلطة، وفي رفضهم الانصياع لأوامر الدولة، كذلك في عدم قبولهم التخلّي عن إيمانهم المسيحي عندما يصدر إليهم الأمر بذلك بصرف النظر عمّا إذا كان الإيمان حسناً أو سيئاً.

أخبر بليبي الإمبراطور عن أوراق كاتبها مجهول وصلت إلى يده، وفيه مدّون العديد من أسماء المسيحيين. وقد استُدعي هؤلاء للمثول أمامه، قال: "وكل من أنكر كونه مسيحياً، وجدت أنه يجدر بي أن أطلق سراحه، لأن هؤلاء كانوا يدعون باسم آهتنا عندما أمرهم بذلك، وهم، بالبحور والخرم، يبجلون تماثيلك ويوقّرونها حيث كنت أحضر صورتك (صورة الإمبراطور) بالإضافة إلى أصنام الآلهة لهذا الغرض بعينه، وبالأخص لأنهم لعنوا المسيح، ذلك الأمر الذي يقال إن المسيحيين الحقيقيين لا يمكن إقناعهم بالإقدام عليه... وآخرون ذكر المخبر أسماءهم قالوا أولاً أنهم مسيحيون ثم ما لبثوا أن أنكروا ذلك، إذ صرحوا أنهم كانوا مسيحيين في الماضي، ولكنهم الآن لم يعودوا كذلك... لقد سجد الجميع وتعبّدوا لصورتكم وتماثيل آهتنا، ولعنوا المسيح." ولكن، حتى بليبي نفسه كان يعلم أن هؤلاء القوم لم يكونوا المسيحيين الحقيقيين، لأن

سلوك هؤلاء الذين تبعوا المسيح بجدية كانت معروفة بخلاف ذلك. وقد لاحظ بليبي بالاختبار، أن لاشيء يحمل المسيحيين الحقيقيين على لعن مخلصهم.

انتزع بليبي الاعترافات انتزاعاً من بعض هؤلاء، إلا أن هذه الاعترافات جاءت خالية من الرذائل المروعة التي كان يأمل أن يسمع عنها. لم تكن إساءاتهم، في الواقع، ممتعة ولا مشوقة على الإطلاق. "لكنهم أعلنوا أن مجموع أخطائهم هو التالي: إنهم في يوم معين، كانوا قد اعتادوا أن يجتمعوا قبل الفجر، ويرتلوا تراتيل إيقاعية للمسيح، باعتباره إلهاً، وأن يربطوا أنفسهم بتعهد مقدس جليل - لا للتعهد بالتورط في جريمة معينة أو أخرى، بل بالحري للامتناع عن السرقة والسلب والزنا والإخلال بالوعود، أو التنكّر لوديعة وقت المطالبة بها. وبعد ختام هذا الاحتفال اعتادوا أن يتفوقوا على أن يجتمعوا ثانية إلى مائدة الطعام، لكنه كان مجرد طعام عادي ولا يشكل أي أذى."

لقد وجد بليبي أن هذا البيان البسيط من الحقائق غير وافٍ، فواصل عمله مظهراً بذلك القلب القاسي عند الإداري الإمبراطوري: "لهذا وجدت أنه من الضروري، أن أتحرى مدى صحة كل هذا، وذلك بتعذيب خادمتين كانتا تُدعيان مساعدتين. ومع ذلك لم أجد شيئاً سوى خرافات فاسدة وامتدادية في الوهم. وهكذا قمت بتأجيل جلسة الفحص والتمحيص هذه، وقررت استشارتكم." (٢١)

لم تكن السلطة ترغب في قتل المسيحيين، وإنما كانت ترغب في إعادتهم إلى عبادة الآلهة الرومانية. ولم يكن في نية السياسة الإمبراطورية إخلاء الكنائس من رعاياها، بل إعادة ملء المعابد الوثنية. ولم تكن تنوي تغيير المعتقدات الدينية عند الناس، بل ضمان طاعتهم وليونتهم. كان الأباطرة يعلمون دائماً في قرارة نفوسهم، أن إفريقياس

هي جزء غير مستقر من الإمبراطورية الرومانية. ففيها المنات من القبائل، وجميعهم أعداء محتملون، وهم يعيشون على مسافة قصيرة داخل البلاد، وراء حدود كان من غير الممكن الدفاع عنها عسكرياً ضد مهاجمين محددين. عاش الحكام في قلق مستمر، إذ كان عليهم التعامل مع أية مؤشرات بعيدة لفوضى أو فتنة، ووأدها في مهدها في هذه المقاطعات الصعبة قبل أن تشكل خطراً سياسياً جدياً.

إن أية أمة هي متماسكة معاً بفضل وحدتها الدينية، وتسيطر على شعبها بواسطة كهنتها الرسمي، لا بد من أن تشعر بتهديد مباشر من أقليات قررت أن تخرج عن الدين الوطني. فإن بقيت هذه الأقليات متوارية عن الأنظار، وتمثل من الخارج لمتطلبات حفظ الشعائر الدينية، فإنها غالباً ما تُترك في سلام. ولكن حالما تعترف هذه الأقليات جهراً أنها لم تعد تخضع لسلطة هذا البلد الدينية، فإن الدولة عندئذٍ تفقد نسبة من سيطرتها على هذا الشعب. وما أن تصبح هذه الأقلية قوة حتى إن الجميع يعرف أنها تقدّم بديلاً عن السلطة الدينية القائمة، تبدأ تمّدد إذ تجتذب عدداً كبيراً إلى صفّها. وهكذا تتحوّل أقلية شجاعة ومتنامية إلى أغلبية ساحقة في حال لم يعمل أحد على إيقافها.

هذه كانت من جملة الأسباب الموجبة التي جعلت السلطات الرومانية تحاول يائسة استئصال الكنائس الفتية في شمال إفريقيا. لكنّها لم تدرك إلا القليل أي فشل ذريع سيصيها. فقد كُتبت لكنائس إفريقيا الشمالية أن تصمد إلى ما بعد زوال أعظم إمبراطورية كانت مقتدرة عسكرياً ولم ير العالم لها مثيلاً.

حواشي الفصل

Monceaux Tome II p. ١٣٧، Cyprien Epitre ٣٣ - ١

Monceaux Tome II p. ١٣٧، Cyprien Epitre ٣٢ - ٢

١-٣ (كورنثوس ٣: ١٥)

Monceaux Tome II p. ١٣٨، Cyprien Epitre ٣٤ - ٤

Cyprien Epitre ٨ - ٥

٦- (فيلي ٣: ٨)

Apologeticus ٣٩ - ٧

Apologeticus ٣٩ - ٨

Apologeticus ٤٢ - ٩

١٠- (أعمال ١٩: ٢٣-٢٧)

Apologeticus ٣٩ - ١١

١٢- (رومية ١٣: ١)

١٣- بالإشارة إلى (مرقس ١٢: ١٧)

١٤- (أعمال ٥: ٢٩)

١٥- (متى ٥: ٣٤-٣٧)

Apologeticus ٤ - ١٦

١٧- (٥: ٢٥) Origene Contra Celsum ، (اقتبسها

(Foakes-Jackson p. ٤٥

Apologeticus ٢ - ١٨

Apologeticus ١ - ١٩

Apologeticus ٣٧ - ٢٠

٩٦ (Bettenson ، Epitre ١٠ (Ad Trajan) - ٢١

DOTCC pp. ٣-٤)

٩٦ (Bettenson ، Epitre ١٠ (Ad Trajan) - ٢١) ، يستعرض بعض الأسباب وراء

الاضطهاد في عهد

الإمبراطورية الوثنية.

الفصل الحادي عشر المعدّبون المبتهجون

ألقي مسيحيو شمال إفريقيا أنفسهم في أتون الحن والبلايا، غير آبهين بشكل مذهل للعواقب. وارتفع عددهم إلى المئات، بل إلى الآلاف، أولئك الذين ثبت أنهم يعانون الأمرين بسبب التزامهم بالإيمان بالمسيح. لقد أعلنوا سرورهم وغطتهم ليكونوا هكذا وماتوا مهتجين فرحين جداً. رفضوا بصراحة، وبشكل قاطع، أن يقربوا التقديمات لآلهة روما، ولم يرتضوا لأنفسهم أن يُقسموا بقدرة الإمبراطور الإلهية. ليس من السهل على جيلنا الحالي أن يتفهّم هذه الحماسة أو يدرك مثل هذه التصرفات، لأننا لم نعتد عليها. وقد نعجب متسائلين: ما الذي يقف وراء هذا العناد الذي لا يقبل المساومة؟ ولماذا صمّم المسيحيون أن يعترفوا بإيمانهم المسيحي مجاهرة حتى ولو أدى بهم ذلك إلى التضحية بحياتهم؟

علينا أولاً أن نتذكر أنهم كانوا واثقين من المبدأ الذي أرسوا عليه أقدامهم. فقد آمنوا تماماً، وبشكل راسخ، بأنهم اكتشفوا الحق. كما اقتنعوا بشكل أكيد أنّ المسيح هو بالحقيقة الله المتجسّد الذي جاء من السماء ليكون "نور العالم" (١). إنهم آمنوا بما قاله لهم سيدهم، ووثقوا بأن طريق المسيح هو الأفضل، لقد رأوا الفرق بأمّ أعينهم. كانوا يفتخرون بمسيحتيتهم، كما أن إخلاصهم لم يسمح لهم بأن يتفوهوا بالكذب العظيمة المطلوبة منهم ولم يكن لهم أبداً أن يعبدوا الإمبراطور الروماني رباً وإلهاً. لقد شعروا بحبة الإله الحقيقي الذي خلق كل شيء، واختبروا دفء الجماعة المسيحية ولطفها، وكان اختبارهم لهذه البركات بمثابة تذوق مبدئي للسماء في وسط عالم قاسٍ

وشرس. كان إيمانهم بمنهم بهجة عظيمة. فهذا الإيمان حول حياتهم كلها، ولم يبقَ عندهم أدنى شك بحقيقته وبصحته. ولا شيء كان بإمكانه أن ينتزع منهم هذا الإيمان أو يجعلهم يتكبرون له.

وأكثر من ذلك، فقد كانوا ممتلئين بشعور شخصي غامر من العرفان بالجميل والإقرار بالفضل لمخلصهم الذي أحبهم عندما لم يكونوا يفكرون فيه. لقد قُتس عنهم كما يفتش الراعي عن خرافه الضالة. واعتنى بهم عندما كانوا في حالة بؤس وشقاء والحدار. ثم أصعدهم من طين الحمأة، وثبت على صخرة أرجلهم(٢). فكيف لهم أن ينكروا ربهم وهو الذي منحهم كل شيء حسناً، وهو من أعطاهم كل هذا الفرح والحبور الذي أصبحوا الآن يتمتعون به؟ لقد وهبهم كل ما يجعل هذه الحياة جديرة بالاهتمام وذات شأن رفيع – لقد منحهم الصحة والعافية والصدقة والحب، واحترام الذات والمساحة، والقبول والرجاء العظيم بالحياة الأبدية الخالدة. فكيف لهم أن يلعنوا ذاك الذي خلّصهم وأعالمهم وأحبهم إلى المنتهى؟! كما أعطى كل ما لديه من أجلهم، وهو الذي ناضل بكفاح مضمّن تحت وطأة صليب ثقيل، وأخيراً مات معلقاً عليه من أجلهم هم.

كذلك، لم ينقص عن ذلك مقدار تأثيرهم بالشرف العظيم الذي شعروا بأن الرب أنعم به عليهم: أن يكونوا شعبه الخاص، أولئك الذين سوف يقومون من القبر لكي يملكوا معه إلى أبد الأبد. أمّا الامتياز الأكبر والأروع، فهو من نصيب من أفرزهم الرب شخصياً ليعلموا اسمه جهوراً أمام هذا العالم المترقب المنتظر. لقد كانوا في أشدّ الاشتياق لخدمة المسيح بأي شكل من الأشكال. فكيف إذاً يُظهرون ولاءهم

وحبهم له؟ وكيف سيعظّمونه على كل صلاحه من نحوهم؟ إلاّ باحتمال الانزعاج بفرح من أجله على مدى عدّة أيام، وبشهادة مخلصه، وإعلان ثابت وطيد لإيمانهم أمام الجماهير المحتشدة للاستماع إلى حكم الموت الذي سيصدر بحقهم، ثم وميض السيف، ومن ثم الحياة الأبدية. ومن بين هذه الجماهير المحتشدة المترقبة في السجون أو في الساحة العامة، قد يُقبل بعضهم إلى معرفة الحق في اللحظة عينها لانتقال المؤمنين من هذا العالم. ومع أن تلاميذ الرب الأولين تخلّوا عنه وهربوا، إلاّ أن هؤلاء سيقفون معه ويصمدون بشجاعة وإباء، وإذا كان بطرس قد أنكره، فهم، على الأقل، لم ولن يخجلوا من أن يكونوا أصدقاءه. فمثلهم مثل شاول الطرسوسي، إذ شعروا بأنهم مُفرضين ليحملوا اسمه أمام الحكّام والملوك. (٣) إنهم سوف يعترفون الاعتراف الحسن أمام ولاة عصرهم وحكّامهم، كما فعل المسيح أمام بيلاطس البنطي. (٤)

لم تفاجئهم تحدّيات الاضطهاد. هذا لأن سيدهم دعاهم إلى هذا العمل العظيم الجبار، وهو الذي وعد بأن يدعّمهم ويقوِّبهم. "فانظروا إلى نفوسكم. لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وتُجلدون في مجامع وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجلي شهادة لهم. وينبغي أن يُكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم. فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تَهتموا. بل مهما أُعطيتم في تلك الساعة فبذلك تكلموا. لأن لستم أنتم المتكلّمين بل الروح القدس... وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي. ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص." (٥) كان ذلك حقاً، هذا لأن هؤلاء الرجال والنساء وجدوا في ساعة المحنة الحرة الجيدة التي دفعتهم إلى التحدث عن يسوع المسيح بسرور وبفصاحة انسكبا عليهم من فوق. لقد شعروا بمنتهى السعادة لكونهم مسيحيين،

وهم أكثر الناس امتيازاً في العالم بأسره. لم يكن لديهم شيء يرغبون في إخفائه، أو يخجلون منه، فسيدهم لم يرتكب أية جريمة، وكذلك الأمر بالنسبة إليهم. كانوا فخورين بحمل اسم المسيح. وقد عبّر ترتوليانوس عن هذا الشعور العارم بالولاء للمسيح: "نقول أمام جميع الناس، وحينما تُمزق أجسادنا وتدمى من جرّاء تعذيباتكم، فإننا جميعاً نصرخ بأعلى ما أوتينا من قوة: "نحن نعبد الله من خلال المسيح". يحقّ لكم أن تعتقدوا أن المسيح ليس سوى إنسان، ولكن اعلموا إنه من خلاله، و به فقط قد شاء الله أن يُعرف ويُعبد." (٦)

تشدّد المسيحيون المضطهدون وتقوّوا في معاناتهم هذه، باقتناعهم التام المطلق بأن هناك حياة أفضل تنتظرهم. وليس المطلوب منهم إلا أن يعبروا عتبة الموت الضيقة ليدخلوا بعد ذلك إلى دارهم الأبدية السرمدية، فيكونوا دائماً وأبداً في حضرة الله المبارك حيث لا دموع ولا أحزان. وإذ سيعودون للاجتماع من جديد بفرح بأحبائهم، في ذلك المكان المثالي، كانوا يشناقون إلى أن يُرحّب بهم هناك، لا كعمّال بطلين، بل كخدّام صالحين وأمناء يرضى عنهم ربّهم. إن إقراراً جريئاً بالإيمان بالمسيح سوف لن يضيع أجره. يقول المسيح: "فكل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السماوات." (٧) كما أن الأقدم عهداً بين الترانيم جميعها تقول: "إن كنّا قد متنا معه فسنعيا أيضاً معه، وإن كنا نصبر معه فسنملك أيضاً معه." (٨)

كان هناك الكثيرون ممن يرغبون في أن يملكوا مع الربّ يسوع، كانوا يشناقون بإخلاص إلى أن يُتوجوا بتاج الشهادة. وفي يقينهم ياحراز النصر المبين على قوى الظلام، كانوا قد حلّوا أنفسهم من رباطات هذا العالم الكاذب والمخدّر. قُدّر لهذا العالم

أن يزول عن قريب، وهم لم يعودوا يرغبون في أن يبقوا مستعبدين لادّعاءاته النافهة، ولا لفساده المستشري. تكلم تروتوليانوس بلسانهم جميعهم عندما قال: "نحن نرغب التعجيل في أمر حصولنا على الملك، لا أن نطيل زمن عبوديتنا... نعم، ليأت ملكوتك أيها الرب سريعاً، وسريعاً جداً. وسيكون هذا تحقيقاً لأشواق المسيحيين، وإرباكاً للملائكة. هذا ما نصلي من أجله مبتهلين." (٩)

كانوا يتوقعون باستمرار رجوع المسيح. لذلك كانوا أمام كل أزمة أو مصيبة جديدة يتذكرون تحذير السيّد و وعده: "نعم، أنا آتي سريعاً." (١٠) "اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم." (١١) سيأتي الرب كمخلص لشعبه، وكديان للعالم. يقول الكتاب أيضاً: "هو ذا الديان واقف قدام الباب" (١٢) "يوم الرب كلص في الليل هكذا يجيء. لأنه حيثما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة كالمخاض للحبلى فلا ينجون." (١٣)

ها إن أيام العز والقوة، قد زالت فعلاً من الإمبراطورية الرومانية، وحيث بدأت تندهور وتضمحل، برزت حينذاك بوادر شؤم وتعاسة تنذر بالسوء، وكان العالم يُسرّع الخطى اقتراباً إلى نهايته: أوبئة وحروب وهزّات أرضية، وانحيار الحكومات الثابتة، وخيبة أمل بالنسبة إلى ما كانت الإمبراطورية تمثله. لقد قال المسيح: "إذا سمعتم بحروب وبأخبار حروب فلا تتراعوا. لأنها لا بد أن تكون. ولكن ليس المنتهى بعد. لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتكون زلازل في أماكن وتكون مجاعات واضطرابات. هذه

مبتدأ الأوجاع... لأنه يكون في تلك الأيام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة التي خلقها الله الآن ولن يكون." (١٤)

كان كل شيء في المحدار، وفقد كل أمل في معالجة حالة الإنسانية ولم يعد بإمكانها سوى التقهقر والانحدار إلى الأسوأ. وليس غير أولئك المتفائلين جداً كان بإمكانهم أن يفكروا في غير ذلك. والمسيحي الذي كان قد أخذ من هذا العالم، قبل حلول هذه الأيام الأخيرة المرعبة، كان بوسعه أن يعد نفسه مباركاً فعلاً. قال ترتوليانوس: "يبقى المؤمن منتظراً ذلك اليوم... وهو قلقٌ يومياً على ما يرجوه كل يوم." (١٥) إن رغبة الكثيرين من المؤمنين في ترك هذا العالم قبل أن يشب فيه الحريق الهائل الأخير، قطع في الواقع ما تبقى لهم من صلوات به، وهكذا شددهم لمواجهة ساعة الغنة، لحظة المغادرة والانطلاق.

كان بإمكان أتباع المسيح أن يبقوا واثقين بانتصارهم النهائي مهما كانت معاناتهم. وسبق لكلمة الله الحية أن تبّأت بخصوص هياج الوثنيين المجنون على ابن الإنسان. هؤلاء سيحاربون (المسيح) و (المسيح) يغلبهم لأنه رب الأرباب وملك الملوك." (١٦) كان ترتوليانوس يتطّلع إلى اليوم الذي فيه ستقلب ممالك العالم وستجتو كل ركبة باسم الرب يسوع. (١٩) لقد أسرعت محيّلته واستبقت مجيء المسيح، يوم الدينونة العظيم وتدمير المعذب. فلسوف يجرف الانتصار الأخير معه ذكريات الذل والخزي، هذه التي لحقت بشعب الله، وكل ما عانوه على أيدي أولئك الظالمين الأشرار. كتب يقول: "ولكن... يا للمشهد الآتي! ظهور الرب، معترفاً به، ممجّداً ومنتصراً. فكم سيكون عند ذاك جذل الملائكة وابتهاجهم، وكم سيشرق مجد القديسين حين يقومون

ويظهرون! وبعد ذلك، سناء عهد مُلك القديسين الرائع، ومدينة أورشليم الجديدة! ولكن، هناك مشاهد أخرى إلى جانب كل ما تقدّم! إنه يوم الدينونة الأخير، اليوم الذي لم تكن تتوقعه الأمم، ذلك اليوم الذي ضحكوا عند سماعهم عنه... فعلاً سأتعجب عندئذٍ وأندهش؟ ... سوف أرى جميع أولئك الملوك الجبابرة الذين أعلن عنهم جهراً بأنهم قد مُجّدوا في السماء، وهم يتنون ويتأهون جميعاً في الظلمات العميقة السحيقة، وسأرى... الحُكّام، ومضطهدي اسم الرب، وهم يدويون في نيران هي أشدّ ضراوة وأعنف قسوة من تلك التي هاجوا وماجوا بها ضد المسيحيين المؤمنين... فلاسفة... شعراء... كتاب المآسي... ممثلين... وسائقي المركبات، ومنذ الآن نستطيع أن نتخيّل ما سيحدث لهم." (١٨) عند ذلك سلاحظ مصير أولئك الذين بصقوا على الرب يسوع وضحكوا في وجهه، وجلدوه وصلبوه.

فإذا ما جاء الاضطهاد، فلا بدّ أن يكون وراءه الخلاص. لقد تشجّع المسيحيون بكلمات سيدهم: "ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم لأن نجاتكم تقترب." (١٩) كان يوم رجوع الرب يقترب أكثر فأكثر، فما هي علامات دتو مجيئه يا ترى؟ قال المسيح: "الشمس تظلم والقمر لا يعطي ضوءه، ونجوم السماء تتساقط والقوّات التي في السموات تنزعزع. وحينئذٍ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحاب بقوة كثيرة ومجد. فيرسل حينئذٍ ملائكته ويجمع مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء الأرض إلى أقصاء السماء." (٢٠) كان المسيحيون ينتظرون هذه العلامات بتوقّع. فهم سيكونون بين أولئك المختارين الذين جاء المسيح من أجلهم. وإذ يعلمون ذلك، لم يهابوا السيف الخاطف ولا التهديد البشري المؤقت.

وإذ كانوا ينتظرون هذا الحدث العظيم، كانوا يجدون تعزية خصوصاً في السفر الذي كَمَّل قانون العهد الجديد، سفر الرؤيا الذي كتبه الرسول يوحنا الشيخ من منفاه في جزيرة بطمس. وتصف فقراته الأخيرة، بتفاصيل رائعة، انتصار المسيح في النهاية، إلى جانب أمجاد المدينة المقدسة. (٢١) رأى يوحنا ما سوف يحدث في المستقبل، وبين ما رآه. لقد أفرز الشهداء لكي يحصلوا على تكريم خاص. فهم حملوا اسم المسيح حتى نهاية المطاف، رافضين أية تسوية مع هذا العالم، ومع حكامه المجدفين. "ورأيت نفوس الذين قُتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم فعاثوا وملكوا مع المسيح ألف سنة." (٢٢)

كان الشهداء ينتظرون حقاً إحراز مكافأة عظيمة، إذ ما وُجدوا مُخلصين حتى الموت. وأولئك الذين هلكوا في سبيل ملكوت الله، سِرْفَعُونَ فوراً إلى المجد بصفتهم "كهنة الله والمسيح" (٢٣)، بينما إخوتهم العاديين، الذين ماتوا بسبب العجز أو المرض، كانوا لا يزالون في عالم الأموات (Hades) حيث ينتظرون نهاية العالم ويوم الدينونة قبل أن يدخلوا بيثهم الأبدي. وأما بقية الأموات، بحسب رؤيا يوحنا، فلن يعودوا إلى الحياة إلا بعد مضي ألف سنة. (٢٤) ومتى تَمَّت الألف السنة الأولى، يُحلّ الشيطان من سجنه مرة أخرى، "ليُضِلّ الأمم" و "ليجمعهم للحرب" (٢٥)، قبل اندلاع الحريق النهائي الهائل وخلق "سمااء جديدة وأرض جديدة" (٢٦)

النبوّة القائلة إن الشهداء سيصعدون ليحكموا مع المسيح على مدى ألف سنة، استأثرت بعقول المسيحيين في جميع أنحاء العالم آنذاك. وقد ذُكر الحكم الألفي هذا في ما

كتبه بوليكاربوس في آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، و إيريناوس في بلاد الغال (فرنسا حالياً)، و يوستينوس الشهيد في روما، وبين المونثانيين في فريجيا وفي إفريقيا الشمالية. وقد اعتبر معظم هؤلاء الكتاب، إن هذه الفقرات من سفر الرؤيا تشير إلى مملكة أرضية حقيقية سوف يتمّ تدشينها، والتي سيحكم فيها المسيح مع قديسه على مدى ألف سنة فعلية، أما غيرهم، ومن جملتهم إقليمندوس و أوريجانوس في الإسكندرية، ومن ثمّ أغسطينوس في إفريقيا، فقد علّموا أن هذا الحكم الألفي قد بدأ فعلاً عند مجيء المسيح الأول، والذي بصعوده إلى السماء، بدأ يحكم هناك مع الشهداء. (٢٧) ولكن، بمغزل عن أيّ من هذه التفسيرات هو المفضل، فإن هذه المقاطع الكتابية ولدت عند المسيحيين تعزية عظيمة واطمئناناً ثابتاً وقوياً في ما كانوا يواجهونه من صراعات.

وهناك أيضاً سبب آخر وراء إخلاص المسيحيين العنيد لإيمانهم: لقد كانوا على علم بالنتائج الحتمية التي سوف تترتب على البدائل. وأدركوا أنهم انخرطوا، لا في صراع الأفكار والمبادئ الأخلاقية فحسب، بل في معركة بين القوى الروحية أيضاً. كان رفضهم للأوثان، وامتناعهم عن المشاركة في أي شكل من أشكال العبادة الوثنية، ينبع من اقتناعهم بأن الأصنام ليست مجموعة من الأخشاب والأحجار الباطلة التي لا نفع منها وحسب، لكنها أيضاً مساكن تقطنها قوّات شريرة ومقتدرة جداً، تلك القوّات التي قد تتمكّن من إتلاف الصحة والخلق وسبل العيش عند الناس، رجلاً ونساءً، وتسبّب لهم الجنون، وحتى الموت.

كانت القوة المتميّزة لهذه الأرواح معروفة جداً: فالذين يتعبّدون لها كانوا قادرين على تقديم براهين على حصول أحداث خارقة لا يمكن تفسيرها إلاّ بقوة تلك

الأرواح. كان الكهنة الوثنيون ومستحضر الأرواح يفتخرون بالأموار الخارقة للطبيعة. لكن مصدر عرافتهم وسحرهم هو شيطاني بحت. وما إن يتوسّل المتعبّد ويتصرّع إلى الروح الشريرة، حتى يجد نفسه وقد استُعبد بشكل تام للشيء الرهيب والمروّع الذي كان قد التجأ إليه طالباً عونهُ. لم تُخدع الجماعة المسيحية بالفكرة القائلة إنّ تقريب التقدّمات للأصنام، أو القَسَم بقوة الإمبراطور الإلهية ليست إلاّ أعمالاً أدبية فارغة ومن دون معنى. لكنهم عرفوا أن تيارات شريرة شديدة الخطورة تكمن وراء هذه الديانات الكاذبة والبطّالة، وأن كل من يقترب منها يعرّض نفسه لخطر الانجراف في شقاوة لا يُعبّر عنها. لم يكونوا يجترئون على أن يرتكبوا مجدداً بنير عبودية. (٢٨) لقد حذرتهم كلمة الله بوضوح كافٍ من أن يكون لهم صلة ما أو أية علاقة بهذه القوى الشيطانية: "بل إن ما يذبجه الأمم فإنما يذبجونه للشياطين لا لله. فلست أريد أن تكونوا أنتم شركاء الشياطين. لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب وكأس شياطين. لا تقدرون أن تشركوا في مائدة الرب وفي مائدة شياطين." (٢٩)

إلاّ أن معرفة القوى الخارقة والفوق الطبيعية لم تكن مقتصرة على عبدة الأوثان وحدهم. وبالطبع فإنّ أسْمى القوى الروحية جميعها هو الله الكلّي القدرة نفسه، وهو يمنح من في علاقة حميمة به قدرات فذّة ورائعة. وكثيراً ما كان المسيحيون في القرنين الثاني والثالث للميلاد يطردون الأرواح الشريرة باسم يسوع، وذلك على غرار نظرائهم في العهد الجديد، كما أن معجزات الشفاء لم تكن نادرة، أو غير شائعة آنذاك. والشهداء كانوا يشهدون لأحلام ورؤى إلهية المصدر وذات معانٍ روحية عميقة، كما فعل أيضاً العديد من إخوتهم العاديين. وقد أدى ذلك إلى انضمام عدد غير قليل من

الناس إلى مسيرة الإيمان باليسوع المسيح. وفي كثير من الأحوال، كانت حماسة المسيحيين وغيرهم المذهلة قد نشأت بكل تأكيد من خبرتهم الشخصية القوية بكل من قوة الشيطان وقوة الله. ولم يكن عندهم أي شك في الجهة التي كانوا يرغبون في الوقوف إلى جانبها. (٣٠)

لم ينظر المسيحيون إلى ساعة الخنعة كأنها إذلالاً يجب احتماله، بل اعتبروها فرصة يجب انتهازها. فحينما كانوا يجردون أنفسهم مرغمين على أن يكونوا محطّ الأنظار في الأماكن العامة، كانوا يجردون في ذلك فرصتهم ليضيئوا هناك بمحبة الله. إن كنا نحن في أيامنا، نحاول أن نتحاشى، أو أن نتجاهل ببساطة، التحدي الموضوع أمامنا في العظة على الجبل، فقد قبلوه هم بالمقابل، كما إنهم افتخروا به. لقد غفروا لأعدائهم وباركواهم أيضاً، وأداروا الخد الآخر، تماماً كما أوصاهم سيدهم: "لكني أقول لكم أيها السامعون أحبوا أعداءكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. باركوا لاعدائكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم. من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضاً، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً." (٣١) لقد صلّى المسيحيون من أجل الذين كانوا يعدّونهم، وساروا الميل الثاني الرمزي بفرح إطاعة لربهم. (٣٢) كانوا يعلمون أنهم سيكافأون على إخلاصهم. فاليسوع صرّح بالقول: "طوبى للمطرودين من أجل البر. لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجل أني كاذبين. افرحوا وقللوا. لأن أجركم عظيم في السموات." (٣٣)

لقد اختبروا التعزية في أحزانهم وأوجاعهم. وملاً روح الله قلوبهم بالبهجة وبالسرور المتقد الملتهب الذي أعطاهم الجرأة والثقة. كما أنهم اكتشفوا في أوقات

الحاجة والعوز كيف أن الرب يسوع، العبد المتألم، يقترب أكثر من عبيده المتألمين. هذا وإهم لم يذكروا في تبشيرهم عن قوة الله التي لا تُقاوم، على قدر ما تكلموا عن تعزياته الدافئة، وعن محبته الثابتة وحنانه من نحو الضعيف والمنسحق. لقد كانوا على حق. هذا لأن المسيحية لا تركز ياله بعيد، يكتفي بفرض مراسيم باردة ناشفة وإصدار أحكام صائبة، لكنها تقدّم أباً محباً يبحث عن الخطاة لكي يخلصهم. فالإنجيل لا يتحدث عن الله الذي يُلبس الأقوياء مجداً، بل عن الله الذي يملأ قلوب المتواضعين بالفرح والسرور. "أنزل الأعداء عن الكراسي ورفع المتضعين، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين." (٣٤)

كان تصرّف المسيحيين في قاعة المحكمة وفي الميدان مدعاة باستمرار لاندهاش الجموع المحتشدة. وحتى لو جنّبوا الموت، يبقى أن شهادتهم المخلصة كانت إنجازاً مقتدرًا وانتصاراً بحدّ ذاتها. كان الاعتراف العلني بالإيمان بالمسيح جزءاً من دعوة الله للكنيسة في كرازتها بالإنجيل للعالم، وفرصة يجب انتهازها بأي ثمن. كان الوثنيون يسجنون المسيحيين في الزنانات، ويعرضونهم للوحوش الكاسرة، ويأتون بهم مقيدين بالسلاسل والحديد ليقفوا أمام الحكّام والولاة. وبالرغم من كل هذا، لم يكن المسيحيون يتصرفون بعدم لياقة، أو يُظهرون سخطهم على الحكام، ونادراً جداً ما كانوا يخافون أو يرتعبون. بل عوضاً عن ذلك، كانت جلسات المحاكمة هذه تتسم بموقف الشكر الهادئ لله، وبتعبير راسخ عن الثقة به تعالى كمن يمسك بيده زمام كل شيء. لقد علموا أن القضاة، ليسوا إلاّ أدوات يحرّكها الله الأزلي بيده الحكيمة بموجب إرادته. ألم يخاطب الرب يسوع بيلاطس البنطي بالقول: "لم يكن لك عليّ سلطان البتة لو لم تكن قد

أعطيت من فوق؟" (٣٥) كان هذا الوثوق المطلق بالله تعالى وبتحكّمه بجميع الأشياء، هو الذي ألهم المؤمنين الصبر والسلوان، ومنحهم التصرف الجليل الوقور الذي كان مؤثراً للغاية ومثيراً للإعجاب حقاً، كما ورد في السجلات ومحاضر الدعاوى القضائية، لقد كانوا شجعاناً في وجه التهديد والوعيد، لطفاء مع أعنف معذّبيهم وأشرسهم، وقد تقبلوا المعاناة والآلام بفرح عظيم، على اعتبار أنّها الطريق الذي عينه لهم الرب لقيادتهم إلى المجد في ملكوته السماوي العتيق.

لقد تأثر المشاهدون تأثراً عميقاً بكل ما تقدّم. ولدينا شواهد صحيحة ومنتحقق منها عن وثنيين أدركوا حقيقة الإنجيل، وصمّموا على إتباع المسيح في اللحظة نفسها التي كانوا يشاهدون فيها المسيحيين، رجالاً ونساءً، يدانون ويموتون من أجل القضية المسيحية. (٣٦) كذلك كان هناك بكل تأكيد عدد أكبر من الناس، من وثنيين ويهود، تحركت مشاعرهم في العمق بما رأوا وما سمعوا، وقد حصلوا من جرّاء ذلك على انطباعات مفعمة بالحياة، قادتهم مع مرور الوقت إلى الإيمان عينه. كتب تروتوليانوس إلى الحكام الرومان: "لا تنفَعكم شراستكم شيئاً، مع أنّكم تزدادون براعةً وإبداعاً في التعبير عنها، إنّما لمن الأمور التي تجذب الناس إلى جماعتنا. لأنّه كلّما أمعنتم في قهرنا وسحقنا، ازداد عدداً". وبعد هذا ينطق تروتوليانوس بذلك التحديّ الرائع الممتاز، الذي دخل في تراثنا المسيحي عندما قال: "إنّ دماء المسيحيين هي بذار. يحرث الكثير من فلاسفتكم الناس على التحلّي بالصبر لاحتمال الآلام والموت... ومع ذلك فإنّ كلماتكم هذه قد استقطبت حولهم عدداً من التلاميذ أقلّ من أولئك الذين علّمهم المسيحيون بقدوة أعمالهم. هذا العناد نفسه الذي تعيروننا به، هو الذي يُظهر لكم وجه الحق. فمن

ذا الذي لا يتحرك للبحث عن السبب الذي يقف وراء صمودنا العنيد بعد أن يراه، ومن ذا الذي لا ينضم إلى إيماننا بعد تقصّيه له، ومن ذا الذي لا يرغب في المعاناة بعد انضمامه إلينا، حتى يتسنى له أن يربح نعمة الله كلها؟... من أجل هذا، نحن نشكركم على حكمكم علينا في الوقت عينه الذي فيه يصدر هذا الحكم. ثمة تباين كبير بين ما لله وما للإنسان، حتى إنه عندما تُدينوننا، يقوم الله بتبريرنا. "(٣٧)

لقد كانت دماء الشهداء بذار الكنيسة فعلاً. فأبواب السجون كانت محاطة بحشود الصحابة والأصدقاء، وجميعهم مملوون غيراً لزيارة إخوتهم وأخواتهم المقيد بين جدرانها. كانت الاستجوابات العمومية في المحاكم الرومانية ناجحة، بشكل ليس له مثيل، في نشر رسالة الإنجيل بشمال إفريقيا. كما أن مقابر الشهداء أصبحت مواقع مفضلة لعقد الاجتماعات المسيحية. والكنائس استقت أيضاً قوتها وتشددتها من القدوة المهمة لأبطاها وبواسلها. لقد كانوا يحتفلون كل سنة بذكرى اليوم الذي فيه تألم هؤلاء الأبطال على اعتبار أن هذا اليوم هو يوم مجدهم. كان المسيحيون يشجعون الكنائس من السجون ويقدمون لها نصائح عديدة، وكانت أقوالهم تُعتبر كأنها إلهامات أوحى بها إليهم الله ذاته. وقد رحّب كثيرٌ من الناس بما كان يحصل عليه هؤلاء المؤمنون السجناء من أحلام ورؤى، واعتبروها صادرة من عند الله. كانت روايات الشهداء المكتوبة، أكثر المؤلفات شعبية عند الكنائس الأولى. لقد ازدهرت الجماعات المسيحية ونمت بقوة، من جراء الأحزان والأوجاع عينها التي كان القصد منها تحطيم هذه الجماعات. فما هي الخلاصة التي نستطيع أن نستنتجها من هذا التصرف الرائع عند مواجهة الاضطهاد؟ إن القسوة والضراوة التي تعامل بها الحكام الرومان مع الإيمان

المسيحي لم تستطيعا سحقه، بل جعلناه أكثر شعبية. لم تُمخِ الكنائس أو تُزال من الوجود لكنها نشطت وتعززت. فلم حصل ذلك؟ علينا أولاً أن نتذكر أنه، مع حلول القرن الثالث للميلاد، كان المسيحيون قد أصبحوا يشكلون أقلية عددها محترم في المدن في إفريقيا الشمالية، كما أنهم كانوا الأغلبية في بعض المناطق. كانت هذه المقاومة الجريئة للسلطات أسهل حينما يكثُر عدد المسيحيين جداً. ولم يكن باستطاعة الحكام أن يلقوا القبض عليهم جميعاً ويبيدوهم: لم تكن السجون تكفي لاستيعاب هذه الجماهير الغفيرة، ولو فعلت الحكومة ذلك، لتوقفت نشاطات الحياة العامة في البلاد وجمدت تماماً. كان على نسبة معينة من الذين احتشدوا لتقديم الإكرام علناً للشهداء، أن يكابدوا عقاباً على فعلهم هذا، إلا أن الكنيسة، ككل، كانت في أمان من الإبادة. ومقابل كل مسيحي يقبع مسجوناً في داخل زنزانته، هناك مئة آخرون خارج السجن، وجميع هؤلاء متشوقون إلى مؤازرته ومساندته في ساعة الشهادة والمجد، وأيضاً إلى تكريم ذكراه بعد ذلك.

ولا ريب في أن النمو الراسخ لجماعة المسيحيين في السنوات التي سبقت الأزمة، يشكّل المفتاح لتفسير جرأة هذه الجماعة وقدرتها على الصمود والبقاء حين نزلت بها النوائب. لقد استفادت الكنائس من السلام والحرية المتوافرين لها، إذ اشتغلت جدياً ما دام ضوء النهار مشرقاً. وقد أصبح لديها الآن، كما كان حال يوسف في مصر، مصادر فسيحة واسعة من المخترنات الروحية، تكفيها لسنوات القحط والجوع. كذلك كان عند المسيحيين، وعلى غرار العذارى الخمس الحكيمات، مقدار كافٍ من الزيت لإنارة

مصاييحهم، وهذه المصاييح كانت مضيئة، ومجهّزة أفضل تجهيز وأكملة لتشع بلمعائها في أحلك الليالي. (٣٨)

وعليه فإن التاريخ نفسه يُظهر لنا، وحتى من وجهة النظر البشرية، كيف أن القوى العاملة لصالح الكنيسة كانت أعظم من القوى المنظّمة ضدها. والمسيحيون كانوا يتمتّعون بتأكيد راسخ بالانتصار، وذلك بفضل اقتناعهم بصحة الإنجيل وببطلان الوثنية. بالمقابل، لم يكن عند الوثنيين أية ثقة مماثلة بديانتهم. كان الوثنيون يجنحون من سخافات ديانتهم ومن فسادها الخلقى، وأما تمسّكهم بها فهو لأنهم قد تعودوا عليها ولأنها كانت أساس علاقتهم. إن سلاح الافتراء الذي طالما استعمله الوثنيون ضد المسيحيين في الأيام الأولى، سقط عاجزاً ضعيفاً على أرض المعركة، عندما أظهر الشهداء، وعلى مرأى من الجميع، أي نوع من الإيمان كان عندهم. لم تستطع الوثنية أن توحى بمثل هذه الاستقامة الخلقية أو الإقدام والصبر والعزيمة الشخصية. وأكثر من هذا، فقد كانت تعجز عن إلهام معتنقيها بالرجاء العظيم، وبتأكيد الخلاص والحياة الأبدية، الوعود التي كانت توازر المسيحيين وتنبّتهم إلى آخر ساعات حياتهم. لم يكن بوسع الوثنية أيضاً أن تضاهي المسيحية لجهة شركة المحبة، علامتها المميّزة، متخطية بذلك التمييز البغيض بين الناس، على أساس الطبقة الاجتماعية والثقافة والعنصر، العوامل التي كانت تُفسد الجماعات الوثنية.

وبالطبع، لقد عمل الاضطهاد على ضمّ الجماعات المسيحية بعضها إلى بعض، وأصبحت الفروقات القديمة طيّ النسيان خلال فترات الحرمان المشتركة. وكلّما كان يُتلى أي مرسوم من المراسيم الإمبراطورية، كان يعني ذلك أن الضربة قد تسقط على

أي واحد من أعضاء الكنيسة من دون أي تمييز. عند ذلك كان المؤمنون يسارعون فوراً لزيارة بعضهم بعضاً للتشجيع، والحث على الصمود. وما إن تعلموا بخبر إلقاء السلطات القبض على أيّ من أعضاء الكنيسة، حتى كانوا يقومون بحشد طاقاتهم، ولملئة شملهم لأجل تنظيم زيارات دورية إلى السجن، لسدّ أيّ نوع من احتياجات زميلهم، ولمازرتة وشدّ عزيمته في الإيمان. كانوا يفسّرون له الكتاب المقدس مادحين إيمانه، وممجّدين مدى عظمة مهمته الإلهية، وهم يبذلون كل ما في وسعهم لمساعدته على إكمال النصر على طول أرض المعركة الممتدّة أمامه. كانوا يصلّون لأجله بجرارة، كما أن غيرهم هذه لم تكن أقل عندما كانوا يصلّون معه. وفي يوم المحاكمة كانوا يحتشدون بعدد كبير، مالتين قاعة المحاكمة، أو في الساحة العامة، لكي يقدموا لأخيهم دعماً معنوياً، ويصلّوا لأجله أيضاً، وللاستماع إلى آخر كلماته، ولكي يحتفظ بشجاعته وإقدامه ولا يضعف. إن أولئك الذين اختيروا للوقوف أمام الجماهير المحتشدة، كان يُنظر إليهم كجنود المسيح، وكأبطال الجماعة المسيحية. وإذا كانوا يشهدون لحق الإنجيل، كانوا في الواقع يقرون أيضاً بمدى قوّة مجموعتهم المسيحية وإيمانها. فالشاهد كان يمثّل الكنيسة التي ينتمي إليها، وبطولة الواحد كانت تنعكس إيجاباً ككشرف للجميع.

لم يكن الأبطال الحقيقيون في الكنيسة الأولى في إفريقيا الشمالية من وعظها العظماء، أو من صفوف علماء اللاهوت اللاّمعين فيها. إن الرجال والنساء الذين كانوا يُذكرون بحب عميق والذين يُتحدث دائماً عن مآثرهم بولاء مفعم بالخبرة، كانوا في الواقع فقراء بأمور هذا العالم، ولكنهم كانوا أغنياء بإيمانهم. قال صموئيل برنكل

(Samue Brengle): "إن إحدى كبرى مفارقات التاريخ، هو التجاهل والاستخفاف التام بالرتب والألقاب في الأحكام النهائية التي يمرّها الناس بعضهم على بعض. إن التقدير النهائي للرجال يُظهر بأن التاريخ لا يهتم، ولا حتى بمقدار ذرّة واحدة، بالرتب والألقاب التي يحملها المرء، ولا يأبه حتى للمناصب التي كان يتبوّأها، ولكنه يهتم فقط بنوعية أعماله وطبيعة عقله وقلبه. نحن لا نزال نتذكر حتى اليوم فيليستاس و سبيراتوس و كلرينوس بأطيب الذكريات وأحبها، بينما أسماء الأرسقراطيين المتغطرسين الذين نطقوا على هؤلاء القديسين بحكم الموت، أصبحت في طي النسيان. وقد قال المسيح بحق: "ولكن، كثيرون أولون يكونون آخرين والآخرون أولين." (٣٩)

حواشي الفصل:

١- (يوحنا ٨ : ١٢)

٢- بالإشارة إلى (المزمور ٤٠ : ٢)

٣- (أعمال ٩ : ١٥ و١٦)

٤- ١ (تيموثاوس ٦ : ١٣)

٥- (مرقس ١٣ : ٩ - ١٣)

Apologeticus ٢١ - ٦

٧- (متى ١٠ : ٣٢)

٨- ٢ (تيموثاوس ٢ : ١١ و١٢)

De Oratione ٥ - ٩

١٠- (رؤيا ٢٢ : ٢٠)

١١- (متى ٢٤ : ٤٢)

١٢- (يعقوب ٥ : ٩)

١٣- ١ (تسالونيكي ٥ : ٣ و٢)

١٤- (مرقس ١٣ : ٧ و٨، ١٩)

De Anima ٣٣ - ١٥

١٦- (رؤيا ١٧ : ١٤)

١٧- (فيلبي ٢ : ١٠)

De Spectaculis ٣٠ - ١٨

١٩- (لوقا ٢١ : ٢٨)

٢٠- (مرقس ١٣ : ٢٤-٢٧)

٢١- (رؤيا ٢٠ : ٤) يعتبر بعض العلماء أن سفر الرؤيا قد كتبه "يوحنا آخر"

إلا أن البرهان على صحة هذا

الرأي غير متوافر.

٢٢- (رؤيا ٢٠ : ٦). راجع (Schaff HOTCC Vol. II p. ٨٣)

٢٣- (رؤيا ٢٠ : ٥)

٢٤- (رؤيا ٢٠ : ٢ ، ٧ و٨)

٢٥- ٢ (بطرس ٣ : ٧-١٣)

٢٦- (٦٢٠ - ٥٨٩) (Schaff HOTCC Vol. II p. ٥٨٩) يبحث

الأفكار المتنوعة التي كانت عند

اللاهوتيين المسيحيين الأوائل بشأن علم الأمور الأخيرة.

٢٧- (غلاطية ٤ : ٩ و٨ ، ٥ : ١)

٢٨- ١ (كورنثوس ١٠ : ٢٠ و٢١)

٢٩- (Frend pp. (٩٤ - ٩٥)

٣٠- (لوقا ٦ : ٢٧ - ٢٩)

٣١- بالإشارة إلى (متى ٥ : ٤١)

٣٢- (متى ٥ : ١٠ - ١٢)

٣٣- (لوقا ١ : ٥٢ - ٥٣)

٣٤- (يوحنا ١٩ : ١١)

٣٥- Neill pp.(٤٣ - ٤٤)

٣٦- Apologetic ٥٠

٣٧- بالإشارة إلى (تكوين: ٤٦-٥٧)، (متى ٢٥ : ١-١٣)

٣٨- مقتبسة (Oswald Sanders Spiritual Leadership p.)

(١٣

٣٩- (مرقس ١٠ : ٣١)

الفصل الثاني عشر قوة الحياة الجديدة

إن المستقبل ممتد أمامنا. وقد تصير أعمالنا وأقوالنا في يوم من الأيام موضوعاً للدراسة التاريخية. وما كان باستطاعة المؤمنين الأوائل أن يتخيلوا أن إفريقيا وحدها ستحتوي، مع حلول العام ٢٠٠٠، على ٢٥٠ مليون مسيحي، أو أن ١٥ مليون عربي في العالم يفتخرون بأنهم من أتباع المسيح. وعلى الرغم من ذلك فإن ثقتهم الكاملة بالانتصار النهائي، جعلتهم يتحملون الآلام بصبر، مُظهرين حِلْمهم لمن يعيشون حولهم، ومؤكدين بذلك أنه لا يمكن لمقاصد الله أن تفشل وأنه تعالى اختار أن يكتمل مشيئته بواسطة شهادتهم المسالمة للحق.

لقد أحس المسيحيون بعدم حاجتهم إلى فرض دينهم أو الدفاع عنه بأسلحة بشرية - بالقوة أو بالقانون أو بالتهديد. ولهذا السبب فإن الأوطان ذات الإرث المسيحي تسمح بالحرية الدينية الكاملة لأتباع الديانات الأخرى. كما أن المسيحيين لا يقنطون البتة عندما يكونون أقلية في مكان معين. فهم سيكونون مواطنين مخلصين وجيراناً متعاونين ومحترمين ونزهاء ولطفاء. وسيفسّرون إيمانهم بكل سرور لمن يهتمهم الأمر، لكن سيتركون لكل فرد الحرية لأن يطلب إلى الله أن يظهر له الحق كما هو.

لقد فشلت فشلاً ذريعاً محاولات الناس الدنيويين في العصور الوسطى لتحويل الكنيسة إلى جيش صليبي، وسرعان ما يُترك هذا التحريف الواضح لمبادئ المسيح الداعية على الحجة لجميع الناس بمجرد أن أصبح بإمكان أتباعه أن يقرأوا الكتاب المقدس بحرية وبلغتهم الخاصة. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، عادت الكنائس في جميع

أنحاء العالم إلى أصولها النقية والمقدسة و "ثمر البر يُزرع في السلام من الذين يفعلون السلام." (١)

والغاية التي تلهم المسيحيين الحقيقيين في الحياة هي: أن يملأوا هذا العالم بمحبة الله. لقد انطلقوا عارضين الشفاء على ذوي الأرواح المريضة، والرجاء للبيائسين، والسلام والغفران للرجال والنساء البعيدين عن الله. لقد كان المسيحيون أطباء وممرضات، لا على صعيد الجسد، بل النفس، وكان دواؤهم الشافي هو محبة الله، كما ظهرت في المسيح. كتب بولس الرسول: "ولكن كنت حريصاً أن أبشّر هكذا ليس حيث سُمّي المسيح"، "الذي تنادي به منذرين كل إنسان ومعلمين كل إنسان بكل حكمة لكي نحضر كل إنسان كاملاً في المسيح يسوع." (٢)

لقد عزم التلاميذ على أن ينفذوا مأمورية المسيح الأخيرة لهم: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم... وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به." (٣) كان المسيحيون نور العالم، وكانوا حريصين على أن يُشرق هذا النور في كل مكان. (٤)

شجع أحدهم الآخر في هذا العمل العظيم، حيث كانوا يجتمعون لقراءة كلمة الله وللصلاة طلباً لبركته تعالى على مساعيهم. كانت الشركة المسيحية تمنحهم قوة هائلة. وفي أثناء سفر المبشّر، كان يتشجع بما يقدمه له إخوته وأخواته في الكنيسة التي أرسلته، من دعم مُحب وصلاة من أجله، كما أنه كان متأكداً من أن ترحيباً حاراً ينتظره لدى عودته. كان واثقاً من الرسالة التي دُعي إلى المناادة بها: "لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن." (٥)

لقد أعطت كلمة المسيح معنىً للحياة، كما أظهرت طبيعة الإنسان الحقيقية. كذلك أعطت الإنسان العاقل فهماً لسلوك الناس، وما هي الاهتمامات التي تشغلهم. وهي، فوق هذا كله، تعرض عليهم رجاء أكيداً لمستقبل أفضل. لخص الرسول بولس القصد من التعليم المسيحي الذي يُشبع القلب والعقل: "لكي تتعزى قلوبهم مقترنةً في اغبة لكل غنى يقين الفهم لمعرفة سرّ الله الآب والمسيح المذخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم." (٦)

لقد وجد المسيحيون طريقاً جديداً للحياة، وهو أن يحبوا أقرباءهم، ويغفروا للذين يسيئون إليهم، ويحسنوا لكل الناس. كانوا في اجتماعاتهم يقتربون إلى ربهم وبعضهم إلى بعض، فهناك كانوا يسجدون للرب في زينة مقدسة. (٧) وكانوا يحصلون بذلك على القوة الروحية اللازمة لتتيمم المهمة التي أوتمنوا عليها. كانوا يجدون في هذا فرحهم وبمجتهم. كان هذا قصد الله فيهم. كما كان هذا سرّ نجاحهم.

حواشي الفصل

- ١- (يعقوب ٣ : ١٨)
- ٢- (رومية ١٥ : ٢٠)، (كولوسي ١ : ٢٨)
- ٣- (متى ٢٨ : ١٩ و ٢٠)
- ٤- (متى ٥ : ١٤)
- ٥- (رومية ١ : ١٦)
- ٦- (كولوسي : ٣ و ٢)
- ٧- (المزمور ٢٩ : ٢)

التواريخ

قبل المسيح

١٠٠٠ الفينيقيون يستقرون على شاطئ البحر الأبيض المتوسط عند إفريقيا

الشمالية.

٨٠٠ بداية إمبراطورية قرطاجنة.

١٤٦ روما تهمز إمبراطورية قرطاجنة، بداية الحكم الروماني في إفريقيا.

بعد المسيح

نحو ٦٨ استشهاد الرسولين بطرس و بولس

١٥٦ استشهاد بوليكاربوس، ناظر سيميرنا

نحو ١٦٠ ولادة ترتوليانوس

١٦٥ استشهاد يوستينوس الشهيد

١٧٧ - ١٩٢ الاضطهاد في أثناء حكم ماركس أوريليوس وكومودس

١٧٧ الاضطهاد في ليون وفيان (فرنسا)

١٨٠ الاضطهاد في سكيليوم

نحو ١٩٥ اهداء ترتوليانوس إلى المسيحية

نحو ٢٠٠ ولادة كبريانوس: إصدار الحرم الكنسي في روما بحق المونتانيين

٢٠٢ - ٢٠٤ الاضطهاد في أثناء حكم سيفيروس

٢٠٣ استشهاد بريتوا و فيليستاس: انضمام ترتوليانوس إلى المونتانيين

نحو ٢٣٠ موت ترتوليانوس